

العنوان:	أثر الحركات الفتن و الثورات في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في العصر العباسي الأول من سنة 132 هـ / 247 هـ / 750 م / 861 م
المؤلف الرئيسي:	الرقب، نائل عبدالحميد عبدالرحمن
مؤلفين آخرين:	خريسات، محمد عبدالقادر(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2003
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 239
رقم MD:	548579
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الحركات الثورية، الأحوال السياسية، العصر العباسي الأول، الأحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/548579

الفصل الأول

الشام عشية قيام الدولة العباسية

- ١- أجناد الشام
- ٢- التحديد الجغرافي لجند دمشق
- ٣- التقسيمات الإدارية لجند دمشق
- ٤- الأوضاع الإدارية في جند دمشق
- ٥- جند دمشق عشية سقوط الدولة الأموية

الفصل الأول

الشام محمية قيام الدولة العباسية

أجناد الشام

اتبع العرب نظام الأجناد ^(١) في تقسم بلاد الشام ، ويميل بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا هذا النظام عن الروم ، وأن التقسيمات الإدارية في الشام ذات أصول بيزنطية . ^(٢)

ولعل الشام هي الولاية الوحيدة التي انقسمت إلى ما يسمى أجناداً ، فياقوت الحموي يذكر أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام . ^(٣)

وذكر البلاذري أن العرب اتبعوا هذا النظام لأسباب إدارية وعسكرية ومالية، ويقول : " اختلفوا في تسمية الأجناد ، فقال بعضهم : سمى المسلمون فلسطين جُنْدًا لأنه جمع كُوراً ، وكذلك دمشق والأردن ، وكذلك حمص مع قنسرين وقال بعضهم : سُميت كل ناحية لها جندٌ يقبضون أطماعهم بها جُنْدًا . ^(٤)

وتعود أسباب هذا التقسيم وفقاً للاستراتيجية العسكرية التابعة من أمرين هما: الأول : أن هذا التقسيم جاء عرضياً وليس طويلاً لتكون البادية الخط الخلفي للمسلمين في حالة تعرضهم للهجوم .

(١) لفظ جند أطلق على بلاد الشام ، وهو أسم أطلق على كل مدينة فيها جند ن والتجنيد يعني التجمع ن وجندت

جنداً أي جمعت جنداً . الجوهرى ، الصحاح ، ص ٢٣ ، مادة جند .

(٢) فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

الثاني : تقسيم الساحل بين هذه الأجناد نظراً لقلّة الكفاءة البحرية للمسلمين في ذلك الوقت من جهة ، ومن جهة أخرى لحماية هذه السواحل من الهجمات البيزنطية (١).

وكانت بلاد الشام قد قُسمت إلى أربعة أقسام حسب مراكزها المهمة ، إذ شرع أبو بكر في توجيه قواته نحو بلاد الشام بخطة عسكرية قامت على تقسيم البلاد " فسمى لأبي عبيدة بن عبدالله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص فلسطين " (٢).

وكان الهدف من الأجناد في العصر الراشدي هو تنظيم الحياة الإدارية في الجند ليسهل مراقبته من الأجهزة الإدارية العليا في الدولة ، كما أنه هدف عسكري يمثل دفاع كل جند عن منطقته لتحقيق الأمن والاستقرار فيها ، إضافة إلى أنه هدف اقتصادي يتمثل في الخراج المجبي من هذه الأجناد (٣).

إن الضرورات الإدارية أوجبت تقسيم الشام إلى هذه الأجناد ؛ فالساحل الشامي طويل ، وهو مهدد من قبل البيزنطيين ، وعدم وجود وسائل الدفاع البحرية الكافية في ذلك الوقت كان من الضروري إيجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له ، وكان من الطبيعي أن يقسم الساحل على أجناد الشام جميعها لكي تتعاون معاً في صد أي عدوان قد تتعرض له المدن الساحلية (٤) . أما في العصر الأموي فقد أُفرد جند خامس هو جند قنسرين ، واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم أبنه يزيد ، فالبلادي يذكر أن قنسرين وكورها كانت مضمومة إلى

(١) محمد خريسات ، تاريخ الأردن منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص ٣٥ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص ٣٩٤ .

- (٣) نجدت خمّاش ، الشام في صدر الاسلام ، ص ٢١٥ .
- (٤) المرجع السابق ، ص ٢١٥ ، محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٣٥ .

حمص حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وانطاكيا ومنبج وذواتها جنداً ^(١) .. بينما ذكر الطبري أن معاوية هو الذي جند قنسرين ممن أتاه من أهل العراقين أيام علي " وإنما كانت قنسرين رستاقاً من رساتيق حمص ، حتى مصرها معاوية ، وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة في ذلك الزمان ، وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق واذربيجان والموصل والباب " ^(٢).

وكانت الجزيرة تتبع إدارياً في بادئ الأمر لجند حمص ، فلما أصبحت قنسرين جنداً ، ارتبطت الجزيرة إدارياً بجند قنسرين حتى خلافة عبد الملك بن مروان الذي أخرج منطقة الجزيرة إدارياً من جند قنسرين ، وجعلها جنداً مستقلاً يأخذ جنودها أعطياتهم من خراجها ، وذلك لتهديد الروم لبلاد الشام الذين بدأوا يشنون هجمات متعددة عليها ، ولذلك رأى عبد الملك بن مروان أن يضع منطقة عسكرية دفاعية ضدهم ، وذلك بإقامة القلاع والتحصينات وتجهيز العساكر . يقول البلاذري (ذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين ، فجندّها عبد الملك ابن مروان ، أي أفردّها فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها ، وأن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ، ففعل) ^(٣) .

وقد ظل هذا الأمر كذلك حتى عهد هارون الرشيد الذي فصل قنسرين بكورها فصير ذلك جنداً واحداً ، وأفرد منبج ، ودلوك ، ورعبان وقورس وانطاكيا وتيزين ، وسماها العواصم لأن المسلمين يقيمون بها فتعصمهم وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وجعل مدينة العواصم منبج ^(٤) . وهكذا أصبحت بلاد الشام تضم الأجناد التالية ، هي : جند دمشق ومركزه ، مدينة دمشق ، وجند فلسطين ——— ،

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٤ ، ص ١٦١ ، أبن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

وقصبته اللدّ أولاً ثم أصبحت الرملة ، وجند الأردن ، وقصبته الكبرى هي طبريا ، وجند حمص وقصبته حمص ، وجند قنسرين وقصبته حلب (١).

ويلاحظ أن التقسيمات الإدارية سهلت أمر جمع الجند إذا اقتضى الأمر ذلك ، فمنه يقبضون رواتبهم ، وإليه تنسب راياتهم (٢).

والملاحظة الأخرى أن الجغرافيين قد اختلفوا في تسمية أقليم الشام ، فمنهم من استخدم مصطلح كور ، ومنهم من استخدم مصطلح الأجناد ، ومنهم من يستخدم المصطلحين معاً ، ويعود هذا الاختلاف إلى أن الجغرافيين أرادوا التمييز بين جزء من ديار الشام فلجأوا إلى هذا التقسيم العسكري الإداري القديم (٣).

وقد قسمت الأجناد إلى كور (٤) تبعا للمتطلبات الإدارية ليسهل على الأمير أو الوالي متابعة شؤون ولايته أو إقليمه ، وقد اختلف في تحديد هذه الكور ، وجاء هذا الاختلاف نتيجة فصل مناطق من جند وضمها إلى جند آخر .

وقد انتبه الجغرافيون إلى ذلك وأشاروا إلى الكور التي لم تكن في الجند أصلاً ، واستخدموا مصطلح (مضمومة) للدلالة على أن الكورة ليست أصلاً من هذا الجند أو ذاك (٥) . ونظراً لتغير المراكز الحضرية في الشام بين التقسيم

(١) الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٤ ، ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٥٤ ، ١٦٠ ، المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٣) اليعقوبي ، استخدم مصطلح اقليم وكذلك استخدم اصطلاح الكور (اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٩٣ ، الاضطخري استخدم المصطلحين معاً (المسالك والممالك ، ص ٤٣) ابن حوقل نهج نهج الاضطخري وكرر ما قاله ، انظر صورة الارض ، ص ١٥٤ ، ١٦٠ ، المقدسي قسمها إلى كور (أحسن التقاسيم ، ص ١٥٤) ، انظر نقولا زيادة ، شاميات ، دراسات في الحضارة والتاريخ ص ١١٨ .

- (٤) الكورة : لغة المدينة والصقع ، وفي التحديد الاداري كل صقع يشمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصيته أو مدينة أو نهر بجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة كور ، ص ٣٦١ .
- (٥) محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٣٦ .

والتراجع ، وما يتبعه من تغيير في المراكز الإدارية حيث التجمعات السكانية الأكثر ، فقد أصبح من الصعب على الباحث أن يتتبع التقسيمات الإدارية خلال الفترات الإسلامية المبكرة (١).

ومما لا شك فيه أن للحاجات الإدارية دوراً في تقسيم بلاد الشام إلى أجناد وكور ، إذ سهلت عملية الاتصال بين العاصمة دمشق ، وبين هذه الأجناد ، بالإضافة إلى معرفة أحوال هذه الأجناد ، وما يدور فيها من أحداث ، وذلك عن طريق عامل البريد المسؤول عنه ، وكما ساعد هذا التقسيم على عملية الضبط الإداري والسياسي للدولة (٢).

ويعد تقسم الكور استمراراً للوحدات البيزنطية ، فقد كانت بلاد الشام في العصر البيزنطي ولاية واحدة مقسمة إلى مقاطعات وهي سوريا ، وفينيقيا ، وفلسطين ، وقسمت الأجناد تبعاً لما فتحه كل جيش من الجيوش العربية (٣).

(١) محمد خريسات ، تاريخ الاردن ، ص ٣٦ .

- (٢) نجدت خمّاش ، الشام في صدر الإسلام ، ص ٢٢٣ .
- (٣) أنظر نقولا زيادة ، دراسات في الحضارة والتاريخ ، شاميات ، ص ١١٨ ، والتطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، مؤتمر بلاد الشام ، ١٩٧٤ ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

التحديد الجغرافي لمدينة دمشق

تعد مدينة دمشق من أقدم المدن في بلاد الشام ، وظلت هذه المدينة عامرة باستمرار ، حيث توفرت فيها شروط طبيعية مناسبة للاستقرار والعمران ؛ مثل المناخ المعتدل والتربة الخصبة والمياه الوفيرة .

وكانت مدينة دمشق موجودة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ^(١) ، وورد ذكرها في الاف الثالثة قبل الميلاد في الواح آيلا (تل مرتخ) الاثرية باسم (دامسكي) ^(٢) .

وورد اسم دمشق أيضاً في الآثار والكتابات الهيروغليفية في تل العمرانية التي ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم (تماسكو) ومعناها المزهرة أو المثمرة تسمية بغوطاتها الخصيبية . ^(٣)

ولفظ دمشق عند العرب تعني السرعة في المشي ،ويقال دمشق الضرب دمشقة إذا ضرب ضرباً سريعاً ^(٤) ، قال الشاعر :

وصاحبتني ذات هباب دمشق كأنها بعد الكلال زروق

وقيل أن دمشق فارسية وأصلها (دم بشك) ^(٥) ، أو أنها لفظة آرامية مماته (دمشق) تتقدمها دال النسبة ، ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء ^(٦) .

(١) Eissef: Dimask L Encyclopidia, London 1965 , Vo 12 , P278

(٢) عفيف البهنسي ، مجاهل الأسماء في أحياء دمشق الفيحاء ، مجلة الحوليات الاثرية ، دمشق ١٩٩٧-١٩٧٨ م مجلد ٢٧-٢٨ ، ص ٩ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج١ ، ص ١٨ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٦٤ .

(٤) الجوهري ، الصحاح ، ج٤ ، ص ٤٧٧ ، الزبيدي ، تاج العروس ، ج٦ ، ص ٣٤٨ . ابن منظور لسان العرب ج١٠ ، ص ١٠٤ ، الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٢٤٠ .

(٥) احمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن ، المقدمة ، ص ٦ .

(٦) صفوح خير ، مدينة دمشق ، ص ١٢٣ .

ولقبت دمشق بجَلَّق ، وجَلَّق لفظة فارسية معناه ألف زهرة ، كناية عن كثرة الورد والرياحين في الغوطة (١) ، وتذكر اسم بلاد الشام لها فيقال لدمشق الشام (٢) ، وقد وردت لفظة جَلَّق في شعر حسان بن ثابت ، إذ قال (٣) :

لله درُّ عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
وسميت دمشق بالفيحاء ، أي الواسعة من الأرض أو الرياض نتيجة اتساع أرض الغوطة حول دمشق ، وكثرة ما فيها من أشجار وورود (٤).

ودمشق هي كبرى المدن في جند دمشق الذي يعد أكبر الأجناد مساحة وأطولها مسافة، ويقول اليعقوبي عن دمشق (٥) : " مدينة جليلة قديمة ، هي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير في أجناد الشام في كثرة أنهارها ، وعمارتها ، ونهرها الأعظم يقال له : بردى " وقال الاصطخري : هي في أرض واسعة بين جبال تحيط بها ، إلى مياه كثيرة وأشجار وزروع متصلة ، وتسمى تلك البقعة بالغوطة ، ليس في الشام مكان أنزه منها " (٦).

تقع دمشق على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم أو نحو ٦٩١ متراً على سطح البحر المتوسط وعلى خط طول ٣٠ شرقاً ، ودرجة عرض ٣٣ شمالاً إلى الشرق من المنحدرات الشرقية لجبال لبنان الشرقية . (٧)

(١) حسان بن ثابت ، الديوان ، ص ١٧٩ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ، الحصيني ، منتخبات التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٦ ، العلاف ، دمشق ، ص ٦ .

(٣) حسان بن ثابت ، الديوان ، ص ١٧٩ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٥) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٣ .

(٦) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٤٥ . وانظر أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٥٦ ، وابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٠ .

(٧) هارتمان ، دمشق ، دائرة المعارف الاسلامية ، جـ ٩ ، ص ٢٦٤ ، صفوح خير ، دمشق ، ص ٤٨ .
وتتكون المنطقة الطبيعية التي قامت عليها المدينة من ثلاث وحدات تضاريسية : هي الجبال ، والتلال المحيطة بالمدينة ، والمنطقة السهلية ، وتشمل الغوطة والمرج بما فيها موضع المدينة ونهر بردى وفروعه . (١)

ويعتبر نهر بردى وفروعه أبرز المظاهر الطبيعية في غوطة دمشق ، وقد حفر مجراه في هذه المنطقة ابتداءً من خانق الربوة (٢)، وفيها يتفرع النهر شرقاً وغرباً مما يكون شبكة ري واسعة تنتشر في المدينة والغوطة ، مما ساعد على عمران المدينة ، وجعلها مكاناً متميزاً لزراعة الأشجار (٣).

لقد تمتعت دمشق بموقع جغرافي مميز ، فالأرض الخصبة ، والمياه المتدفقة جعلت من غوطتها إحدى أهم مناطق بلاد الشام غزارة في إنتاجها الزراعي، كما يتبين أن دمشق تخلو من أي عقبات طبيعية تحول دون الوصول للمدينة باستثناء خانق الربوة الذي يعترض الطريق المؤدي إلى ساحل البحر المتوسط (٤).

إن انفتاح المدينة من الشرق على السهول الموصلة إلى الفرات والعراق ، ومن الغرب وجود المناطق الجبلية التي سيطرت على طريق التجارة الموصل إلى ساحل البحر المتوسط ، حيث يتم هناك الإتصال بأوروبا ، بالإضافة إلى طريق الموصل شمالاً إلى حلب فأسيا الصغرى جعلها مركزاً تجارياً هاماً لاستقبال البضائع وتصديرها (٥).

إن هذا الموقع الإستراتيجي لمدينة دمشق سهل على دمشق الاتصال بالطرق التجارية الداخلية والخارجية التي تعبر بلاد الشام من مختلف الاتجاهات ، فكانت مركزاً للقوافل التجارية منذ أقدم الأزمنة (٦).

(١) صفوح خير ، غوطة دمشق ، ص ٥٠ - ٥٩ .

(٢) خانق الربوة : - يقع جهة الشمال الغربي لمدينة دمشق .

(٣) صفوح خير ، غوطة دمشق ص ٥٣ ، ٥٤ ، كرد علي ، غوطة دمشق ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

- (٤) سوفاجيه ، دمشق الشام ، ص ٢٣ .
 (٥) المرجع السابق ، ص ٢٣ .
 (٦) صفوح خير ، غوطة دمشق ، ص ٥٣ وما بعدها .

كما يعد المناخ من العوامل المؤثرة في الانتاج الزراعي وفي الاستقرار والعمران في مدينة دمشق ، ويشتمل المناخ على عناصر رئيسية تؤثر فيه أهمها: الموقع والحرارة والرياح والأمطار^(١) .

وقد انعكس موقع مدينة دمشق بشكل واضح على مناخها ، بحكم أنها مدينة تقع على جبال مثل جبال لبنان الشرقية والغربية ، مما يشكل حاجزاً أمام غيوم البحر في الوصول إليها بشكل مباشر ، ولذلك يعد مناخ دمشق مناخاً بارداً ومعتدلاً شتاءً ، وحاراً صيفاً ، مع أمطار متوسطة وفصل شتوي قصير^(٢) .

وكانت دمشق قد اتسعت في آخر الفترة الأموية ؛ ذلك لضيق مساحة المدينة المسورة، إذ أنها اتسعت نحو الشمال الشرقي في العقبة وباب الفراديس^(٣) ، وإلى الغرب نحو باب الجابية^(٤)، وإلى الجنوب الغربي ، حيث قصر حجاج .^(٥)

ولم يمنع دخول العباسيين إلى دمشق ، وما صاحبه من هدم -كما سنرى- من اهتمام العباسيين بدمشق ؛ فقد أعيد بناء سورها ، ويتضح ذلك فيما أورده ابن عساكر: "لم يزل ملوك بني العباس تحف إلى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر"^(٦) .

-
- (١) صفوح خير ، غوطة دمشق ، ص ٥٣ ، وما بعدها .
 (٢) صفوح خير ، مدينة دمشق ، ص ٤٨ ، جان سوفاجيه ، دمشق ص ٢٣ ، عفيف البهنسي ، المدينة العربية الإسلامية ونموذجها دمشق القديمة ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، مجلد ٢٦ ، ١٩٧٦ ، ص ١٠ .
 (٣) باب الفراديس : هو أحد ابواب دمشق ، ويقع جهة الشمال في سوق العمارة ، وهو باب متين يطل على نهر بردى . (احمد المنفي ، بلاد الشام في الجغرافية العربية ، ص ٨٢)
 (٤) باب الجابية : يقع غربي دمشق ، وسمي بذلك لانه يفتح على قرية الجابية . (ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مجلد ٢ ، ق ١ ، ص ١٨٥)

- (٥) هو ضمن المحلات والقصور الذي بني في مدينة دمشق أبان العصر العباسي وإلى جانبه يوجد قصر عاتكة والمصلى ، محمد خريسات ، التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي ، المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، ص ٤٠٤ .
- (٦) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ ، صلاح الدين المنجد ، خطط دمشق ، مجلة المشرق ، م ٤٣ ، ١٩٤٩ ، ص ٤٤٤ .

ولم يجرّد العباسيون دمشق من بعض الأدوار التي كانت تقوم بها أيام الأمويين ، فمدينة دمشق لم تتوقف عن الاتساع زمن العباسيين ، بل نكاد لا نبالغ إذا قلنا أن معظم الخلفاء العباسيين خلال هذه الفترة قد أموا دمشق وأقاموا فيها . وإن حدثت فتن أثناء هذه الفترة الطويلة إلا أنها لم تحد من هذا الامتداد (١) .

لم يكن العصر العباسي عصر انحطاط لدمشق ، بل عصر امتداد وتوسع خارج الأسوار ، فقد وجدت المروج والميادين وامتد العمران إليها ، مما يؤكد التوسع الذي حصل في المدينة في هذه الفترة . وقد أصبحت ضياع الغوطة كالمدن، وهي : المزه وداريًا وحرستا وبلاس ، ودُمر وبيت لاهيا ، وعقربا ، والبتنية ، والصالحية وغيرها (٢) .

(١) محمد خريسات ، التوسع العمراني ، ص ٤٠٨ ، سيأتي في الحديث عن الفتن والثورات في الفصل الثاني .

(٢) انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، اجزاء ٢ ، ٢٣ ، ٤ ، محمد خريسات ، التوسع العمراني في مدينة دمشق ، المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، عمان ، ص ٤٠٩ .

التقسيمات الإدارية لجند دمشق

لقيت مدينة دمشق اهتماماً كبيراً من الجغرافيين عند وصفهم لهذه المدينة ، من حيث أهمية موقعها ، ومن حيث وفرة المياه وخصوبة التربة ، واعتدال الهواء ، وعدت هذه العناصر من عوامل ازدهار هذه المدينة . (١)

وتعد مدينة دمشق من المدن القديمة في الجاهلية والإسلام ، بالإضافة إلى أنها مدينة كثيرة الانهار (٢) ، وتحيط بها زروع وثمار متصلة وتسمى تلك البقعة الغوطة (٣).

وقد وصف ابن حوقل مدينة دمشق بأنها مدينة جميلة ، فيقول : " وهي أجمل مدينة بالشام وأرضها مستوية (٤) " ووصفها المهلبى بقوله : " وهي من أحسن البلاد وأجملها موقعاً ، سهلية جبلية " . كما وصفها ابن عساكر بأنها " مدينة ذات محاسن وأنها ذات أزقة أرجه وشوارع مزجه فحيثما كنت شممت طيباً ، وإن سعيت رأيت منظرًا عجيلاً (٥) " .

وقد قسمت دمشق إلى كور برية وبحرية ، وجاءت على النحو التالي :

١- كورة ظاهر البلقاء ، ومركزها عمّان ، وتقع إلى الجنوب من البثنية ، وهي كبرى الكور في جند دمشق ، وهي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة حنطتها يضرب المثل (٦) .

(١) المهلبى : قطعة من كتاب المسالك والممالك ص ٦٢ ، الاضطخري ، مسالك الممالك ، ص ٥٩ .

(٢) اليعقوبى ، البلدان ، ص ١٦٥ .

(٣) الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٤٥ .

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٠ .

(٥) المهلبى ، قطعة من كتاب المسالك والممالك ، ص ٦٢ .

(٦) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ١٧ - ١٨ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٠ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

وأما أبرز المناطق التي ضمتها هذه الكورة ؛ عمان ، والأزرق (١) ،
بقنش (٢) ، وجادية (٣) ، وجنان (٤) ، والرقيم (٥) ، والموقر (٦) ،
والزرقاء (٧) ، وزيزياء (٨) ، والقسطل (٩) ، والماسوح (١٠) ،
وحسبان (١١) ، والعالوك (١٢) ، وعلعال . (١٣)

٢. كورة الجبال ، ومركزها عرندل (١٤) ، والجبال هي منطقة الطفيلة
والشوبك، وتقع عرندل إلى الجنوب من الشوبك ، وهي قرية أرض الشراه
من الشام (١٥).

وذكر ابن حوقل أن مركز كورة الجبال هي روات ، وهي مدينة تقع إلى
الجنوب من الطفيلة ، وقد وصفت بأنها في غاية الخصب والجمال والسعة ،
وعامة سكانها العرب (١٦) .

(١) الارزق : هي ماء في طريق الحاج ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة الارزق جـ ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) بقنش : وهي تقنس أو يقنس كانت صنعة لأبي سفيان أيام كان يتجر في الشام ثم صارت لولده بعده ، وهي قرية في
غور الأردن من قرى البلقاء ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٧٢ .

(٣) جادية : قرية من عمل البلقاء ، وينسب اليها وادي الزعفران ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٢ .

(٤) جنان : قرية قرب عمان ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٦٧ .

(٥) الرقيم : مدينة قرب عمان ، وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلها ، كانت من المحطات الواقعة على الطريق المؤدية إلى
جنوب الأردن ، الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٤ .

(٦) الموقر : ابرز مناطق الأردن التي حظيت باهتمام عبد الملك بن مروان ، حيث كانت مكاناً للاستشفاء ، انظر ابن
منظور ، مختصر تاريخ دمشق ٢٢٨/١٥ .

(٧) الزرقاء : احدى المحطات التجارية قبل الاسلام ، يوجد فيها نهر عظيم يصب في الغور ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ،
ص ٣٢٠ .

(٨) زيزياء : قرية من قرى البلقاء بطؤها الحجاج ، ويقام بها لهم سوق ، وفيها بركة عظيمة ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ،
ص ١٦٣ .

(٩) القسطل : تقع قرب الموقر ، كانت مفضلة لخلفاء بني أمية ، وذكرت في اشعارهم ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ،
ص ٣٣٢ .

(١٠) الماسوح : قرية من لواء مادبا ، كانت قرية عامرة أيام العباسيين ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٢٠ .

(١١) حسبان : قرية كانت عامرة زمن العباسيين وبها حصن التجأ اليه الفديني في ثورته ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ .

(١٢) العالوك : تقع على طريق جرش عمان ، جنوب الزرقاء ، وهي مركز انطلاق ثورة أبا الهيثم ، انظر ابن عساكر ،
تاريخ دمشق ، جـ ٦٤ ، ص ٣٩٦ .

(١٣) علعال : تقع بين الغور وجبال الشراه وتشرف على نهر الزرقاء وما زالت شمال الأردن ، ياقوت ، معجم البلدان ،
جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

(١٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .

- (١٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١١ .
- (١٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٠ ، محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٤٥ .

٣. كورة الشراه : وهي المنطقة الممتدة من شرق الطفيلة في الشمال إلى غرب معان ^(١) في الجنوب ، ومدينتها أذرح ، وهي مدينة متطرفة حجازية شامية، وهي اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراه ، ثم هي من نواحي البلقاء ^(٢) . وقد كانت أذرح من المراكز الرومانية البارزة ، وما تزال فيها بقايا أبنية قديمة وقنوات ماء للري وبقايا كنائس وأبراج وأسوار تعود إلى هذه الفترة ^(٣) ولكن أذرح أخذت تتراجع شيئاً فشيئاً بعدما كانت مركز ذي شهرة ، فقد كانت مكاناً للتحكيم الذي جرى على أرضها بين عمرو بن العاص مندوب معاوية بن أبي سفيان وأبو موسى الأشعري مندوب علي بن أبي طالب . ذكرها اليعقوبي ^(٤) والمقدسي ^(٥) بأنها مدينة ، في حين وصفها ياقوت بأنها قرية أو بلد ، مما يدل على تراجع مركزها السياسي والاستراتيجي .

وضمت هذه الكورة الحميمة ^(٦) ومعان ، وقد كانت حصن الشراه ، وإبلى، والجرباء ^(٧) ، ومعان ، ووادي موسى ^(٨) ، وقد اشتهرت هذه الكورة بكونها مركزاً لصناعة السيوف .

-
- (١) معان مدينة صغيرة على شفير البادية سكانها بنو أمية ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
- (٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ، مادة أذرح ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
- (٣) محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٤٦ .
- (٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .
- (٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٨ .
- (٦) الحميمة : هي من أرض الشراه بها فكانت منازل بني علي بن عبدالله بن عباس ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .
- (٧) الجرباء : تقع على بعد ميل من أذرح ، وهي قرية صالح أهلها الرسول (ص) في غزوة تبوك ، ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الجرباء ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
- (٨) وادي موسى : وادٍ حسن كثير الزيتون ، ويضم قرى عدة ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١١٠ .

٤. كورة جبال الغور ، ومركزها أريحا ^(١) . والظاهر أن هذه الكورة كانت تضم مرتفعات السلط المطلّة على الغور ، بالإضافة إلى المنطقة الممتدة من جنوب عمّا (دير علا) ، آخر عمل جند الأردن إلى البحر الميت . وربما كان هذا هو السبب الذي دعا اليعقوبي ^(٢) إلى اعتبار أريحا من ضمن البلقاء ، مع العلم أنها من جند فلسطين . ^(٣)

وكانت أريحا من مراكز المواصلات والبريد المهمة ، كانت تفصل عن جند فلسطين ، وتضم إلى جند الأردن أو جند دمشق ، وهذا عائد إلى طبيعة المنطقة ^(٤) .

وتضم هذه الكورة غور الأردن أو غور البلقاء ، وغور البلقاء يقع إلى الغرب من عمان . واليعقوبي ^(٥) وابن خرداذبة ^(٦) وابن الفقيه ^(٧) هم أول من ذكر أنه من جند دمشق . وتضم الكورة كذلك بيت رامه (الرامه) وعمّا (دير علا) ^(٨) والسلط . ^(٩)

٥. كورة مآب ومركزها مآب تارة ، وزُغَرُ تارة أخرى ، ومن المرجح أن مركز الكورة قد تنقل بين زغر ^(١٠) ومآب ^(١١) .

ومآب مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء ، وهي مدينة قديمة أولية ، وقد بادت وصارت تسمى الربة التي أقيمت على أنقاضها ، وكانت مآب

(١) اريحا : مدينة ذات نخل وموز وسكر كثير ، تقع إلى الضفة الغربية لنهر الأردن ، بينها وبين عمان أربعة وعشرون ميلا ، الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٣ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .

(٣) محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٥٦ .

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، يعتبرها ضمن جند فلسطين ، الادريسي ، ترجمة المشتاق ٣٣٧/٤ يعتبرها ضمن جند الأردن تارة ومن جند دمشق تارة أخرى ، اليعقوبي ، البلدان أوردها من ضمن جند دمشق .

(٥) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .

(٦) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٧٧ .

(٧) ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٩١ .

(٨) دير علا : تقع في غور الأردن الأوسط بها قبر أبي عبيده ، تبعد عن عمان اثني عشر ميلا ، ياقوت ، معجم البلدان مادة ، ج ٤ ، ص ١٥٣ .

(٩) السلط : هي جدار (الجادور) توجد بالقرب من وادي الأردن ، انظر محمود أبو طالب ، أرض الجادور ، ص ٩٧ .

(١٠) زغر : تقع إلى الطرف الجنوبي الشرقي من البحيرة الميتة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

(١١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣١ .

مزهرة خلال الفترة العباسية ، فتحدث المقدسي عن مآب وقال أنها مدينة في الجبل كثيرة القرى واللوز والأعنان . (١)
وتضم هذه الكورة مؤتة (٢) ، ومشارف (٣) أبني ، وشيخان (٤) وزغر (٥) وإيله (٦).

٦- كورة حوران ، ومدينتها بصرى ، وتقع حوران إلى الجنوب من الجابية، وهي كورة واسعة من أعمال دمشق ، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار (٧) وهي على اثنين وتسعين ميلا إلى الجنوب الشرقي لدمشق (٨).
٧- كورة البثنية (٩) ، ومدينتها اذرعات (١٠) ، وتقع البثنية إلى الجنوب من حوران، وهي قرية بين دمشق واذرعات (١١) ، وقد ذكر البلاذري أذرعات من بين المدن التي صولح عليها في الشام (١٢).

ومن الكور البحرية التي ضمها جند دمشق ، هي على النحو التالي :
١- صيدا ، وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق ، وتقع شرقي صور ، وهي من الموانئ الهامة المطلّة على البحر .

-
- (١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٧ .
(٢) مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، تقع جنوب الكرك ، وفيها دارت معركة مؤتة ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ٨٤ .
(٣) مشارف : تقع شمال مؤتة اشتهرت بصناعة السيوف ، وهي المشيرفة اليوم وهي من أعمال البلقاء ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣١ .
(٤) شيخان : تقع شمال الرّبه ، وهي من قرى مآب ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ .
(٥) زغر : تقع على الطرف الجنوبي للبحر الميت في غور الصافي ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٨٤ .
(٦) إيله : هي العقبة .
(٧) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٢٦ ، الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٨ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٧١ .
(٨) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٢٦ ، الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٨ ، امين سعيد ، حروب الاسلام والامبروطورية الرومية ، ص ٩ .
(٩) البثنية ، هي قرية بين دمشق واذرعات ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .
(١٠) اذرعات : بلد في طرق الشام ، تجاور أرض البلقاء وعمان ، واذرعات هي درعا ، حاليا ، ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٣٠ ، حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام ، ص ٤٧ .
(١١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

(١٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٧ .

وقد سميت صيدا بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، وقد كانت تسمى أو تعرف بصيدا صور أي كانت تبرزها ، وقد عدَّ المقدسي صور وبيروت في مرتبة واحدة (١).

٢- بيروت : وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام ، وتعد من أعمال دمشق (٢) وتعد مدينة بيروت أحد المدن القديمة ويستدل على ذلك بعثق سورها ، ووصفها ابن حوقل بأن هواءها نقي وحدائقها جميلة ذات مقاصف وملاعب وذات لهو وأسواق (٣).

٣- طرابلس : هي مدينة عظيمة عليها سور منيع (٤) ، وقد أطلق عليها اسم أطرابلس تمييزاً لها عن طرابلس الغرب ، ولفظ طرابلس تعني الحواضر الثلاث ، وأرضها غورية كثيرة القصب، وتقع على ثلاث جهات للبحر ، تشتهر بزراعة الزيتون والكروم حيث يشير كثير من الجغرافيين إلى غابات الزيتون التي أحاطت المدينة (٥).

٤- جبيل : هي بلد من نواحي وسواحل دمشق ، تقع في شرقي بيروت ، وتشتهر بمناخها العذب ، وقد فتحها يزيد بن أبي سفيان (٦).

٥- عرقة (٧) : هي مدينة قديمة تقع في سفح جبل قليل العلو ، وعرقة بكسر أوله وسكون ثانية بلدة في شرقي طرابلس ، وهي آخر عمل دمشق ، وتقع على سفح جبل ، وبينها وبين البحر نحو ميل (٨).

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٦٠ .

(٢) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٢ ياقوت معجم البلدان ، مادة بيروت ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٣٢ .

(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٣ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٩ .

(٨) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .

وقد قسمت بلاد الشام في العصر العباسي الأول إلى مراكز إدارية ، حيث قسمت إلى ولايتين كبيرتين حلت محل الأجناد الخمسة التي كانت في الفترة الاموية ، وهما (١) :

الأولى : وضمت أجناد قنسرين ودمشق والأردن وحمص ، وعين عليهما عبدالله بن علي .
الثانية : وضمت جند فلسطين ، والبلقاء وعين عليها صالح بن علي .

وبهذا الإجراء فصل العباسيون البلقاء عن جند دمشق ، وضموها إلى جند فلسطين . وعندما قام عم المنصور عبدالله بن علي مطالباً بالخلافة سنة ١٣٧هـ / ٧٥٥م أدرك المنصور خطورة جمع عدة أجناد لوال واحد ، فعادت الشامات إلى أجنادها السابقة (٢)، فكان على :

قنسرين والعواصم صالح بن علي (٣) ، الأردن وعليها محمد بن إبراهيم (٤)، ودمشق الفضل ابن صالح ، وفلسطين عبد الوهاب بن إبراهيم (٥)، وحمص عبدالله ابن صالح (٦) ، والجزيرة العباس بن محمد (٧) .

-
- (١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٧ ، ص ٤٦٧ ، انظر محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٩٠ ، لم تقسم الشام إلى ولايات ، بل المقصود أن الشام جعلت ولايتين مع بقاء تقسيم الاجناد كما هي .
- (٢) لتعرف عن وضع الشامات في العصر الاموي ، انظر ابن خياط ، تاريخ خليفة ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .
- (٣) صالح بن علي بن عبدالله : ولد في الشراه من أرض البلقاء من أعمال دمشق ، وكان مع أخيه عبدالله بن علي في فتح دمشق ، وهو الذي ولى فتح مصر وإمره دمشق مات (١٥١هـ/٧٦٩م) ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١١ ، ص ٣٥ .
- (٤) محمد بن إبراهيم : أمير دمشق من قبل المهدي والرشيدي ، توفي (١٨٥هـ/٨٩٣م) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢١ ، ص ٣٤٠-٣٤١ .
- (٥) عبد الوهاب بن إبراهيم ، أحد الولاة المتعصبين ، وفي عهده عمت في فلسطين الفساد ، وهو ابن عم المنصور ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١٦ ، ص (٣٠١-٣٠٢) .
- (٦) عبدالله بن صالح ، كان مع أبيه بالحميمة من أرض الشراه من نواحي البلقاء ، كان عظيم القدر ، كبير المحل ، توفي في السليمة سنة ١٨٦هـ (من أعمال حماه وكانت تعد من أعمال حمص ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٧) العباس بن محمد بن علي : ولاء المنصور دمشق والشام كله ، وقدمها مع المهدي ، تولى إمارة الجزيرة في أيام الرشيد ولد سنة (١٢١هـ) وتوفي سنة (١٨٦هـ / ٨٩٤م) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج١١ ، ص ٥٠ .

ومع هذا التعديل الذي أجراه المنصور عادت كورة البلقاء إلى جند دمشق ، وعين عليها عبيدالله بن سليمان بن محمد ، ولكن الذي يعيب هذا النظام الإداري هو استئثار قضاة في إدارة الوحدات الإدارية التابعة للأجناد . وقد أثار هذا الاستئثار حفيظة القبائل القيسية مما أدى إلى إثارة الفتن في بلاد الشام بين القيسية واليمانية في مناطق البلقاء وحواران ، تمثلت بثورة أبي الهيثم وغيرها (١) .

ونستطيع في ضوء ما تقدم أن نميز حدود جند دمشق بصورة دقيقة إلى درجة مناسبة .

ويبدأ الحد الشمالي من النهر الكبير الذي كان يفصل بين جند حمص في الشمال وجند دمشق في الجنوب ، ويذكر ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي عن مادة " قصير " أنها ضيعة (مزروعة) أول منزل لمن يريد حمص من جند دمشق . وبعد القصير يتابع خط الحدود باتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال من سفوح جبل سنير (لبنان الشرقية) حتى شمالي قرية النبك التي يذكر ياقوت أيضاً أنها : " قرية مليحية بذات الذخائر بين حمص ودمشق ... " (٢) ، ويقابل قرية النبك على الجانب الآخر من الحد من جهة حمص قرية قارا وهي قرية كبيرة ، وتعتبر المنزل الأول للقادم من حمص إلى دمشق ، وكانت آخر حدود حمص وما عداها (إلى الجنوب) من أعمال دمشق .

أما جهة الجنوب فيبدأ من مصب نهر الليطاني وحوضه حتى انعطاف النهر إلى الشمال باتجاه وادي البقاع الجنوبي ، ويقع إلى الجنوب من الحد المذكور كورة صور وكورة قدس الحولة حتى الوصول إلى منابع نهر الأردن ، ومن هذه النقطة يسير الحد مع أطراف كورة بانياس أو الجولان الغربية في حوض نهر الأردن إلى بحيرة طبريا إلى مصب وادي الرقاد في نهر اليرموك إلى أن يصل إلى ولاية البلقاء . (٣)

- (١) انظر محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٩١ .
 (٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ .
 (٣) انظر مصطفى الحيارى ، جند دمشق حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، بحوث ودراسات مهداه إلى عبد العزيز الدوري ، ١٩٩٥ ، ص ٢٩٣ .

ويبدأ الحد الشرقي من جنوبي القريتين ، ويتجه نحو الجنوب الشرقي عند الضمير (وهي قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوه)^(١) ويسير خط الحدود بعد ذلك مع الأطراف الغربية حتى حرة الصفا نهاية نهر الأعوج ، شرقي كورة أو منطقة (اللجاء) وشرقي جبل العرب قاعدة حوران الإدارية ويمتد الحد جنوباً حتى يلتقي مع الحد الجنوبي إلى الجنوب الشرقي من صلخد عند سفوح جبل العرب هناك .^(٢)

أما الحد الغربي (الساحل) فيبدأ من مصب النهر الكبير أونهر كلب ، وينتهي جنوباً إلى مصب نهر الليطاني في البحر المتوسط ، وتذكر بعض المصادر أن عرقة هي آخر حد جند دمشق من الشمال الغربي .^(٣)

ويقع على ساحل جند دمشق إضافة إلى عرقة عدد من المدن المشهورة هي من الشمال إلى الجنوب : طرابلس وجبيل ، وبيروت وصيدا ، وكل واحدة من هذه المدن لها بلادها أو مقاطعتها أو كورتها . *

وهكذا فقد كان جند دمشق يمتد من قارا ، وهي أول عمل جند دمشق^(٤) بالغرب من حمص إلى عرقة^(٥) ، وهي آخر عمل دمشق باتجاه الغرب ، وتقع بالقرب من البحر الأبيض المتوسط . وإلى جهة الجنوب ، فقد ضم جند دمشق حوران والبلقاء التي ضمت معها الغور حتى مدينة أريحا . وهاتان المدينتان هي أرض البلقاء^(٦) . وكما ضم جبال الطفيلة والشوبك مارا بالكرك ، وضم كذلك الشراه ومدينتها أذرح ، وبالقرب منها الحميمة منازل علي ابن عبدالله بن العباس^(٧).

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .
 (٢) انظر مصطفى الحيارى ، جند دمشق ، ص ٢٩٥ .
 (٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

- * انظر إلى مصطفى الحيارى ، جند دمشق حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، بحوث ودراسات مهداة إلى عبد العزيز الدوري ، ١٩٩٥ . ص ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ .
- (٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٣ .
- (٥) المصدر السابق نفسه ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٠٩ .
- (٦) اليعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٤ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .

ولقد لعب هذا الامتداد الواسع لجند دمشق الذي يعد أكبر الأجناد مساحة وأطولها مسافة ^(١) إلى تنوع في المناخ وبالتالي تنوع في المحاصيل الزراعية ^(٢). وكما لعبت دمشق دوراً هاماً في التجارة ، بحكم وقوعها على مراكز المواصلات والطرق التجارية .

(١) البعقوبي ، البلدان ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر الفصل الثالث من الدراسة .

الأوضاع الإدارية في جند دمشق

ارتبط التنظيم الإداري في بلاد الشام بالتنظيم الذي اتبعه العباسيون بعد استلامهم السلطة ، فقد أصبحت بلاد الشام ولاية من الولايات التابعة لمركز الخلافة الذي انتقل من الشام إلى العراق ، وبقيت الشام تابعة بشكل مباشر إلى بغداد حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . ^(١)

أعلن العباسيون فور تسلمهم الخلافة أنهم جاؤوا يعملون بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأن سلطتهم هي امتداد للخلافة الراشدية ^(٢) ، ومن هنا نهجوا نهج المركزية التي اتصف بها دور القوة ، وأن الولاية غدوا فيه مجرد عمال لا ولاية مطلقى الصلاحية . ^(٣)

وخرج أبو العباس بذلك حين قال : (لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم) . ^(٤)

ولدى اعتبار الشام وحدة إدارية واحدة ، فلا بدّ أن نقدر أن كل مدينة وما يتبعها من ريف كانت تحت والٍ واحد ، وأن النظام الإداري المتبع في تلك المدن كان يمثل صورة مصغرة مما يجري في العاصمة على اعتبار أن الوحدات الإدارية هي وحدات إدارية مالية ففي العاصمة كان هناك ديوان واحد لكل ولاية من ولايات الدولة الإسلامية يشرف على شؤونها ، وكانت هذه الدواوين تمثل مصالح الولاية وتتركز فيها مهام مختلف دواوين الدولة وتوكل إليها شؤون الولاية المالية والعسكرية ، فكان في بغداد مثلاً بالنسبة لولاية الشام ديوان لخراج الشام وجند الشام . ^(٥)

(١) نجدت خماش ، التنظيم الإداري في الشام ، ص ١١٣ ، المؤتمر الدولي الخامس لبلاد الشام .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٢٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٢٢ ، خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٧ ، ص ٤٢٧ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ١٧٣ ، وج ٩ ، ص ١٤١ .

لم يكن هذا التقسيم الإداري يعني أن كل جند يستقل بوال ، بل كثيراً ما عين الوالي الواحد على ما يتجاوز الجند الواحد ، ففي بداية الدولة العباسية عين أبا العباس السفاح عمه عبدالله بن علي والياً على الشام سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م) وهي قنسرين ودمشق وحمص والأردن أي أنه جمع له أربعة أجناد معاً ، ولم يخرج عن سيطرته سوى جند فلسطين ، وأفراد جند الجزيرة بوال هو عبدالله بن محمد بن علي (أبي جعفر المنصور) ^(١) ، وأعطى فلسطين لصالح بن علي ^(٢) وهؤلاء الثلاثة من كبار أفراد الأسرة العباسية .

حرص الخلفاء العباسيون على أن يكون ولايتهم على الأقاليم هم من الأسرة العباسية الذين ساهموا في إنجاح الدعوة العباسية ^(٣) ، أو من كبار قادة العباسيين الذين قدموا خدمات جليلة للدولة لضمان ولايتهم لهم ، ولكن هذا الاستخدام في الولايات تراجع بعد خلافة المأمون ^(٤) ، مما يدل على تبدل القوى التي أصبح يستند إليها الخلفاء العباسيون في توطيد دعائم خلافتهم ، وبدأ الاعتماد على عناصر أخرى غير العرب .

وكما عني الخلفاء العباسيون على عدم إبقاء ولاية الشام في مناصبهم لفترة طويلة - إلا في حالات استثنائية - كان مبعثه خوفهم من أن يحاول أي من هؤلاء في توطيد أقدامه في ولاية حساسة عرفت بموقفها المعارض للخلفاء العباسيين وتأبيدها للثائرين ، مثلما فعل عبدالله بن علي الذي انحاز إلى أهل الشام كوسيلة للتخلص من المنصور ... ^(٥) فأهل الشام كانوا على استعداد للالتفاف حول أي شخصية عباسية مرموقة تدغدغ أحلامهم في التخلص من سلطة الدولة العباسية ، وإعادة عاصمتهم العريقة .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٦٠

(٣) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٥٢ .

- (٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٦ ، ص ١٢٩ .
- (٥) انظر الفصل الثاني (ثورة عبدالله بن علي) لبيان مدى علاقة عبدالله بن علي مع المنصور .

وكان الخليفة العباسي المنصور يحذر ولاته على الأقاليم ، وخاصة الشام من مغبة أن يتناولوا عليه ، وكان يعين عليهم من ارتضى فيه القدرة والقوة ، فولى الشام وأجنادها سنة (١٣٧هـ/٧٥٥م) لصالح بن علي أحد أفراد الأسرة العباسية ، وكما عين المنصور بعض قادته الشام مثل مقاتل العكي وحميد بن قحطبة . (١)

وسار المهدي على سياسة أبيه ؛ إذ اتخذ أعوانه من أهل الفضل والعقل والإصلاح بناء على نصيحة أبيه (٢) ، فعين للشام وخاصة دمشق ولالة أصحاب كفاءة وقدرة ، مثل إبراهيم بن صالح بن علي ومحمد بن إبراهيم الذين تولوا دمشق سنة ١٦٢هـ ، ١٦٣هـ على التوالي . (٣)

أما الرشيد فقد كانت سياسته تقوم على محاسبة العمال إذا قصرُوا في ولايتهم (٤) ، إلا أن ذلك لم يمنع من الدور الذي لعبه ولاته على الشام بإذكاء روح العصبية بين قبائل الشام بميلهم إلى جانب دون آخر ، وقد استطاع الرشيد أن يقضي على العصبية في الشام بتولية أمورها لرجال أكفاء كجعفر بن يحيى البرمكي الذي تولاهما سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م ، وإبراهيم بن المهدي (ابن شكله) الذي ولاه دمشق سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م ، واستطاع أن يضع ترتيبات نجح من خلالها في احتواء الصراع بين قبائل الشام . (٥)

(١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٣ .

مقاتل العكي : من أهل مرو ، كان أميراً على حران من قبل المنصور في أيام السفاح ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٥ ، ص ٢٩٤ .
حميد بن قحطبة : هو أحد القادة العباسيون ، الذين كانوا لهم دور في الانتصار على الأمويين في معركة الزاب .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، جـ ٢ ، ص ٤٤٦ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٨ ، ص ١٤٩ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

(٥) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .

أما الأميين فقد أراد أن يكسب تأييد أهل الشام إلى صفه في صراعه مع المأمون ، فعين على الشام رجالاً يحبهم أهل الشام ، فولى الشام لعبد الملك بن صالح سنة ١٩٦هـ/٨١١م وهو أحد القادة العسكريين البارزين ، والذي تمكن من وضع حد لفتنة أهل دمشق بزعامة أبو العميطر .^(١)

أما المأمون فقد كان قاداته من كبار القادة مثل طاهر بن الحسين^(٢) الذي تولى دمشق سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م ، ثم ابنه عبدالله بن طاهر سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م^(٣) ، وقد اختارهم المأمون ليستطيع بهم مواجهة الحركات التي قامت ضده في كافة أنحاء الشام ، وكانت حركة نصر بن شيبث اشد الحركات خطراً على المأمون ، لكن عبدالله بن طاهر نال ثقة المأمون بتغلبه على جميع الثائرين^(٤).

وأكثر المعتصم من الأتراك ، فقد أدخلهم في دواوين الدولة ، فكان عصره عصرًا تركياً خالصاً ، فغدا حرسه وحجابه ومواليه وعماله من الأتراك^(٥) مثل اشناس الذي تولى الجزيرة والشام جمعياً في عام ٢٢٥هـ/٨٣٩م ، واشناس تركي الأصل وهو واحد من قواد المعتصم ، وكان في الأصل من قواد المأمون . وقد سار الوثائق على نهج المعتصم في اتخاذ الأتراك ، فكان أعوانه ومستشاريه منهم^(٦) . ولم تعد القدرة والكفاءة في عصر الوثائق ومن قبله المعتصم ميزة من ميزات الولاة ، فولى الوثائق رجال أصحاب سيرة رديئة ، فأظهروا البراطيل في الشام ، وكان محمد ابن صالح من فعل هذا من الولاة .^(٧)

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٥٧ .

(٢) انظر احداث الثورة في الفصل الثاني .

(٣) (هو أول وآل لبلاد الشام في خلافة المأمون) ومن اكفأ رجالات المأمون من الناحيتين الإدارية والعسكرية وإليه يعود الفضل في انتصار المأمون على أخيه الأمين ، أنظر الطبري ج ٨ ، ص ٤٢٤ ، ابن الاثير ،

الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ٤٢٤ .

(٥) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ١٠ ، ص ٣٤٣ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٤ ، ص ١٧٤ ، ابن الأثير الكامل ، جـ ٦ ، ص ٤٨٩ .

(٦) ابن كثير ، البيهقي والضرب ، ص ٥٨ ، مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٦ ، ص ٤٦٦ .

(٧) ابن كثير ، البيهقي والضرب ، ص ٥٨ .

وكانت للخلفاء العباسيين زيارات إلى دمشق والشام متعددة الوجوه والغايات ، وجزء من الاستطلاع الإداري والأشراف العملي على تلك البلاد ، خاصة وأن هذه الزيارات ارتبطت بالقيام بالإصلاحات والإنشاءات ، إذ سعى الخلفاء من زيارتهم إلى تنظيم أمور الدولة وتوحيدها .

وكان للمنصور زيارات منتظمة إلى دمشق والشام للاطمئنان على أوضاع البلاد ، ومتابعة قضايا الخارجين عن الدولة ، ومتابعة كذلك التجهيزات لبناء مدينة الرافقة ^(١) ، وكان المنصور أثناء زيارته يستقرئ البلاد مدينة تلو الأخرى ، فدخل دمشق مرتين خلال زيارته الثانية سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م . ^(٢) وكانت زيارته الأولى سنة (١٤١هـ / ٧٥٩م) .

وزار المهدي دمشق ودخل مسجدها سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م ، وكان يهدف من هذه الزيارة في أن ينال محبة أهلها بالعفو وليس بالقوة . ^(٣)

وأما الرشيد فقد بذل كل جهده للإصلاح بين أهل البلاد ، فأرسل القادة والأموال والعساكر للقضاء على الصراع ما بين القبائل الشامية . ^(٤)

وانتقالاً من الأمين والمأمون إلى المتوكل ، نجد أنه من أهم الخلفاء الذين زاروا الشام ، فقد أراد أن تكون - دمشق - عاصمة الخلافة ، فأمر باتخاذ القصور وإعداد المنازل والمراقد ، وإصلاح الطرق ، فمكث فيها شهرين وأياماً ، ثم عدل عن الإقامة الدائمة فيها لأنه وجدها وبئةً وهواؤها بارد وماؤها ثقیل ، بالإضافة إلى غلاء الأسعار ، وظهور خطورة الأتراك الذين غزوا مؤسسات الدولة . ^(٥)

- (١) الرافقة : بلد متصل البناء بالرقعة ، وهما على ضفة الفرات بناها المنصور ، وأكمل بناء سورها الرشيد ، فيها أسواق ومزارع ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٥ .
- (٢) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢١٨ ، البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ .
- (٣) الفسوي ، المعرفة والتاريخ ، جـ ١ ، ص ١٥٠ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٢ ، ص ٥٠ .
- (٤) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .
- (٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٧ ، ص ٣٦٥ ، انظر إلى الفصل الثاني حول زيارة المتوكل إلى دمشق .

وكان الأمراء والولاة على الولايات قد اتخذوا كتاباً لهم ، وكانت مهمة كاتب الوالي تنظيم الرسائل المتبادلة بين الوالي والخليفة ، وأية رسائل تتعلق بأمور الولاية . (١)

وقد أسهم بعض كتاب الولاة في الشام في تأجيج الفتن الداخلية في الولاية ، فقد قام كاتب إسحاق بن إبراهيم والي دمشق للرشيد ، وهو الهيثم بن عوف بتأجيج الفتنة بين القيسية واليمانية في دمشق (٢) . وكذلك تسبب إبراهيم بن أبي عبله كاتب عبد الوهاب بن إبراهيم في عهد المنصور في عزله عندما شهد أمام المنصور بسوء سيرة عبد الوهاب بن إبراهيم والي فلسطين للمنصور .

وكانت العلاقة بين الولاة وكتابهم قوية إلى درجة أن الولاة كانوا يتغاضون أحياناً عن أية رشاو أو هدايا يتلقاها كتابهم ، فعندما قدم عبدالله بن طاهر والي بلاد الشام إلى دمشق ، كان معه كاتبه أحمد بن نهيك الذي كان خصيصاً به فأهديت إلى أحمد بن نهيك هدايا كثيرة ، وهو في طريقه إلى دمشق (٣) ، وكان ذلك زمن الخليفة المأمون . (٤)

- (١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ١٠ ، ص ٦٠ .
 (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤١٠ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ١٠ ، ص ٥٩،٦٠ .
 (٣) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٣٧ .
 (٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

ومن ناحية أخرى كان الكتاب يتعرضون أحياناً لما يتعرض له الوالي أو العامل من اضطهاد أو سجن ، فعندما أقدم علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ عامل المعونة بدمشق على قتل رجاء بن أبي الضحاك عامل الخراج بدمشق عام ٢٢٦هـ / ٨٤٠م في خلافة المعتصم ^(١) ، لخلاف وقع بينهما بسبب التنازع على السلطة قام علي بن اسحاق بسجن علي بن يونس كاتب ابن أبي الضحاك ، فظل محبوساً إلى أن قام الجند بالإفراج عنه بعد أن ألقوا القبض على علي بن اسحاق وسجنوه ، فتسلم علي بن يونس منصب رجاء بن أبي الضحاك ، وكتب إلى المعتصم بما جرى ، واستمر في منصبه إلى أن تسلم منه. ^(٢)

وقد استعان العباسيون بالعديد من رجالات الشام وفقهائها وأدبائها في وظائف كتابية ، فقد كان القاسم بن صبيح كاتباً لعبد الله بن علي والي الشام للسفاح ، وكان من قبل كاتباً لبني أمية. ^(٣)

وكانت وظيفة صاحب المعونة أو عامل المعونة ، وهي على الأرجح يقصد بها صاحب الشرطة لديه ثقافة فقهية ، والكلمة مأخوذة من العون أبي الظهير على الأمر ^(٤) ، وهي أحد الوظائف المهمة في الدولة خاصة وأن الفتن والاضطرابات في بلاد الشام قد عادت إلى الظهور منذ خلافة الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ / ٧٨٦م - ٨٠٨م) واستمر حتى خلافة الأمين وجزءاً من خلافة المأمون ، واضطر

كل من الرشيد والمأمون إلى إرسال قوات لتهدئة الأوضاع في الشام ، فلما جاء المعتصم وبدأ الاعتماد على الأتراك ازدادت الفتن ، فكان لا بد من إبقاء قوة عسكرية بشكل دائم تكون مهمتها اخماد نار الفتنة ، ولهذا أطلق على المسؤول عن هذه القوة صاحب المعونة .^(٥)

- (١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١١ ، ص ٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥١٧ .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .
- (٣) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٣١ .
- (٤) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١٣ ، ص ٢٩٨ ، نجدت خماش ، التنظيم الإداري في الشام ، ص ١١٧ .
- (٥) نجدت خماش ، التنظيم الاداري في بلاد الشام ، ص ١١٧ .

وكانت الشرطة هي الجند الذي يعتمد عليه الخليفة أو الوالي في فرض هيئته وهيبة الدولة ، فصاحب الشرطة من العناصر الإدارية الهامة في الولاية ، وكان الوالي هو الذي يقوم باختياره .

ومن الطبيعي أن يختار لهذا المنصب رجلاً موثقاً يمكن الاعتماد عليه ، وبالفعل فقد كان الولاة يختارون لشرطتهم من عليّة القوم ومن أهل العصبيّة والقوة ليستطيع فرض هيبة الوالي والخلافة ، وينال احترام ومهابة الناس جميعاً .

وقد أسهم بعض من عملوا في هذا المنصب في إيقاد الفتن في بلاد الشام ، ومنهم داود بن عيسى صاحب شرطة منصور بن المهدي والي الشام للأمين الذي تسبب في ثورة أهل دمشق بأمر من الوالي نفسه .^(١)

وإلى جانب هذه الوظائف فقد وجد في كل جند عامل على الخراج ، أو صاحب الخراج ، وقد يُجمع جندان لصاحب الخراج إذا جمع للوالي جندان أيضاً ، وكان صاحب الخراج مساعداً للوالي أو الأمير ، فلا يقل مرتبة عنه . وكانت

مهمته جمع الضرائب وأموال الخراج ، والاتفاق منها على شؤون الولاية ، وارسال الباقي إلى بيت المال في عاصمة الدولة في العراق .^(٢)

أما الأسلوب المتبع في جباية الخراج في الشام ، فإن المصادر المتوفرة لا توضح الطريقة التي كان يتم بها جمع ضريبة الخراج ، وكان نظام الضمان قد تم تطبيقه في الدولة العباسية في العراق ، ولولا ذلك لشحب أبو يوسف قاضي الرشيد هذا الأسلوب في كتابة الخراج الذي ألفه للرشيد .^(٣)

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ ، ابن عساكر ، تاريخ مشق ، جـ ١٧ ، ص ١١٩ .

(٢) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ ، مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٥ ، ص ٤٥ .

ومن الطبيعي أن تولى الدولة العباسية ديوان الخراج أهمية خاصة باعتباره مصدر جميع الأموال ، فكانت تختار للأشراف عليه أشخاصاً عرفوا بالصدق والأمانة وقد أوضح جعفر بن يحيى وزير الرشيد أهمية الخراج بقوله :

" الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استتذروا بمثل الجور " .^(١)

وكان لكل ولاية أو جند صاحب بريد وكما كان هناك صاحب خبر الناحية الذي يكتب بأخبار ناحيته إلى صاحب البريد ، وهذا بدوره يكتب إلى الخليفة أو من ينوب عنه^(٢) ، ويمكن القول أن صاحب البريد كان بمثابة عين الخليفة يطلع من خلال كتاباته على الأمور الاقتصادية والسياسية في الولاية المعين فيها ، وبشكل عام كان الخليفة يعلم كل ما يجري في الولاية .

وكان تعيين صاحب البريد يصدر عن الخليفة بموجب عهد يحدد له فيه المهام التي ينبغي عليه القيام بها ، ومن أبرز مهامه الوقوف على حقيقة أمر عمال الخراج والضياح وكيفية قيامهم بتحصيل أموال الخراج .^(٣)

وكان الخلفاء العباسيون يختارون لهذه الوظيفة أشخاصاً موثوقين من ذوي الأمانة والاستقامة ، فقد عين المنصور مولاه طريف على بريد مصر والشام ^(٤) ، وكما عين المتوكل عبدالله بن صالح على بريد دمشق . ^(٥)

وكما كان العباسيون يختارون موظفي البريد من الموثوق بهم ومن يوالون الخلفاء لأنهم يأتون إليهم بأسرار الولاة والأمراء ، ويكلفون بالمهمات السرية التي تحتاج الأمناء على حملها ، الأوفياء لمن يحملون إليهم هذه الأخبار . ^(٦)

-
- (١) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ، ص ١٣١ ، نجدت خماش ، التنظيم الإداري في بلاد الشام، ص ١٠٣ .
- (٢) ابن عساكر ، تهذيب ابن عساكر ، عبد القادر بدران ، جـ ٢ ، ص ٢٧٣ ، نجدت خماش التنظيم الإداري، ص ١٢٢ .
- (٣) الصولي ، أدب الكتاب ، ص ٢٢٢، ٢٢١ .
- (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٩ ، ص ٢١٨ .
- (٥) عبدالله بن صالح بن علي : كان مع أبيه بالحميمة من أرض الشراه من نواحي البلقاء ، وكان عظيم القدر، كبير المحل ، توفي في السلمية (من أعمال حماه) ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ١٢ ، ص ٢٦٣ .
- (٦) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٦٥ .

وكان تعيين القضاة في العصر العباسي يصدر عن الخليفة أو قاضي قضااته، مما يجعل القاضي مستقلاً عن الوالي قادراً على إصدار أحكامه بنزاهة ، فقد عين يحيى بن حمزة البتلي (من بيت لها) الفقيه والمحدث على دمشق وبقي عليها مدة ثلاثين سنة وكان ذلك في بداية الدولة العباسية . (١)

وبقي تعيين القضاة يصدر عن الخليفة حتى نهاية خلافة الرشيد ، وإن كان يأخذ رأي قاضي قضااته ، فلما كانت خلافة المأمون نجده يصير لعبدالله بن طاهر نائبه على الجزيرة والشام ومصر جميع أعمالها بما في ذلك عزل القضاة وتولييتهم فعزل عبدالله بن طاهر القاضي إبراهيم بن الجراح الذي كان قاضياً على مصر. (٢)

وترك المعتصم والوائق تعيين القضاة إلى قاضي القضاة ، فقد عين ابن أبي الداود (٣) قاضي قضاة الواثق إسماعيل بن عبدالله بن خالد قضاء دمشق ، وولى يحيى بن أكثم قاضي قضاة المتوكل محمد بن هشام بن ميسرة قضاء دمشق. (٤)

وهكذا يمكن القول أن الوظائف الإدارية في دمشق والشام قد بلغت أوجها في فترة خلفاء الدور الأول من العصر العباسي ، وسرعان ما تأخذ الأمور بعد ذلك إلى دخول عناصر جديدة - الأتراك - في إدارة الدولة ، وتأخذ الأمور تسير تحت سلطة أمير الأمراء والجيش الذين أخذوا يتصرفون فيها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة ما يردون ، إلى أن جاء البويهيون سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م ، فلم يبق شيء يقال له إدارة ، بل أصبحت الإدارة ، إدارة أمراء الاطراف ... (٥)

(١) ابن طولون ، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، ص ١٣-١٤ ، انظر نجدت خماش ، التنظيم الإداري ، ص ١٢٤ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٥٦ ، الكندي ، الولاية ، ص ١٨٤ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٨٨ ، ابو طولون ، الثغر البسام ، ص ١٨-٢٠ ، انظر نجدت خماش ، التنظيم الإداري ، ص ١٢٤ .

(٥) انظر ابن الأثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٣١٥ ، نجدت خماش ، التنظيم الإداري ، ص ١٢٧-١٢٨ .

جند دمشق عشية سقوط الدولة الأموية :

عاشت الدولة الأموية فترة صراعات قبلية أثرت على طبيعة الحكم الأموي الذي اعتمد على العصبية القبلية أدت إلى تضعف الدولة بشكل جلي ، وإلى العصبية العربية المستعالية على الموالي مما ساعد على انهيار الحكم الأموي ، وازدياد الصراع ما بين الخلفاء الأمويين . فقد لقي الوليد بن يزيد مصرعه على يد اليمانية وقضاعه الذين نصبوا يزيد بن الوليد خليفة . وأخذت الأمور تسير في مآخذ أخرى ^(١) ؛ إذ اعتلى الصراع بين القيسية واليمانية على طبيعة الحكم الأموي .

وما إن بويح مروان بن محمد بالخلافة في دمشق حتى أخذ ينظر بمنظار جديد إذ؛ أظهر بوضوح منذ الوهلة الأولى بأنه لا يريد - إذا كان ذلك ممكنا - أن يعتمد على العصبية القبلية؛ ولذلك سمح للأقاليم التي تسكنها أغلبية يمانية باختيار ولاية يمانيين . ولكن الشيء الذي عابه هو نقل الأموال ومركز الدولة من دمشق إلى حرّان في الجزيرة الفراتية بعدما شعر بعداء أهل الشام اليمانيين . ونلاحظ أن مروان بدأ يسلك نفس مسلك الخلفاء السابقين فالخليفة الذي سبقه اعتمد على اليمانية ، وانتقم من القيسية أشدّ انتقام ، فكان بديها أن يعتمد مروان على القيسية لسببين :

- أولهما : قام يطالب بدم الوليد وأحوال الوليد من قيس .
- ثانيهما : كانت قيساً كانت تتمركز بالجزيرة ومروان سيد الجزيرة ^(٢).

وكان على مروان أن يبقى في دمشق بسبب حالة التذمر التي عاشتها المدينة لسوء الولاة الجدد الذين أظهروا الحزم والقسوة ، مما أضطر مروان إلى العودة إلى دمشق من حرّان في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ليواجه الإضطرابات والثورات الناجمة عن سوء الأوضاع . وتمكن مروان من أن يخضع البلاد تحت

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ، ص ٥٤٣

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٦ ، ص ١٩٣ .

سيطرته ، وأعطى الأمان لأهلها ، وسحق قوة القبائل الكلبية في دمشق ، وقضى بشدة على أي معارضة في المستقبل ، ودمر القوة العسكرية لأهل الشام ، وتفرغ بعد ذلك للعراق ^(١).

وكانت الدعوة العباسية قد نجحت في تنظيم نفسها بعيدا عن أنظار الخلفاء الأمويين الذين انشغلوا بأنفسهم ؛ وكان أن تحرك جيش بني العباس من خراسان باتجاه العراق بقيادة قحطبة ^(٢).

وأدرك مروان بن محمد خطورة الزحف القادم من خراسان ، والذي قارب حدود الجزيرة ؛ فأعدَّ للأمر عدته ، وخرج من حرَّان باتجاه الموصل ، والتقى بأبي عون عند نهر الزاب ، وقام مروان بعد أن عسكر تجاه جيشه أبي عون بحفر الخنادق حول جيشه ^(٣) ، وأسند أبو العباس الذي أصبح أول خليفة عباسي مهمة قيادة المعركة إلى أخيه عبدالله بن علي.

واشتبكت القوات العباسية مع جيش مروان على شكل لقاءات قبل المعركة الحاسمة ؛ إذ تسللت فرقة من الجيش العبَّاسي داخل معسكر مروان وعادت إلى قواعدها ، وأخذ كل منهم يعدُّ العدة ، ودارت بينهم المعركة الحاسمة بالقرب من نهر الزاب ، وانتهت بهزيمة مروان بن محمد هزيمة شنيعة ، وكانت الهزيمة صبيحة يوم السبت الحادي عشر من جمادي الآخرة سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠) ^(٤).

ويلاحظ أن قلوب جند الخليفة الأموي في المعركة لم تكن مع الخليفة الأموي ، فقد عبَّأ للمعركة قبائل يمانية وقيسية معاً ، وفي الساعة الحرجة انتهزت كلب (اليمانية) الفرصة وأخذت بثأرها القديم ؛ وأما قيس رفضت هي الأخرى أن تتحمل عبء المعركة وحدها، وأثبتت أنها ليست أهلاً للثقة التي أولاها إياها الخليفة .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٥ ، ص ٥٤٣-٥٤٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٦ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

(٤) ابن عساكر تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

لقد انعكست نتائج الحرب الأهلية في بلاد الشام على الخليفة نفسه ، فلم يكن لديه من أهل الشام من هو أهل الثقة (١) .

أدرك مروان بن محمد بعد فوات الأوان بأن بلاد الشام هي السند الحقيقي للأمويين ، وأن كلب اليمانية هي أقوى كتلة في بلاد الشام ، وقد دمر مروان بن محمد الدولة الأموية حين نصب نفسه مطالباً بثأر الخليفة المتهتك ذي الميول القيسية الوليد الثاني ؛ وذلك لأنه أضاع ولاء أهل الشام (٢) .

انتهت معركة الزاب التي لم تدم سوى عشرة أيام بهزيمة محدقة بالأمويين ، وعلى رأسهم الخليفة الأموي آنذاك مروان بن محمد ، الذي فرّ إلى الموصل التي أغلقت أبوابها أمامه ، فقرر الانسحاب إلى حرّان ، وأقام فيها بضعة أيام ، ولكنه تركها تحت وطأة الجيوش العباسية (٣) .

وظل مروان بن محمد متابعاً سيره في البلاد إلى أن وصل إلى قرية بوصير في مصر سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م ، ووسط ذلك فقد أمر أبو العباس قائده صالح بن علي في تعقب مروان وقتله ، فلحقه عامر بن إسماعيل الحارثي بقرية بوصير من صعيد مصر ، فقتله ، واجتزأ رأسه ، وبعث به إلى أبي العباس فصلبه بالكوفة (٤) . ولما أوتي أبو العباس برأس مروان ، ووضع بين يديه ، سجد فأطال السجود (٥) ، لأنه رأى في قتله نهاية الأخطار المحدقة بالدولة العباسية.

وهكذا كانت معركة الزاب بنتائجها القوية والحاسمة دعامة أساسية في تثبيت العباسيين وخلافتهم ؛ إذ خطوا خطوة قوية في تثبيت دعائم حكمهم في الشام ، وكان عليهم أن يتابعوا تقدمهم في البلاد بعد الانتصار الحاسم في معركة الزاب للقضاء على الدولة الأموية في مهدها - وأعني - (دمشق) .

- (٢) البيعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٤١٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج٦ ، ص ٨٤ - ٨٥ .
 (٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ / ١٠٣ الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٧ ، ص ٤٣٤ .
 (٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٣ ، ص ١٠٤ البيعقوبي ، تاريخ ج ٣٥١/٢ .
 (٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٢٧١ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ٣٤٣/٤

فتح انتصار العباسيين في معركة الزاب الطريق للزحف إلى دمشق ؛ إذ تقدمت الجيوش العباسية للاستيلاء على عاصمة الدولة المنهارة دمشق ، وكان عليها قبل أن تفرض الحصار على المدينة أن تحتل مدن الشام مدينة تلو الأخرى . فقد دخل عبدالله بن علي قائد الجيش مدينة الموصل ثم حرّان ، ثم سار إلى منبج ، وفيها حصل على مدد من أخيه عبد الصمد بن علي قدرة أربعة آلاف جندي ، ثم ساروا إلى قنسرين ثم منها إلى حمص ثم إلى بعلبك ، ثم تابعوا سيرهم إلى دمشق ، فكان أهل المناطق يتلقونهم مسودين مبايعين (١) .

وقد حرص العباسيون أثناء دخولهم بلاد الشام على الاستيلاء والسيطرة على دمشق؛ كونها عاصمة الدولة الأموية ، ومركز حكمهم من جانب ، ومن جانب آخر فإنّ السيطرة عليها تعني أكبر شوط يقطعه العباسيون في الاستيلاء على بلاد الشام.

وقامت الجيوش العباسية بعمليات تطويق لمدينة دمشق ، وانتشر الجند على مداخل المدينة ، فنزل عبدالله بن علي الباب الشرقي ، وصالح بن علي على باب الجابية، وأبو عون على باب كيسان ، وبسام بن ابراهيم على باب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد بن علي ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فغدت دمشق بين فكيّ كماشة ؛ إذ عليها الاختيار أما مقاومة العباسيين ، وأما الخضوع والتسويد .

وكان في مدينة دمشق قوات أموية بقيادة الوليد بن معاوية بن عبد الملك ختن مروان بن محمد للدفاع عنها . وقد لجأ عبدالله بن علي حين عجز عن فتحها إلى بثّ الفرقة في صفوف المدافعين ، وسعت رسله في إنكاء النزاع بين القيسية واليمانية من أهل دمشق حتى وقعت العصبية بين أهلها في فضل اليمن على نزار وفضل نزار على اليمن (٢) .

- (١) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، جـ ٢ ، ٢١١ الطبري ، تاريخ الرسل جـ ٧ ، ص ٤٣٩-٤٤٠ .
 (٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ٦١١/٢ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٧ ، ص ٤٤٠ .

وذكر ابن عساكر نقلاً عن جماعة من أهل خراسان شهدوا أخذ دمشق ، أن أهل دمشق بنوا إبان الحصار منارة بأسرع وقت ثم صعد إليها شخص ، ونادى : " يا أهل دمشق " ، وجعل يخذلهم ، ويقول : " عمن تقاتلون ؟ عن مروان الذي قتل منكم فلاناً وفلاناً " ، وأخذ يسمي أهل كل مدينة من مدن الشام ، ويذكرهم بفعال مروان القبيحة فيهم فيخذلهم ، حتى اختلفوا وتلاعنوا في المسجد وتضاربوا بالأأيادي والنعال ، ثم دست اليمانية إلى عبدالله بن علي ووعدوه أن يفتحوا له أحد الأبواب مما يلي عبد الصمد على أن لا يقتلوا أصحاب العمائم الصفراء ، وهي التي وضعوها ليعرفهم جند عبد الصمد (١) .

والواضح أن المنارة التي بُنيت داخل مدينة دمشق من أجل مراقبة تحركات جيش عبدالله بن علي المحاصر للمدينة ، وكوسيلة لتحسين المدينة تحصيناً قوياً إذ روى ابن كثير أن أهل دمشق حصّنوا المدينة تحصيناً عظيماً ، لكن أهلها اختلفوا بسبب اليمانية والمضرية ، حتى أنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين ومنبرين وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبر ، ويصل كل من اليمانية والمضرية بخطبة وإمام (٢) .

وذكر الأزدي أن عبدالله بن علي خاطب اليمانية من أهل دمشق ، وهو في طريقه لمحاربة حبيب بن مرة المري في حوران (٣) ، حيث ذكرهم بأنهم أنصار وشيعة الدولة ، بدورهم الكبير في دفع دمشق إليهم وقتلهم الوليد بن معاوية (٤) .

- (١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٠ ، ٣٢٦ .
 (٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٤٥ .
 (٣) الحصار الثاني لمدينة دمشق كان اثناء ثورة حبيب بن مرة ، أنظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .
 (٤) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٤٤ .

وذكر اليعقوبي أن الناس استغاثوا لما نالهم من الجهد إثر الحصار ، ووجهوا إلى عبدالله بن علي يحيى بن بحر ، وهو من مؤيدي آل البيت وأحد رجالات الدولة ، فسأله الأمان ، فأجابه إليه ، فدخل ونادى بالناس بالأمان ، ثم قال له يحيى بن بحر " أكتب لنا كتاب الأمان " (١) ، وفي ظل ظروف كتابة الأمان ضرب يحيى بن بحر بصره نحو المدينة ، فإذا بالسور قد غشيتها المسودة ، فقال له : " قد دخلتها قسراً " ، فقال يحيى : " لا والله ، ولكن غدرأ " (٢) .

وقد وقف اليمانيون عموماً موقف المؤيد من الحكام الجدد ، وأشار ابن عساكر أن من بين الجنود الذين كانوا مع صالح بن علي أثناء غزوه دمشق هم من اليمانية منهم خالد بن حيان الحضرمي ، وغيره (٣) .

وقد أمر عبدالله بن علي بعد دخوله دمشق بوضع السيف في أهلها ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات والنهب ثلاثة أيام ، وقد قتل عدداً كبيراً من أمراء بني أمية؛ فقد قتل الوليد بن معاوية عامل مروان بن محمد على دمشق ، ونقض سورها حجراً حجراً (٤) .

وروى أبو حنيفة الدينوري أن عبدالله بن علي قتل من وجد بدمشق من ولد مروان بن الحكم (٥) ، وذكر المقدسي أنه قتل من كان بها من بني أمية (٦) .

وقال خليفة بن خياط : أخذ عبدالله بن علي حين دخل دمشق يزيد بن معاوية ابن مروان ، وعبدالله بن عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، فبعث بهما إلى أبي العباس ، فصليهما (٧) .

- (١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٦ .
- (٢) المصدر السابق .
- (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٥ ، ص ١٠٦ .
- (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ٤٤٠ ، المنبجي ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، ص ١١١ .
- (٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٣٦٦ .
- (٦) المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ ٦ ، ص ٧١ .
- (٧) خليفة بن خياط ، تاريخ جـ ٢ ، ص ٦١٢ .

وامتد القتل إلى نساء بني أمية ؛ فيذكر ابن عساكر أن عبدالله بن علي دفع بامرأة هشام بن عبد الملك ^(١) إلى قوم من الخراسانية ، فسيروها حافية حاسرة في البرية ، ثم قتلوها ^(٢) .

ولم يكتفِ عبدالله بن علي بقتل بني أمية رجالاً ونساءً ، بل نبش قبور موتاهم ، واستخرج عظامهم ، فرمى بعضها بالسهام ، وضرب بعضها بالسياط ، قال البلاذري : " أمر بنبش قبر معاوية ، فما وجد من معاوية إلا خط (هيكليه) ، ونبش قبر يزيد بن معاوية ، فوجد من يزيد سلاميات رجله ، ووجد من عبد الملك بن مروان بعض شؤون رأسه ، ولم يوجد من الوليد وسليمان إلا رفات ، ووجد هشام صحيحاً ، إلا شيئاً من أنفه وشيئاً من صدغه ، وذلك أنه كان طلي بالزئبق والكافور وماء الفوه ^(٣) ، ووجد جمجمة مسلمه ، فاتخذت غرضاً حتى تناثرت ، ولم يعرض لعمر بن عبد العزيز ، وجمع ما وجد في القبور ، فأحرق " ^(٤) .

أما اليعقوبي ، فيقول ^(٥) : أن أبا العباس قد كتب إلى عبدالله بن علي بأن خذ بئارك من بني أمية ، ففعل ما فعل ، ووجه فنش قبور بني أمية وأخرجهم وأحرقهم بالنار ، فما ترك أحد منهم " وقال الأصفهاني ^(٦) : " كتب إلى عماله في النواحي بقتل بني أمية " .

واستمرت التصفية العباسية للأمويين ، وبدأت الجهود في ملاحقة الأمويين ، مما أدى إلى هرب العديد من الأمويين إلى إفريقيا والأندلس ، حتى اضطر الكثير من

بني أمية والذين يشكلون خطراً بنظر الدولة العباسية إلى التكرار والاختفاء عن أعين العباسيين ، فغيروا أسماءهم ، وانتسبوا لعائلات لا صلة لها بالأمويين (٧) .

- (١) هي عبدة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، وهي التي رفضت الزواج من عبدالله بن علي .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٥ ، ص ١٩٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ٤٥ .
- (٣) ماء الفوه : ما يعالج بن الطيب
- (٤) البلاذري أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ٤٥ .
- (٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٦ .
- (٦) الاصفهاني ، الاغانى ، جـ ٤ ، ص ٣٤٦ .
- (٧) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٢٧ .

وتعتبر واقعة نهر أبي فطرس من أشهر وقائع ملاحقات بني أمية ؛ إذ توقف عندها المؤرخون طويلاً ، وأفردت لها الصفحات الطويلة . وهي عندما انتهى عبدالله بن علي من اخضاع المناطق الجنوبية من الشام ، توقف في فلسطين وأثناء اقامته في نهر أبي فطرس^(١) أعلن الأمان العام للأمويين الذين اختفوا إثر أحداث دمشق . وهناك أمر عبدالله بن علي أن ينادي بالأمان للفارين ، وأنه سيرد أموالهم ، وأن السفاح أوصاه ببني أمية ، وأمره بإلحاقهم في ديوانه ، فجاءه كبار بني أمية معتردين ودخلوا عليه ، وأذن لهم ، وطلب أن تجري عليه الجوائز ، وقد تراوحت أعدادهم ما بين السبعين والثمانين (٢) .

ورحب عبدالله بن علي بهم ، وأجلسهم في سرداقه ، وفي ظل ذلك قال الشاعر شبل قصيدة^(٣) ، تغنى فيها بفضائل بني العباس ، وأثار النفوس ضد بني أمية ، وتأثر عبدالله بالقصيدة ، وفعلت القصيدة فعلتها ، فخرج رجال عبدالله عليهم فقتلواهم جميعاً .

عندما ندرس هذه الحادثة جيداً نلاحظ أن هناك ثمة أسباب حملت عبدالله بن علي على الفتك بالأمويين ، أولهما حاجته في الانتقام ؛ إذ كان جافي القلب والطبع ، فظ النفس ، غليظ الكبد ، وقد غلبت عليه نزعة الأخذ بالثأر ؛ إذ شهد مقتل ابن

عمه زيد بن علي بالكوفة سنة (١٢٢هـ / ٧٣٩م) ، وحادثة مقتل ابراهيم الامام سنة (١٣١هـ - ٧٤٩م) على يد الأمويين فأثار ذلك في نفسه الحقد والكرهية ، وعنه يقول ابن عبد ربه : " كان أشد الناس على بني أمية عبدالله بن علي " (٤) ومن أجل ذلك سماه بعض المؤرخين السفاح (٥) .

-
- (١) فطرس : اسم نهر قرب الرملة بأرض فلسطين ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٦٧ .
 (٢) اختلف في تقدير عددهم عند المؤرخين الطبري والبلاذري يذكران أن عددهم ٧٢ ، واليعقوبي يذكر أن عددهم ثمانون ، انظر الطبري ، تاريخ جـ٧ ، ٤٤٣ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ٢٩١/٣ ، اليعقوبي ، تاريخ ٣٥٥/٢ .
 (٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤٨٦/٤ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٥ ، ص ٤٣٠ .
 (٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٤٨٧/٤ .
 (٥) مجهول ، العيون والحقائق ، جـ٣ ، ص ٢٠٧ ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، جـ٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ٦ ، ص ٧٤ .

والسبب الثاني هو ثورة أبي محمد السفياي (١) سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م الذي خرج بقنسرين ، وطمع بالخلافة ، ولما وصل عبدالله بن علي الخبر قتل من كان معه من بني أمية ، ومن يهدي هديهم ، فأراد أن يقضي عليهم ويتخلص من خطرهم قبل أن يسيروا إلى أبي محمد السفياي ، وينضموا إليه (٢) .

ولم يتوقف الأمر عند هذه الحادثة ؛ فقد كانت حادثة البلاط العباسي في الحيرة أحد وقائع وملاحقات العباسيين للأمويين : وتتخلص الحادثة حول سليمان ابن هشام بن عبد الملك عندما خرج إلى الحيرة طالباً الأمان من أبي العباس السفاح ، فأمنه ، وأكرمه وقربّه إليه ، وشفع له ذلك أنه كان مخالفاً لمروان بن محمد ، فرفض بيعته ، ودارت بين سليمان بن هشام ومروان معارك انتهت بهزيمة سليمان الذي هرب من البلاد إلى الجزيرة ولحق بالخوارج (٣) . ولم يزل سليمان مقيماً عند أبي العباس يجالسه ويحادثه ، ويبدو أن حسن المعاملة لم تعجب العباسيين الذين كانوا في البلاط ، فأخذ أبو مسلم الخراساني يوغر قلب أبي العباس ، ويحثه على قتل سليمان وسفك دمه ، ومن الرسائل التي أرسلها إلى أبي العباس رسالة جاء فيها :

" إذا كان عدوك ووليك عندك سواء ، فمتى يرجوك المطيع لك المائل إليك ،
ومتى يخافك عدوك المتجانف عنك " (٤).

وقال ابن تغري بردي : " أرسل إليه أبو مسلم الخراساني ، يقول : قد بقي
من الشجرة الملعونة فرع في كلام طويل ، فلم يلتفت السفاح إلى كلامه ، ففسد أبو
مسلم إلى سديف بن ميمون الشاعر مالا ، وقال له : قل في هذا المعنى شعراً (٥) .

(١) أبو محمد السفيناني ، هو زياد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الطبري ، تاريخ الرسل ،
جـ ٧ ، ص ٤٤٥ ، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن خياط ، تاريخ خليفة ، جـ ٢ ، ص ٥٦٦ الطبري ، تاريخ الرسل جـ ٧ ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١١ -
٣١٣ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ - ، مجهول العيون والحدائق جـ ٣/١٥٧ .

(٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ .

(٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ ، الأغاني ، الاصفهاني ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ .

ولما اجتمع أبو العباس مع الأمويين قام الشاعر سديف بن ميمون بإلقاء قصيدة
أمام السفاح ، وحرّضه فيها على بني أمية ، وحضّه على قتلهم ، ومنها قوله :

مُسْتَعْدِينَ يُوجِفُونَ الْمَطِيَّ	قَدْ أَتَتْكَ الْوُفُودُ مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ
بَلْ تَخَوَّفُوا الْمَشْرِقِيَّ	عَنُوةً أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ لَا عَنْ طَاعَةٍ
أَنْ تَحْتَ الضَّلُوعِ دَاءٌ دَوِيَّا	لَا يَغُرُّنَا مَا تَرَى مِنْ رَجَالٍ
لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُويًا	فَضَعَ السَّيْفَ ، وَارْفَعَ السَّوْطَ حَتَّى
ثَاوِيًا فِي قُلُوبِهِمْ مَطُويًا (١)	بَطْنَ الْبُغْضِ فِي الْقَدِيمِ فَأُضْحَى

وقد أحييت هذه القصيدة الأحقاد والضعائن في نفس أبي العباس ، واستفزته ،
وأخرجته عن وقاره (٢). فإذا هو يسخط على سليمان بن هشام بن عبد الملك
وولديه ، ويأمر بضرب أعناقهم انتقاماً للهاشميين الذين قتلهم بنو أمية (٣).

وقد استمرت وقائع العباسيين ضد الأمويين ، واستمرت ملاحقتهم لهم للقضاء على جذورهم لما يشكلونه من خطورة على أمن واستقرار الدولة التي تنتشد الاستقرار ، إذ وقعت موقعة واسط في العراق ، وموقعة البصرة ؛ ووقائع الحجاز (٤) .

-
- (١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ ، ابن عبد ربه - العقد الفريد ، جـ ٤ ، ص ٤٨٦ ، الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ٤ ، ص ٣٤٨ .
- (٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ، جـ ٤ ، ص ٤٨٦ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، جـ ٧ ، ص ١٤١ .
- (٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٦٣ .
- (٤) انظر الى هذه الوقائع عند البلاذري ١٤٦/٣ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ، ص ٤٥٦ ، وما بعدها ، الأصفهاني ، الأغاني ، جـ ٤ ، ص ٣٤٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٤٣١ .
- موقعة واسط : حدثت في العراق إذ لما هزم عمر بن هبيرة أمام القوات العباسيين لجأ إلى واسط فحاصرت القوات العباسية ، فأعلن الاستسلام شريطة الأمان ، لكن العباسيين قاموا بقتله سنة ١٣٢هـ/٧٥٠ م .
- موقعة البصرة : حدثت على يد سليمان بن علي ، إذ قام بقتل أمويي البصرة .
- وقائع الحجاز : هي جملة من الملاحظات التي قام بها داود بن علي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠ م وهي ثلاث وقائع مشهورة في مكة والمدينة والطائف وخلالها قضى داود على عدد من الأمويين .

وقد اجتهد المنصور في محاولة اقتلاع الميل إلى بني أمية من صدور أهل الشام ، وفي إقناعهم بأحقية العباسيين في الخلافة ؛ فقد أمر المستهل بن الكميت بن زيد أن يصعد منابر أهل الشام ، فيعدد مناقب بني هاشم وما فضلهم الله به ، ومثالب بني أمية وما كانوا عليه ، ففعل ذلك في الشام مدينة مدينة ، لكنه غالى في النيل من خلفاء بني أمية ، فكان يقول عن عمر بن عبد العزيز أثناء ذكره لمثالب الأمويين : " إنما مثله مثل بغي بني إسرائيل التي كانت تزني بحب الرمان ، وتتصدق به على المرضى " (١) .

وعلى الرغم من الدكتور فاروق عمر يُقرُّ بعنف العباسيين ، وتسلمُ بقتلهم للأمويين ، فإنه يرى أنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً ، فإنهم كانوا يؤسسون

دولتهم، وكانوا يخشون بقايا الأمويين وأنصارهم ، فأعملوا السيف فيهم ، لكي يأمنوا شرهم، ويتَّقوا خطرهم . (٢)

ويلاحظ من خلال النصوص التي وصفت تعقب العباسيين للأمويين أنها بالغت في ذلك؛ فهم أسرفوا في تصوير انتقامهم منهم ، تأييداً للعباسيين حيناً ، وتثديداً بهم حيناً آخر ، إذ أنهم مدّوا في بعض الأخبار وتزيدوا فيها ، وخلطوا بين السقيم والسليم من الأخبار خلطاً شديداً (٣) .

ولم تقتصر أفعال العباسيين عند هذا الحد ، بل امتدت أيديهم إلى أملاك وأموال الأمويين ، فقد خربوا مساكنهم وصادروا أموالهم ، وذلك لطمس آثارهم ، والنيل منهم . فقد خرب العباسيون قصور الأمويين في حلب ، مثل قصر سليمان ابن عبد الملك ، وقصريّ هشام في الرصافة ، وقصر مروان بن محمد في حرّان، والذي أنفق عليه مبلغا كبيرا (٤) .

- (١) المستهل بن الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي ، هو شاعر ، وقد وفد على هشام بن عبد الملك ، وحضر باب عيسى بن موسى ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٤٠ ، ص ٢٤٠ .
- (٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٣ ، ص ٥٢ ، فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .
- (٣) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .
- (٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١١٣ .

ومن الأموال التي استولى عليها العباسيون أموال مروان بن محمد أثناء معركة الزّاب ، التي وضعها ليحمّس بها جنوده على القتال (١) : ولما انتهت المعركة أخذ عبدالله يستقصي مال كل من قتل من سادات بني أمية وصناديدهم (٢) .

وكما استولى العباسيون على مجوهرات ثمينة آلت ملكيتها إلى الخلفاء العباسيين الذين أخذوا يتصرفون بها وفق ما يشاؤون ، حتى أن المهدي حين زوج ابنه الرشيد بزبيدة أعطاهما بدنه (٣) عبده بنت عبدالله بن يزيد ، التي رفضت الزواج من عبدالله بن علي فضربها ، وانشدت تقول :

فقل للشامتين بنا أفيقوا ————— سيلقى الشامتون كمالقينا^(٤)

وكانت أملاك الأمويين منتشرة في العراق والحجاز واذربيجان وأرمينيا والجزيرة ، إذ أنها تحتوي على أموال وقرى وضياع وأنهار وأراضٍ وأسواق وحمامات ، مما حدا بالدولة العباسية إلى استحداث ديوان الضياع ليتولى أمر الأشراف على تلك القطاعات الأموية المصادرة المنتشرة في معظم أقاليم الدولة العباسية .^(٥)

وقد أقطعت الدولة العباسية الكثير من هذه الأملاك لأفراد الأسرة العباسية ولبعض المقربين ممن قدموا خدمات جليلة للدولة^(٦) .

-
- (١) المقرئزي ، المقفى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٥ ، ص ٣٩٠ ، المقرئزي ، المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
- (٣) بدنه : مفرد بدن ، وهي الجوهرة ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ .
- (٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٣ ، صلاح الدين المنجد ، جواهر الخلفاء العباسيين ، ص ٥٥٦ ، مجلة المجمع العربي في دمشق جـ ١٢ ، مجلد ١٦ ، سنة ١٩٤١ م .
- (٥) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص (٩٠-٩٣) ، ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ ١٥ ، ص ٢٤٣ ، (ترجمة عمارة بن حمزة) وهو الذي تولى الكتابة للمنصور ، وأول من انيطت به الأشراف على ضياع آل مروان ، أنظر الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .
- (٦) الأزدي ، تاريخ الموصل ، جـ ٨ ، ص ١٥٨ .

وقد اشار كثير من المؤرخين إلى هذه المصادرات ، ومن بينهم البلاذري الذي ذكر أن عبدالله بن علي قبض أموال بني أمية ، كما أورد صاحب العيون والحدائق ذخائر صارت لعبدالله بن علي ، وكما ذكر ابن عساكر أن عبدالله بن علي استصفى كل شيء للأمويين من ضياع ودور ، ومن هذه المصادرات نذكر مثلاً لا على سبيل الحصر . الخست والجبان والريحية والشرقي وعباسان بارودا ورأس الایل وحمام أبان وبقنس وصفين وبويلس وبالس وكفر جديا ، والهني والمري .^(١)

وشملت المصادرات ذخائر الأمويين وخزائنها بما اقتنته من أموال ، وجواهر وثياب وبحثوا عن كل من حاول إخفاء ذخائر الأمويين ، وحاولوا استخراجها من الذين أخفوها (٢).

وبعد كل هذه الأعمال والإجراءات الصارمة أراد عبدالله بن علي أن يحيط نفسه بهالة؛ بتسويغ أعماله التي قام بها ، فبعث يستدعي فقيه الشام المشهور الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧هـ / ٧٧٤م) لتبرير وإيجاد مخرج لأعماله ضد الأمويين ، ولكن الإمام الأوزاعي لم يتوان في قول وحكم الدين في دماء وأموال بني أمية بالرغم من بطش وتصرفات عبدالله ابن علي ، فأجابه : بأنها حرام ، وأن ما فعله ما هو إلا ظلم ارتكبه (٣) .

فلم يستطيع عبدالله بن علي أن ينال موافقة أحد فقهاء الشام على ما قام به بحق الأمويين ، فقد دحض الأوزاعي أوهام عبدالله بن علي ، وأبان له بجرأة أن دماء من قتل حرام .

(١) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ ، مجهول العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٢١٩ ،

ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢) التنوخي ، المستجاد من فعلات الاجواد ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٧ ، ص ١٢٨ ، تذكرة الحفاظ ، ج ١ ، ص ١٨١ .

ومهما يكن من كثرة المذابح والتتكيل التي أحدثت خوف دائم بين السكان ، وخلق حالة من عدم الاستقرار ، إلا أن هذا الأمر كان مؤقتاً ، فسرعان ما أخذت سحابة الذهول والخوف تزول ، فأخذوا يعودون إلى التبييض في صحوة للضمير تعبيراً عن الندم في خضوعهم للجنود الخراسانيين ، ولكن هذه الصحوة كما سنرى ستكون متقطعة (١) .

وكان على العباسيين إذا أرادوا أن يضمّنوا بقاء بلاد الشام في حالة استقرار وأمن كان عليهم أن يغيروا سياستهم تجاه أهل البلاد ؛ وكان ابن المقفع أحد الأشخاص الذين انتبهوا للمرحلة القادمة إذ نجد أنه رسم في رسالة له بعنوان (الصحابية) أطر السياسة وقواعد لإصلاح نظام الحكم العباسي ؛ وهي مجموعة من النصائح ، التي قدمها للخليفة العباسي المنصور ، بينت ملامح السياسة العباسية ، وتعرض لأهل الشام الذين تحملوا النعمة العباسية باعتبارهم أهل وعماد الدولة السابقة ، إذ نصح ابن المقفع المنصور باستبدال سوط النعمة برداء العطف والاحسان ، وأن يصرف خراج بلادهم في ما يعود عليهم بالخير والمنفعة (٢) .

وتبدو لنا في الأفق أن سياسة العباسيين في الشام كانت أحد الأسباب القوية التي أدت إلى ظهور حركات وفتن تطلب وتتشد الرجوع إلى الأمويين ، وتسفه السياسة العباسية التي يصفها صاحب التاريخ المنحول كذئاب المساء وكالمنسور الجائعة ... هدموا جميع أسوار المدن على أيديهم ونقضوا بطرفة عين كل ما يشيده الملوك الأمناء الحكماء بمال كثير لرد هجمات الأعداء (٣) .

(١) إحسان عباس ، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي ، ص ١٧ .

(٢) ابن المقفع ، رسالة الصحابة ، ص ١٢٣ ، أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج١ ، ص ٢١١ ، ٢١٣ .

(٣) ديونيسوس التلمحري ، التاريخ المنحول ، ص ٨٦ ، ٨٨ .

ومع كل ما قيل عن الحوادث التي ارتكبت بحق الأمويين ، وما تناقلته كتب المصادر والمراجع وبما تحتويه تلك المصادر من حوادث قاسية في تاريخ الدولة العباسية ، إلا أن هذه الصورة القائمة فيها كثير من المبالغة والتهويل ، على الرغم من إمكانية وقوعها : والمبالغة في الروايات تعود إلى أن الأخبار كتبت في العصر

العباسي ، وقد حرفت هذه الأخبار وزيد فيها من أجل التشفي بالأمويين وإظهار الانتصار العباسي (١) .

واقترضت ظروف الخلافة العباسية بعد الحوادث القاسية إلى اتخاذ جانب المهادنة، خاصة وأن الدولة العباسية تدرك أن مثل هذه الأحداث تؤدي إلى خلخلة كيان الدولة وهي في مراحلها الأولية ، ولذلك كانت إحدى خطوطها الرئيسية تقضي إلى تجنب قتل أي أموي لا يتخذ جانب عدائي للدولة ، ولذلك سمعنا عن منح الأمان للعديد من الأمويين ؛ فقد منحوا الأمان للمعيطيين ، وتحديدًا ذي الشامة المعيطي (٢) لمواقفه المتسامحة مع محمد بن علي بن عبدالله بن عباس وابنه موسى ، حيث راعاهما ذي الشامة المعيطي عند مرضهما أثناء صائفة لغزو الروم (٣) .

ولم يكن المعيطيون الأمويون الوحيدين الذين أُنموا في عهد الخليفة أبي العباس، فقد أُنم عبدالله بن علي أثناء معركة الزاب سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م محمداً بن مسلمة بن عبد الملك ، وكان صديقاً لعبدالله بن علي ، ولكن محمداً عندما رأى هزيمة مروان بن محمد ، وجنده حميت نفسه ، ونبذ أمان عبدالله ، وقاتل مع بقايا جيش مروان حتى قتل (٤) .

(١) حسين عطوان ، الدعوة العباسية ، تاريخ وتطور ، ص ٤٩٦ .

(٢) ذو الشامة المعيطي ، محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، تولى الكوفة سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م ،

ابن الكلبي ، جمهرة النسب ، ج١ ، ص ١٩٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٧ ، ص ٤٣٨ .

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ١٠٥ .

كما أمن عبدالله بن علي أبان بن يزيد بن محمد والي حرّان سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م^(١) ، وأمن كذلك آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، ولم يقتله مع من قتل بحادثة نهر أبي فطرس سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م لاتصال نسبه بعمر بن عبد العزيز^(٢) .

وتدل هذه الأمانات التي أوردتها المصادر المشار إليها للأمويين في بلاد الشام على أن العباسيين كانوا يعفون عمن لا يشكلون خطراً من الأمويين على دولتهم ، وهذا الأمر يظهر جلياً من دراسة الشخصيات التي أعطيت الأمان ، فالذين أعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسوا من رجالات بني أمية الذين يشكلون خطراً على الدولة^(٣) .

كل كتب الأمان كانت ذا طابع فردي لم تتسحب على الأمويين جميعاً ، وكان أمر منحها منوطاً باعتبارات يقدرها أمير الولاية العباسي ، وكان الأمويون يدركون بصورة عامة ذاتية تلك الأمانات ، ويتخوفون من قبولها ، ولذا فضلوا التواري عن الأنظار ، مما أدى إلى سئم الكثير من الأمويين من هذه الحياة ، وأخذوا يناشدون الخليفة العباسي أبا العباس في الكف عن مطاردتهم وملاحقتهم ، فاستجاب لهم أبا العباس الذي رأى أن الاشخاص الأمويين الذين يشكلون خطراً على كيان الدولة العباسية قد قضي عليهم ، وأن الدولة قد استقرت بعد الفتن بقيادة بني أمية الأقوياء أمثال ابن هبيرة وغيره . ومع ذلك فقد فضل الكثير من الأمويين التواري لتجربتهم السابقة مع بني العباس ، ونظروا إلى الأمانات بخوف شديد ، فلم تحز على ثقتهم لما عرفوه عن بني العباس من قسوة^(٤) .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ، ص ٤٣٨ .

(٢) الاصفهاني ، الاغانى ، جـ٤ ، ٣٤٦ ، لمعرفة المزيد عن منح الأمانات انظر الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ٤٣٨ .

(٣) عصام عقله ، الأمويون في العصر العباسي ، ص ٨٢ .

(٤) عصام عقله ، الأمويون في العصر العباسي ، ص ٨٣ .

ومع مجيء المنصور خفت حدة الملاحقات العباسية للأمويين ، حيث ادرك حدة الملاحقات العباسية المحدقة من كل جانب ، ولذلك رأى المنصور إلى لملمة الجبهة الداخلية، وتأمين الأمويين ليتفرغ لهذه الأخطار المحيطة والمحدقة به في محاولة لتأمين مستقبل الدولة (١) .

من ناحية أخرى فقد أعاد العباسيون بعض الممتلكات الأموية المصادرة ، ومن الأملاك التي أعيدت القصور والقطائع والضياح (٢) ؛ وتعليل ذلك أن تلك الأملاك وإعادتها اقترنت بالعلاقة الجيدة التي تربط بين أصحاب تلك الأملاك المعادة والعباسيين ، أو من كان ذا سيرة حسنة (٣) .

وكان من حسن معاملة العباسيين للأسرة الأموية منح الهبات المالية لبعض أفراد الأسرة ، وبدأت هذه الهبات تمنح للأمويين منذ عهد الخليفة المهدي الذي قدّم أول هبة عباسية للأمويين أثناء مسيرة لغزو الروم سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، وأكرم الرشيد حفيد لسليمان بن عبد الملك ، واقطعه ضيعة كان يعمل بها ، وأجرى عليه رزقاً شهرياً من الدولة (٤) .

ويتبين فيما سبق أن الدولة العباسية قد غيرت سياستها تجاه الأمويين بعكس السياسة التي ظهرت بها عند اقتحام دمشق ، والدليل على ذلك أنها قد أمنت الأمويين غير الخطرين ، وأعادت بعض الأملاك الأموية المصادرة لأصحابها ، وتركت الكثير من أملاكهم دون مصادرة . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قدر غير قليل من التسامح العباسي مع الأمويين المستعدين للانخراط داخل النظام العباسي الجديد .

- (١) عصام عقله الأمويون في العصر العباسي ، ص ٤٧ .
 (٢) انظر المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ٣٣٦ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .
 (٣) عصام عقله ، الأمويون في العصر العباسي ، ص ١٢ .
 (٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ١ ، ص ١١٣ .

ونتيجة للأوضاع الصعبة التي عاشتها دمشق ، وما رافقته هذه الأحداث من قتل ومصادرة أموال ، شعر الأمويون بالندم على مستقبل دولتهم المنهارة ، يقول المؤرخ المنبجي : " وندمت عرب الشام على ما فعلت ، لما ركبهم من العار ، وتسلبت العجم عليهم ، ينزلون منازلهم ويأخذون أموالهم ، فهاجت لذلك واضطربت وامتنعوا من البيعة " (١) .

ولذلك قامت في دمشق حركات تتشد الرجوع إلى العهد السابق ، ومحاولة تغيير الأوضاع القائمة ، وتمثلت بحركات مسلحة في بعضها ، مما أدى إلى اتخاذ إجراءات صارمة نفذها قادة ذوو كفاءة عالية من أبناء البيت العباسي شكلوا محور العمليات العسكرية .

ونتيجة للأوضاع القائمة أصبحت الشام لا يتولها إلا أبناء البيت العباسي أو من لا مجال للشك في ولائه لهذا البيت ، واستمر هذا حتى القرن الثاني الهجري ، الثامن الميلادي الذي امتاز بكثرة الحركات والثورات التي قامت ، وهي حديث الفصل الثاني (٢) .

-
- (١) المنبجي ، تاريخ المنبجي ، ص ١١٣ - ١١٤ .
(٢) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .

العنوان:	أثر الحركات الفتن و الثورات في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في العصر العباسي الأول من سنة 132 هـ / 247 هـ / 750 م / 861 م
المؤلف الرئيسي:	الرقب، نائل عبدالحميد عبدالرحمن
مؤلفين آخرين:	خريسات، محمد عبدالقادر(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2003
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 239
رقم MD:	548579
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الحركات الثورية، الأحوال السياسية، العصر العباسي الأول، الأحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/548579

الفصل الثاني

(الفتن والثورات في جند دمشق في العصر العباسي الأول)

- ١- موقف أهل الشام من الخلافة العباسية .
- ٢- فكرة السفيناني .
- ٣- ثورة عبدالله بن علي
 - أ- مجريات الثورة .
 - ب- نتائج الثورة .
- ٤- فتنة أبو الهيثام (١٧٦هـ / ٧٩٢م) .
- ٥- فتنة سنة (١٨٠هـ / ٧٩٦م) .
- ٦- فتنة سنة (١٨٧هـ / ٨٠٣م) .
- ٧- ثورة أبو العميطر (السفيناني) (١٩٥هـ - ٨١١م) .
- ٨- ثورة المبرقع اليماني (٢٢٧هـ / ٨٤٢م) .

الفصل الثاني

الفتن والثورات في جند دمشق في العصر العباسي الأول

موقف أهل الشام من الخلافة العباسية

أدت كثرة الملاحقات العباسية للأمويين ، وما ترتب على دخولهم دمشق من أعمال إلى إثارة السخط عند السكان ، وتطلعوا نحو الخلاص من هذا الوضع القلق، فحاولوا استرجاع ما كانوا عليه قبل قدوم العباسيين إلى البلاد ، لا سيما وأنهم ما زالوا يمتلكون القوة التي يستطيعون تسخيرها لمصلحة دولتهم المنهارة ، فدأبوا نحو الخلاص من هذه الأوضاع السيئة والعمل لإسقاط الدولة العباسية .

وكان حبيب بن مرة ^(١) المري أول القادة الثائرين والمتمردين في البثنية وهوران ، إذ رفع راية العصيان ضد العباسيين ؛ وذلك خوفاً على نفسه وقومه من أن يطالهم انتقام العباسيين لموالاته لبني أمية ^(٢) . ولقد التف حوله أهل البلقاء ^(٣) والبثنية ^(٤) وهوران ^(٥) ، وبايعته قيس ، وهم أهل المنطقة وغيرهم ممن يليهم . وكان بذلك أول من يشهر سيفاً في وجه السلطة العباسية في وقت لم يكن فيه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد قُتل بعد .

(١) هو واحد من قادة مروان بن محمد ، انظر اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٣٥٧ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ٤٤٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٦ .

- (٣) البلقاء : هي المنطقة الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن إلى البادية شرقاً ، وتشتهر بكثرة غاباتها ، وهي اليوم السلط ، انظر الياقوت الحموي ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ .
- (٤) البثنية : بلد في الشام من أعمال دمشق ، ياقوت ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ .
- (٥) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق ، ذات قرى ومزارع وحرار ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

وقد بادر عبدالله بن علي - والي الشام - إلى إخضاعه قبل أن تنتشر الثورة إلى أبعد ما وصلت إليه ، وجرت بين الطرفين وقائع كثيرة غير حاسمة . وفي ظل هذه الظروف برز في الأفق قيام ثورة أشد خطراً وفتكاً على الدولة العباسية ، وهي ثورة أهل قنسرين بقيادة أبي الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر الكلابي ، فاضطر العباسيون إلى مصالحة حبيب بن مرة ، وأمنه عبدالله بن علي ومن معه ، وخرج متوجهاً إلى قنسرين لمقاومة هذه الثورة الجديدة . (١)

واستخلف على دمشق أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي في أربعة آلاف رجل من جنده ، ويبدو أن حبيباً عاد وبيض مرة ثانية ، فسار إليه أبو غانم الطائي بمن معه من أهل خراسان وجماعة من يمانية أهل دمشق ، والتقى مع حبيب بن مرة بـ أزرع (٢) ، فهزم أبو غانم ، وقتل من أصحابه خلق كثير ، ومضى حبيب وأصحابه إلى دمشق وتبعوا الجند إلى قارة وروابيها وقتلوه ، ومضى أبو غانم ومن معه متوجهين إلى عبدالله بن علي بناحية قنسرين (٣) .

ولما اقترب عبدالله بن علي من دمشق لإخضاع الثائرين الحورانيين الذين تجمعوا إلى حبيب بن مرة ثانية ، خرج أهلها لقتاله في جيش كبير ، ارتأى عبدالله بن علي أن يعمل بنصيحة الخليفة أبي العباس ؛ إذ أخذ يستفيد من العصبية القبلية لتفريق الجنود الذين خرجوا لقتاله ، فخاطب رؤساء القبائل اليمنية ، وذكرهم بالدور الفعال الذي قاموا به في نشر الدعوة العباسية ، وبالمساعدات التي قدموها إليه أثناء دخوله دمشق ، والتي كانت سبباً في سهولة فتح المدينة . وأعطت هذه السياسة ثمارها ، فقد ترك العرب اليمنية القتال ، كما لحقت بهم ربيعة ، ولما رأت القيسية ذلك خافوا على

- (١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ٥٢ .
- (٢) تقع شرقي جوبر ، وجوبر قرية بالغوطة من دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٣٥ ، وأزرع هي الآن أحد القرى الواقعة على طريق عمان دمشق .
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٤ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٤٠ ، ص ١٩ ابن الاثير الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، ص ٤٣٢ .
- أنفسهم وتركوا القتال ، ورحلوا عن دمشق بذرايرهم وأموالهم ، وانفسح بذلك المجال أمام عبدالله بن علي ، فدخل دمشق ، ثم توجه منها للقضاء على ثورة حوران بقيادة حبيب بن مرة (١) الذي هرب إلى الحجاز خوفاً من انتقام عبدالله بن علي ، فمكث هناك أعواماً إلى أن أمنه صالح بن علي (٢) .

وبخصوص ثورة أبي الورد - ومجزأة بن كوثر الكلابي - التي أقضت مضاجع عبدالله ابن علي حتى أنه اضطر إلى عقد صلح مع حبيب بن مرة ، فقد قامت في قنسرين وحلب بسبب اعتداء بعض قواد عبدالله بن علي على ورثة لمسلمة ابن عبد الملك ببالس والناعورة ، فاستثار ذلك حميته ، فتوجه أبو الورد ومعه أربعمئة فارس إلى بالس فدخلها في صحوة النهار وعاث في المدينة خراباً . وسرعان ما انضم أبو الورد إلى أبي محمد السفيناني لأهمية التأييد الذي ستلاقيه ثورته جراء انضمام السفيناني وأعوانه . (٣)

وقد شكل انضمامه إلى أبي محمد السفيناني جبهة واحدة ضمت ثائرين من قبائل كلبية وقيسية من دمشق والبلقاء وحمص وتدمر وحلب وغيرها ضد الخلافة العباسية (٤) .

ولما وصلت الثورة إلى حدّ عدم السكوت عليها أمر الخليفة أبو العباس قائد عبدالله بن علي لقمع الثورة وأمدّه بإمدادات كبيرة ، وجرت بين الطرفين وقائع كثيرة كانت بدايتها لصالح الثائرين ، ولكن إصرار عبدالله بن علي على الثأر والقضاء على هذه الثورة أنهى هذه الوقائع بهزيمة أبي الورد والسفيناني (٥) .

- (١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، ص ٤٣٤ ،
 (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٣-٤٤٦ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٣٥ ، ١٤٤ .
 (٣) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ ، الاصفهاني ، الأغاني ، جـ ١٦ ، ص ٨٨ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٨١ ، فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ١ ، ص ١٣٣ .
 (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٨١ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٧ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٤ .
 (٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٤١٢ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٤ .

والدارس في هذه المرحلة يجد أن الثورات قامت لأسباب عدة :-

- ١- العصبية القبلية ؛ إذ شكل الصراع بين القبائل القيسية واليمينية نقطة بارزة في الوضع السياسي في العصر العباسي . ولما كانت العصبية أحد عوامل الضعف التي حلت بالدولة الأموية ، فقد بقيت طوال العصر العباسي الأول ، وكان عصر الخليفة هارون الرشيد هو العصر الذي شهد جولات أكثر من الصراع بين الفريقين . وسنأتي في حينه كيف كانت العصبية أحد أقوى الأسباب في قيام الثورات ؟
- ٢- سياسة العباسيين القاسية التي اعتمدت على مطاردة الأمويين واستئصالهم ، كما كانت سياسة المصادرات ، وما ترتب عليها من عدم استقرار وأمن داخل الدولة ، وبالرغم من أنها كانت تتوخى ضعف المقاومة مالياً واقتصادياً ، إلا أنها أثرت على طبيعة الوضع الاقتصادي في دمشق ، وهو حديث الفصل الثاني .
- ٣- خشية زعماء هذه الثورات على انفسهم من أن يطالهم البطش العباسي مثل حبيب بن مرة .
- ٤- الندم إزاء ما ركبهم من العار من تسلط الأعاجم عليهم ونزولهم منازلهم وأخذهم أموالهم تحت ستار مطاردة أعداء الحكم العباسي مثل أبو الورد .
- ٥- التذمر الاجتماعي الذي كانت تعيشه الفئات الاجتماعية في دمشق وخاصة فئة العبيد والفلاحين الذين هجروا أراضيهم وتوجهوا إلى مناطق أخرى بسبب

ثقل الضرائب وطريقة الجباة في تحصيلها ، فزاد هذا الأمر من حدة الأزمة الاقتصادية .

إن الثورات الأموية هي ثورات أشعلها أتباع الأمويين الذين أذهلهم سقوط الدولة الأموية ، وكرد فعل على سقوطها ، قاموا بالعديد من الثورات بغية القضاء على الدولة العباسية . وبدأت هذه الثورات بعد دخول العباسيين دمشق ، كما أسلفنا سابقاً . وقد تركزت في بلاد الشام كونها أكثر مناطق الدولة تضرراً بقيام الدولة العباسية . واتخذ معظمها من عقيدة السفيناني شعاراً لها . وهي ثورات ذات طابع ديني وسياسي .

فكرة السفيناني .

مع مجيء العباسيين إلى الشام فقد أهل الشام امتيازاتهم ، لذلك سعوا إلى استعادتها وتنصيب خليفة أموي جديد . وجاءت دعواتهم لاستعادة المجد الأموي على شكل تنبؤات تتعلق بظهور السفيناني المنتظر الذي سينقذ أهل الشام من الظلم العباسي (١) .

وقد ظهرت هذه الدعوات (السفيناني المنتظر) بعد انتقال الخلافة الأموية من الفرع السفيناني إلى الفرع المرواني سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، أي بعد وفاة معاوية الثاني تحديداً واستمرت حتى بداية العصر العباسي الأول . وتقوم هذه الحركة على أساس انتظار ظهور رجل من ولد أبي سفيان يقوم بإعادة الدولة الأموية ، ويقضي على العباسيين ، ويتخذ من بلاد الشام قاعدة لملكه (٢) .

ويعتقد الزبيري أن خالد بن يزيد هو واضع عقيدة السفيناني المنتظر معتمداً على ما ورد من أخبار آل البيت حول السفيناني المنتظر ، وعدّ أبو الفرج الأصفهاني أن مثل هذا القول يعتبر من أوهام مصعب الزبيري (٣) .

وأصبحت هذه الحركة عقيدة توحد بها أهل الشام ضد العباسيين ، ووسيلة معارضة سفينية ضد العباسيين ، وتطورت هذه الحركة بتطور الظروف المحيطة بأهل الشام ، وأخذت تُنذر بظهور أموي من آل سفيان يقوم في القضاء على الدولة العباسية (٤) .

(١) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ج١ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) الزبيري ، نسب قريش ، ص ١٢٩ ، الاصفهاني ، الاغانى ، ج ١٧ ، ص ٢٤١ .

- (٣) الزبيري ، نسب قريش ، ص ١٢٩ ، الاصفهاني ، الاغاني ، ج ١٧ ، ٢٤١ .
 (٤) السلمي ، عقد الدرر في أخبار المنتظر ، ص ٨٦ ، عصام عقله ، الأمويون في العصر العباسي ، ص ٧٦ .

وقد لقيت هذه الحركة تأييداً واسعاً بين القبائل العربية اليمنية في الشام ، وخاصة قبيلة قضاة التي كانت تنتظر ظهور السفيناني ليقوموا معه ويقاتلوا إلى جانبه .^(١) ولقيت هذه الحركة قوة كبيرة حيث انتشرت في بلاد الشام ، ويلاحظ مدى التأييد الشعبي الذي كانت تلقاه هذه الحركات الأموية التي اتخذت من السفيناني شعاراً لها .

إن كثيراً من الحركات التي قامت في الشام قد استلهمت أفكارها من الثورات الأموية ونسجت خطاها على وتيرتها ، لذلك فإن العباسيين تعاملوا مع أهل الشام والأمويين فيها بشكل خاص وبنوع من الحذر ، ولم يتهاونوا في القضاء عليها . وقد تبنت العديد من الثورات فكرة السفيناني ، وجعلت منه شعاراً لها ، ومن تلك الثورات: ثورة أبي محمد السفيناني في قنسرين سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، وثورة العباس بن محمد السفيناني في حلب سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م ، وثورة أبي العميطر في دمشق سنة ١٩٥هـ / ٨١١م .

ثورة عبدالله بن علي (١٣٧-١٣٨هـ / ٧٥٤-٧٥٥م) :

لقد استطاع عبدالله بن علي أن يخضع البلاد الشامية تحت سيطرة الدولة العباسية ، فقد وثق السلطة في دمشق والشام ، واستطاع أن يقضي على جميع الثورات التي قامت ضد العباسيين . ومن بين هذه الثورات ثورة عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي الذي استغل قيام عبدالله بقتال أبي الورد ، فثار على والي المدينة الذي عينه عبدالله بن علي عليها طيلة غيابه . وما إن تفرغ عبدالله بعد انتهاء ثورة أبي الورد والسفيناني حتى تمكن من أن يخضع دمشق مرة أخرى ويهزم عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي .^(٢)

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٨ ، ص ٦٥٢ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٤٠٩ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٣٨ ، ص ٤٢٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ٤٣٣ .

لقد كان سجل عبدالله بن علي حافلاً بالأعمال الكبيرة في سبيل تثبيت سلطان الدولة الجديدة ، حيث ضبط الأمور في الشام في السنوات الأولى من الحكم العباسي . وكان من الطبيعي أن يكون عبدالله طموحاً ، فهو من أقدر الشخصيات في البيت العباسي . وكان عبدالله بن علي معتمداً في طموحه على الخلافة على أمرين :-

١- الوعد الذي قطعه الخليفة أبو العباس على نفسه فيمن يتبع مروان بن محمد ويقضي عليه بأن يكون ولياً للعهد من بعده . وكان الخليفة أبو العباس قد ندب عبدالله بن علي لقتاله ، وتمكن منه (١) .

٢- قوة النفوذ والدعم القبلي في بلاد الشام ؛ حيث أخذ عبدالله بن علي يتقرب من أهلها بمنحهم الأمانات ومعاملاتهم معاملة حسنة من أجل أن يساعده ذلك في الوصول إلى الخلافة.

وقبيل وفاة السفاح سنة ١٣٦هـ/٧٥٤م أوصى بأن تكون الخلافة من بعده لأخيه المنصور مستجيباً لآراء مستشاريه بعدم إخراج الخلافة من ولد أبيه إلى ولد عمه رغم الوعد الذي قطعه على نفسه (٢) ، ولكن شاعت الظروف في أن يغير رأيه.

ولما بعث إلى عبدالله بن علي بمن يخبره بذلك ، على أن يأخذ البيعة لأبي جعفر ، كان عبدالله بن علي قد وصل إلى دلوك (٣) لغزو الروم ومعه قوات أهل الشام وخراسان فلما وصلت أخبار وفاة السفاح عاد بمن معه (٤) ، ودعا لنفسه وجمع خلقاً كثيراً من أصحاب مروان ، وأعلن أن السفاح عهد إليه حين بعثه لقتال مروان.

ولقي عبدالله بن علي في خروجه تأييد أهل الشام الذين دعوا له على منابر الشام ، كما أيدته الجنود الخراسانية التي كانت معه ، وأيدته الشام والجزيرة (٥) .

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٣ ، ص ١٠١ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٤٦ .

- (٢) يرى المسعودي أن وعد السفاح كان صحيحاً وقد أقر به السفاح ، السعدي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ١٠٣ .
 (٣) موضع على الحدود الشمالية لبلاد الشام ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٤٧٣-٤٧٤ ، الكامل ، ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٤٦٤ .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ١٠١ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٧٤ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ١٠١ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٧٤ .

ويظهر أن هناك مصلحة مشتركة بين عبدالله العباسي وأهل الشام فقد حاول كل منهما أن يستغل الآخر لإنجاز أهدافه المباشرة ، فبالنسبة إلى عبدالله كان هدفه الخلافة ؛ وبالنسبة إلى أهل الشام فقد كان هدفهم الثأر من الخراسانية واستعادة امتيازاتهم المفقودة ، واسترجاع مكانة الشام التي فقدتها إلى العراق (١) .

وكما لقيت ثورته تأييد عدد من قادة خراسان خوفاً أو طمعاً ، إلا أن غالبية شيوخ القبائل الشامية والجزرية قد أيدته وأعطته الحماس والإقبال على قيامها . وهكذا توفرت كل الظروف لعبدالله بن علي لإعلان ثورته . (٢)

مجريات الثورة :

رأى الخليفة المنصور أن يحزم الأمر ويقضي على ثورة عمه ، بعدما سمع الأنباء التي تحدثت عن قدوم عبدالله بن علي باتجاه العراق ، وبما أن معظم قوات عبدالله من الخراسانيين ، فإن المنصور رأى أن يعهد لأبي مسلم الخراساني قتاله ، وكان غرضه من ذلك أن يضعف قواته بانضمام الخراسانيين في جيش عبدالله إلى جيش أبي مسلم بمجرد أن يبدأ اللقاء الأول ، وكان المنصور يهدف من وراء تعيين أبو مسلم إلى التخلص من عمه إن كان ممكناً ويؤمن بذلك مسألة منافسته له على الخلافة ، ثم التخلص من أبي مسلم الذي بدأت كبرياؤه وخطره يلوح بالأفق . (٣)

وأدرك عبدالله ذلك ، فرأى أن يتخلص من جنوده الخراسانيين ، ومن القائد العربي حميد بن قحطبة ، إلا أن حميداً اكتشف المؤامرة وفرّ مع أنصاره (٤) .

- (١) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ١ ، ص ١٣٩ .
 (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٥ ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٧٨ ، فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ١ ، ص ١٤٠ .
 (٣) سيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العربي في العصر العباسي الأول ، ص ٧٨ .
 (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٦ ، خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٤٤٣ .

أما عبدالله بن علي فقد استعد لملاقاة أبي مسلم الخراساني في نصيبين ، وتهيأ لحصار طويل الأمد ، وبرفقته مائة ألف مقاتل معظمهم من أهالي الشام الذين كسب ودّهم وآزروه . فقد عمل على حفر خندق من جبل نصيبين إلى نهرها ، وجمع فيه من الأطعمة والعدد والآلات ونصب المجانيق والعرادات ، فعرف أبي مسلم حصانة موقعه . (١)

وكان المنصور قد أعدّ احتياطات مكثفة درءاً لهجوم محتمل من عمه علي مقر الخلافة في العراق ؛ إذ نجده قد وزع كتائب من الجند على طول الطريق إلى الكوفة مقر الخلافة ، وأوصى الجند بعدم ترك مراكزهم حتى وإن سمعوا باندحار عبدالله بن علي . (٢)

وكان عبدالله بن علي قد نظم أموره ؛ فجعل أخاه عبد الصمد ولياً لعهد ، وعين عثمان بن عبد الأعلى على دمشق (٣) ، ومنصور بن جعونة (٤) صاحباً لشرطته ، ومضى بجيشه لملاقاة أبي مسلم الخراساني . (٥)

ولما وصل أبو مسلم الخراساني إلى دير الجاثليق التي جعلها مركزاً ومقراً لجيشه أدرك حصانة موقعه ، فعمد إلى الحيلة لإبعاده عن نصيبين التي تمركز فيها عبدالله بن علي ، فكتب أبو مسلم إلى عبدالله يقول له :

- (١) البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .
 (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٦ ، انظر فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

- (٣) عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي : من أهل دمشق ، تولى دمشق في أيام الوليد بن يزيد ، ثم وليها لعبدالله بن علي عم السفاح ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٣٨ ، ص ٤٢٥ .
- (٤) منصور بن جعونه : كان عاملاً على الرها في آخر خلافة بني أمية ، امتنع من بيعة بني العباس ، هرب من الرها بعد دخول العباسيين لها ، وأختفى ، تولى شرطة عبدالله بن علي بعد خلع المنصور ، وقد دل عليه سنة ١٤١هـ / ٧٦٠م ، وقتله المنصور ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٥ ، ص ٢٥٤ .
- (٥) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٦ .

" إني ما جئت لحربك وأني أريد الشام ، فقد ولاني الخليفة الجزيرة والشام " . (١) وقد تحقق لأبي مسلم ما أراد ، لأن أهل الشام ما أن رأوا أبا مسلم يتوجه إلى بلادهم حتى أخذوا يطالبون عبدالله بالعودة إليها والدفاع عن حرمهم وأموالهم ، ولم يستجيبوا لنداء عبدالله الذي وضح لهم أن ما قاله ما هو إلا خدعة ، وأنه لا يريد الشام ، ولكن نفوسهم لم تطب ، وأبوا إلا المسير إلى الشام (٢) ، ورضخ عبدالله لرأي رجاله .

ولما رأى أبو مسلم أن جيش عبدالله قد انسحب من مكانه بادر إلى احتلال موضع عبدالله الذي كان فيه ، واضطر عبدالله إلى الرجوع بقواته واحتلال ما كان يحتله أبو مسلم لكنه لم يستطع ، واقتتل الطرفان مدة خمسة إلى ستة أشهر . وقد تمكن أبو مسلم عن طريق إعادة تنظيم جيشه من إلحاق الهزيمة في جيش عبدالله بن علي ، وتتبع عبدالله بن علي الذي فرّ ملتجئاً إلى البصرة (٣) .

وأرسل أبو مسلم الخراساني إلى الخليفة من يبشره بالنصر ، فسُرّ من ذلك ، وكتب إلى أبي مسلم بأن يحتفظ بما في يديه من الأموال ، وهي الأموال التي كانت مع عمه عبدالله بن علي (٤) .

- (١) البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٧ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٦ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، جـ ٦ ، ص ٧٧ .
- (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٦ ، العيون والحدائق ، ص ٢١٨ .
- (٣) اليعقوبي ، تاريخ جـ ٢ ، ص ٣٦٦ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٧٧ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٦٨ .
- (٤) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٦٤ ، البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ .

وقد ذهب وفدٌ من أهل الشام إلى الخليفة المنصور ، وعلى رأس الوفد الحارث بن عبد الرحمن بن عمرو الحرشي أحد وجوه دمشق لتقديم الاعتذار عما حدث ، ووصفت هذه البعثة أن حركة عبدالله على أنها فتنة أغرت أهل الشام وأوقعتهم في شباكه ، فقال الحارث : " .. أنا لسنا وفد مباهاة ، ولكننا وفد توبة ، وقد أبتلينا بفتنة استفزت كريمنا ، واستخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، ومما سلف منا معترفون ، فإن تعاقبنا فيما اجترمنا ، وإن تعفُ عنا فبفضلك علينا " (١) وقد قبل الخليفة عذرهم ، وأعاد إليهم أملاكهم وضياعهم التي كان قد صادرها . (٢)

وتدل هذه الخطبة على مدى الندم الذي لحق بهم من جراء انضمامهم وانطوائهم تحت راية عبدالله بن علي ، فوجدوا أنّ من المستحيل استعادة أمجادهم وأمجاد دولتهم المنهارة ، ففضلوا الانخراط في المجتمع العباسي ، ف عقدوا على المبايعة من جديد ، وتقديم الاعتذار على ما بدرَ منهم محاولة في كسب ود الخليفة المنصور .

وبعد قضاء المنصور على ثورة عمه ، استقرت له بلاد الشام ، فأعطى ولاية دمشق إلى عمر بن محمد بن عبد المطلب بن ربيعة ، ولكن هذا الاستقرار كان مؤقتاً . (٣)

-
- (١) البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٦٧ ، فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .
- (٢) البلاذري ، انساب الاشراف ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ .
- (٣) الصفدي ، أمراء دمشق ، ص ٥٤ .

* نتائج الثورة :

- ١- بالرغم مما رافق ثورة عبدالله بن علي من إخفاق ، إلا أنها كانت من أخطر الثورات التي قام بها أهل الشام ضد الحكم العباسي كونها قامت بزعامة عباسي مرموق نادى بنفسه خليفة مستنداً على حراهم ، وأن الشام ستكون مقراً لإقامة الخليفة الجديد إن كتب لثورته النجاح (١) .
- ٢- أحدثت هذه الثورة قلقاً للمنصور ، ذلك لأن خطورتها تكمن في تأييد أهل الشام لزعيمها ، واحتمال انفصال الشام عن جسد الدولة العباسية . كما أن هذا الخطر قد يطاله شخصياً ، وقد عبر عن قلقه إلى أبي مسلم حين ندبه إلى قتال عمه الثائر عليه ، بقوله : " إما أن تسير إلى الشام فتصلح أمرها أو أسير أنا " (٢) .
- ٣- إن انضواء أهل الشام إلى ثورة عبدالله بن علي يعني أن هناك ثمة عناصر مشتركة من دون ريب ما بين الطرفين ، بالرغم من المعارضة المستمرة لأهل الشام بعد خروج الخلافة من دمشق وسقوط دورهم السياسي ، وهذا ما جعلهم يبادرون إلى الانخراط في أية حركة تعلن التمرد على الحكم الجديد ، وقد توخى كل منهما تحقيق أهدافه الخاصة به والمختلفة عن أهداف الآخر .
- ٤- لقد انطوت الشام على جراحاتها ، وأخلدت للأمر الواقع الصعب ، ولكن دون أن تغيب عن الذاكرة دولة الأمويين التي ظلت بتراثها السياسي والاجتماعي حاضرة في النفوس والقلوب ، ودون أن تغادرها ملامح الحكم الأموي ، وكما ظلت صورة السفيناني المنقذ الذي سيعيد الحكم الأموي تغلب على جميع الثورات التي ستقوم .

- (١) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، ص ٨٧ .
 (٢) المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج ٦ ، ص ٧٧ ، كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

٥- فرضت الأحداث على الخليفة العباسي المنصور أن يكون يقظاً ، وقد أثمرت يقظته إلى فرض نوع من الهدوء والأمن في المناطق التي كانت بؤراً للفتن في زمن سلفه السفاح . ولقد لوحظ أنه لم تقم حركات ذات شأن في خلافة المنصور باستثناء تمرد نصارى جبل لبنان بسبب عسف عاملة على الخراج ، وهو (اسماعيل بن الازرق)^(١).

وقد شهدت سياسة المنصور إزاء أهل الشام تحولاً لمصلحتهم ، فقد شرع يعالج مشاكلهم بمزيد من الحنكة والتروي ، فقد غدا ينظر إليهم على أنهم " حصن الأمة وأسنة الأئمة " (٢) . وهكذا بقيت الشام تعيش حالة من الاستقرار حتى بعد وفاة المنصور (ت ١٥٨هـ / ٧٧٤) فلم تشهد البلاد أية اضطرابات تذكر بفضل السياسة الحكيمة التي وضع أسسها الخليفة المنصور قبل وفاته وسار خلفاؤه على هديها ، ولكن الاضطرابات بين القيسية واليمانية في دمشق بسبب العصبية القبلية قامت في مطلع عام ١٧٦هـ / ٧٩٢م في خلافة الرشيد .

فتنة أبي الهيثام ١٧٦هـ / ٧٩٢م .

تعد الخلافات بين قيس ويمن ، وما زرعت تلك الخلافات المستشرية من احقاد وخصومة من المظاهر التي تحمل معها طلب الثأر ، وللأسف فقد تعمق الخلاف المتواتر بين القبيلتين إلى حساسية مفرطة كانت تعطل عمل أي وآل منصف يريد التسوية بينهما . وكانت فتنة ابي الهيثام تعبيراً على حجم العصبية القبلية ، إذ انها فتنة نشبت بين قيسية ويمنية ، وقد كانت الشرارة التي أوجبتها حادثة صغيرة ، قد تعد تافهة ، ولكنها فجرت كوامن كثيرة في التجمعين القبليين الكبيرين،

وكشفت عن ضغائن كانت تتحين أية فرصة للانطلاق ، كما أثار اعتماد الخلفاء العباسيين على اليمانية في إدارة الدولة حفيظة القبائل القيسية ، مما أدى إلى إثارة

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ٢٩٩ .

الفتن في بلاد الشام بين القيسية واليمانية . وكانت ثورة أبي الهيثم أشهر الثورات القبلية التي نشبت سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م ، إذ تضامن فيها القيسيون ضد اليمانيين في كثير من المناطق في دمشق والبلقاء والجولان وحران وحمص وفلسطين ، مما يدل على سعة انتشارها واتساع نطاقها بما تحمله هذه الثورة من أحقاد مخزونة في نفوس سكان المناطق المذكورة .

تعتبر ثورة أبي الهيثم عامر بن عمارة المري إحدى الثورات القبلية المتميزة التي وقعت في غوطة دمشق بين قبائل شبه البدوية واليمانية القروية ، وامتدت المواجهات فيها سبع سنوات (١٧٠-١٧٧هـ/٧٨٦-٧٩٣م) حاول فيها القيسية زيادة هيمنتهم على غوطة دمشق ، ربما للاستفادة من الانتاج ، إذ تعتبر قبائل قيس في حران وبصورة عامة جنوب سوريا وفلسطين شبه بدوية ، تشتهر بتربية الماشية ، أكثر من الزراعة ، ويبدو أنها كانت ترغب في السيطرة على الريف والافادة من الانتاج الزراعي ، فاتحدت قبائلها لطرد القرويين اليمانيين من الغوطة أو على الأقل اخضاعهم لها ، ونقل ابن عساكر خلال روايتين احدهما عراقية والثانية شامية تفاصيل ذلك . وتعود أسباب هذه العصبية إلى أمرين هما :

الأول : أن عامل الرشيد بسجستان قد قتل أخاً لأبي الهيثم (١) ، فخرج أبو الهيثم (عامر بن عمارة بن حزيم الناعم بن عمرو بن الحارث ، أبو الهيثم المري والد أبي عامر وهو أحد فرسان العرب المذكورين ، وزعيم قيس في الفتنة في دمشق أيام الرشيد) بالشام ، وجمع جمعاً عظيماً ، وقال يرثي أخاه :

سَابِكِيكَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ وَبِالْقَنَّا	فَإِنَّ بِهَا مَا يُدْرِكُ الطَّالِبُ الْوَتْرَا
وَلَسْنَا كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِغَيْرَةٍ	وَيُعَصِّرُهَا مِنْ مَاءٍ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

وإِنَّا أَنَا نَسُ مَا تَفِيضُ دَمُوعَنَا عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ الظَّهْرَا
وَلَكِنِّي أَشْفِي الْفُؤَادَ بِغَارَةٍ أَلْهَبُ فِي قُطْرِي كَتَائِبَهَا حَجْرًا^(٢)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق، ج٢٦، ص٦٢، وما بعدها .

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق ، ج٢٦، ص ٦٣ ، ابن الاثير، الكامل ، ج٦، ص١٢٧، ١٢٨ .

ولم يستطع الرشيد القضاء عليه إلا بالحيلة عندما أوعز إلى أخ لأبي الهيثام ،
وأرغبه، فألقى القبض على أخيه وأرسله إلى
الرشيد بالرقعة ، فلما دخل أبو الهيثام على الرشيد أنشده أبياتاً ، منها :
فأحسن أمير المؤمنين فإنه أبا الله إلا أن يكون لك الفضل
فمن الرشيد عليه ، وأطلق سراحه ^(١) .

الثاني : وتعود إلى حادثة صغيرة علقَ عليها عدد من المؤرخين أنها بداية لفتنة أبي
الهيثم ، وهذه الحادثة فجرت كثيراً من الأحقاد بين القبائل القيسية واليمانية . وهي
أن رجلاً من بلقين خرج يريد طحن غلاله في البلقاء ، فمر بحائط (بستان) رجل
من جذام أولخم فيه بطيخ وقثاء ، فتناول القيني منه ، فقال صاحب الحائط : إليك
عن متاعنا ، فشتمه القيني ، وحينما فرغ القيني من طحن الحبوب ، انصرف وكان
اليمني قد أعد قوماً ليضربوا القيني وتمكن من قتل رجل منهم ، ولما وصل الخبر
إلى اليمانية جدّوا في طلبه والثأر منه ، وأخذوا يجمعون الجموع ضد القيني ^(٢) .

وخاف الناس أن يتفاقم الأمر ، فاجتمع أهل الإصلاح ليصلحوا بينهم ، وكان
على دمشق عبد الصمد بن علي ، وقد تألف وفد الإصلاح من ثلاثة نفر من قريش ،
وثلاثة من قضاعة ، وثلاثة من اليمن ، فجاءوا إلى القين فكلموهم بالأمر وفوضت
القين إلى وفد الإصلاح ما يراه مناسباً ، ثم أتوا إلى اليمانية فكلموهم ، فقالوا :
" انصرفوا عنا حتى ننظر فيما جئتم به " ^(٣) وباءت محاولات القبائل في التدخل
بالفشل إذ لم تشعر القين إلا بالخيل تدوسهم وقتلوا من القين ستمائة ، ويقال ثلاثمائة
رجل ، فاستنجدت القين بقضاعة وسليح ، فلم ينجدوهم ، فاضطروا للذهاب إلى

قيس فاستتصروهم فأجابوهم ، ومعهم خمسون رجلاً من كلب من بني عامر بن عوف . (٤)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٦٤ ، وما بعدها .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٦٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٦٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٢٨ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٦٤ .

ولما وصلت أنباء الفتنة إلى هارون الرشيد قام بعزل والي دمشق عبد الصمد بن علي، وولى مكانه إبراهيم بن صالح بن علي ، وقد تمكن إبراهيم من إيقاف النزاع وإرسال وفد ضم جميع الأطراف في الشام من أجل الصلح ، وضم الوفد جماعة من قریش والقيسية وکلاب وثقیف واليمانية وکلب . (١)

إلا أن سياسة إبراهيم بن صالح المتمثلة بميله إلى اليمانية جعلت الفتنة تتجدد سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م ، وقد استخلف إبراهيم بن صالح ابنه إسحاق ، و كان ميله إلى اليمانية أيضاً ، و لما اتخذ الهيثم بن عوف (غوث) ، وهو من كنده صاحباً للشرطة ، غضبت القيسية من ذلك ، فما كان من إسحاق إلا أن حبس رؤساء قيس ، وضرب بالسياط أربعين رجلاً من محارب وحلق رؤوسهم ولحاهم (٢) .

وازداد الأمر سوءاً عندما خرج رجل من قيس إلى مزرعة له في البثنية ، ولما وصل الرجل أرض غسان دُلَّ عليه فوثبت غسان على الرجل فقتلوه ، وقتلوا من معه ، فعادت العصبية من جديد في حوران ، وكان عامل إبراهيم عليها ، إبراهيم بن حميد المروزي ، وكانت النتيجة أن قُتل عددٌ من اليمانية (٣) .

وقامت اليمانية بالهجوم على القيسية ، وجأؤوا إلى كليب بن عمرو بن الجندب ابن عبد الرحمن ، وعنده ضيف له فقتلوه ، فجاءت أم الغلام بثيابه إلى أبي الهيثام فألقته بين يديه ، فقال لها : انصرفي حتى أنظر ، فلست أريد أمراً على ظلمه ، ولا

أخبط خبط عشواء حتى نأتي الأمير ونرفع إليه دماءنا ، فقد عرفناها ، فإن نظر فيها وإلا فأمير المؤمنين ينظر فيها ، يعني ينظر في ذلك وأرى رأي (٤) .

-
- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٦٤ .
 (٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٢٩ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٦٦ .
 (٣) ابن الأثير الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٢٩ ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٧ .
 (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٦٦ ، ابن خلدون ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٤٦٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٢٩ .

ويبدو من حديث أبي الهيثم أنه أراد أن يحسب الأمور جيداً ، فهو لا يريد لهذا الحادث أن يوجب مشاعر الناس ويشق عصا الطاعة ، فانتظر قليلاً ليرى ما سيسفر عنه من دار الإمارة في دمشق .

وتوجه أبو الهيثم إلى إسحاق (١) إلا أنه لم يأذن له بالدخول ، ولما قتل رجل من سليم ، ونهب أهل تلفيّا (٢) جيران محارب ونهبوا ما فيها وأحرقوها ، فأقبل أهلها إلى أبي الهيثم مسرعين ، وتوجه أبو الهيثم إلى الوالي إسحاق بن إبراهيم يطلب منه عزل صاحب شرطته ابن عوف ، فرفض إسحاق في البداية ، ولكنه لما شعر خطورته أجابه ، فعزل ابن عوف (٣) .

ولكن إسحاق أرسل إلى اليمانية يغريهم بأبي الهيثم ، وأخذ يحرضهم على مهاجمته إلا أن أبا الهيثم تمكن من إلحاق الهزيمة باليمانية عند باب الجابية رغم قلة عدد جيشه ، واستولى على دمشق ، وحال الليل دون متابعة فلول فرسان اليمانية، فجاء إلى السجون وأخرج من فيها من قيس ومن اليمن ، غير راغب في أن يتطور الأمور إلى أكثر مما وصلت إليه (٤) .

ولم تهدأ الوقائع بين الطرفين ، إذ قامت بينهم حروب تمثلت بعمليات انتقام وإحراق دور كثيرة ، فقد خرب حي الأوزاع في دمشق وخمس قرى لليمانية ،

وأحرقت قرى عين توما وعقرباء وبيت قوفا والحديثة وجسرين وكفر سوسية والحرجية (٥) .

(١) اسحاق بن ابراهيم بن صالح بن علي ، ولي دمشق نيابة عن أبيه في خلافة الرشيد ، وفي ولايته وقعت عصبية أبي الهيثام .

(٢) تليفاتاً : من قرى غوطة دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢٦ ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢٦ ، ص ٦٧ .

(٥) هي من قرى غوطة دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤ ، ٢٣٢ ، ١٤٠ ، ٤٦٩ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٧٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

ولم تقلح محاولات الصلح التي قام بها عبد العزيز العمري ، وهو رجل من الحجاز وصل دمشق بطريق الصدفة وتدخل لتهدئة الأوضاع ، إذ وجد أن الصلح بين الطرفين غير ممكن ، ووجد نفسه غير قادر على إدراك وتحقيق الصلح بين الطرفين ، فقرر أن يترك الأمر ومضى (١)

استمر الوضع على ما هو حتى وصل السندي (٢) ، ومعه قوات من بغداد لإيقاف أبي الهيثام ، واستطاع السندي بن شاهك بعد محادثات مع أبي الهيثام في إقناعه بمغادرة دمشق إلى حوران ، وعقد معه صلحاً ، وعُين عيسى بن موسى على دمشق بدلاً من إسحاق بن صالح موقظ الفتنة ، وجاء تعيينه ليتمكن من إلقاء القبض على أبي الهيثام ، ومتابعته في حوران التي وصلها لإلقاء القبض عليه ، ولكن أبا الهيثام سعى إلى تهدئة الأمور ، ففرق أصحابه ورجع الناس إلى عشائهم . (٣)

ورغم المحاولات المتكررة من الدولة في القبض على أبي الهيثام إلا أن جميع هذه المحاولات كان حليفها الفشل ، وظل أبو الهيثام أسطورة خارقة إذ نجح بالإفلات من جميع المحاولات ، وعزل موسى بن عيسى عن ولاية دمشق ، إلى أن جاء موسى بن يحيى بن خالد البرمكي الذي اسكن الفتنة وتمكن من اخمادها . (٤) .

ولم تعرف نهاية أبي الهيثام ومصيره ، فهناك روايات تقول أنه غادر الشام^(٥) ، أو أنه اختفى^(٦) ، وأنه قتل على يد السندي بن شاهك وتفرق اعوانه^(٧) ، أو أنه توفي سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م^(٨) .

-
- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٧٤ .
 - (٢) سندي بن شاهك هو أحد موالي الخليفة أبو جعفر المنصور ، وقد تولى دمشق في عهد الرشيد ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٥١٩ ، ٥٢٣ ، جـ ٨ ، ص ٢١٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ .
 - (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٧٤ .
 - (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٨ ، ص ٢٥١ .
 - (٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢٦ ، ص ٧٨ .
 - (٦) الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢٧٩ .
 - (٧) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ .
 - (٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٣٢-١٣٣ .

وقد كانت أرض الأردن مسرحاً لهذه الفتنة ، فقد خرجت القين ، ومن معها إلى قرية العالوك (محافظة جرش) ، ثم انتقلت إلى الربة (الكرك) ثم البثنية وحوران ودمشق^(١) .

وقد رصد شعراء الدولة العباسية هذه الفتنة وأخذت حيزاً كبيراً من أشعارهم ، فمنهم من انحاز إلى القيسية ومنهم من انحاز إلى اليمانية ، ومنهم من كان موقفه مغايراً لموقف سابقهم من الشعراء لأنهم منحازون إلى الدولة ، وما يهمهم هو قمع الفتنة التي جلبت القلاقل والفوضى ، وأزعجت خليفة هارون الرشيد .

وقد تنوعت الأغراض الشعرية التي تناولها الشعراء في أشعارهم التي واكبت فتنة أبي الهيثام ، وأبرز هذه الأغراض الفخر ، فقد انقسم الشعراء إلى قيسي ويمني ، وراح كل فريق منهم يصور أمجاد قبيلته الحربية والسياسية مستعيداً مآثرهم القديمة في الجاهلية والإسلام مفتخراً بما حققه من انتصارات . ويعود ذلك لما في هذا الغرض من قدرة على إفساح المجال أمام الشعراء لتسيطر مآثر قومهم ، وبناء ذرى أمجادهم وانتصاراتهم ومن هذه الأشعار قول السلمي :

إذا افتخرت فيسُّ بطيّبِ العناصرِ على النَّاسِ طأطا رأسه كُلُّ فَاخِرِ
هُمُ صدَعُوا بِالْحَقِّ حَتَّى تَنْفَسَتْ أنوفُ المُلُوكِ وهي خُشْمُ المناخيرِ (٢)

وكان المدح يتمثل في بعض المقطوعات التي قالها الشعراء في مدح قادة الفتنة وفوارس المعارك ، وكان القسم الأكبر منه مخصصاً لمدح قادة الدولة الذين وكلوا للقضاء على الفتنة ، وكان لجعفر البرمكي نصيب الأسد من هذا المديح منها قول السلمي : -

أصلحت أَمْرَ الشَّامِ مَحْتَسِباً ورتقتَ ما فيها منَ الفتقِ
ما كان يُدرِكُ بالقتالِ ولا بالمالِ ما أدركتَ بالرفقِ (٣)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج-٢٦ ، ص ٦٤ ، محمد خريسات ، تاريخ الأردن ، ص ٩٣ .

(٢) خليل بنيان الحسون : أشجع السلمي ، حياته وشعره ، ص ٢١١ .

(٣) خليل بنيان الحسون : أشجع السلمي ، حياته وشعره ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

وهكذا انتهت فتنة أبي الهيثام الذي لم تعرف نهايته ، وربما اختفى وتوارى بعدما شعر أن الدولة وجنودها يتعقبونه (١) . وانتهت هذه الفتنة بما خلفته من دمار في كثير من المنشآت العمرانية في دمشق ، وما ألحقته من حرق كثير من القرى ، وما أزهرت به كثيراً من النفوس ، وأهدرت به كثيراً من الدماء ، وما خربت به كثيراً من الأراضي الزراعية ، واتفقت المزروعات مما كان له انعكاس كبير على الحياة الاقتصادية في الشام ودمشق التي فقدت الأمن نتيجة لحصار المدينة ومعارك الشوارع التي تسببت في تعطيل عمليات البيع والشراء ، وبالتالي غلاء الأسعار .

فتنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م

هذا وقد تجددت الفتنة في دمشق بين القيسية واليمانية في عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م بعد أقل من أربع سنوات على نشوبها لأول مرة ، واتسع نطاقها ليشمل كل من حمص والأردن وفلسطين والباق والجلولان ، وطالب كل من الفريقين إخراج الفريق الآخر من الشام (٢) ، وجاءت القيسية من البلقاء بقيادة عطية السعدي وجاءت القين من حوران والأردن مدداً لأبي الهيثام .

ويبدو أن الفتنة قد أدت إلى فوضى اجتماعية ؛ إذ سمحت بكثرة اللصوص المنتفعين بتلك الفوضى ، مما أقلق الرشيد وكدر صفوه ، وجعله يعزم في الخروج إليهم بنفسه ، ولكنه أوكل هذه المرة وزيره جعفر بن يحيى البرمكي في رسالة وجهها إليه يقول فيها : " ... إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فرد عليه جعفر : بل أفيك بنفسك " (٣) .

ولا يعطينا الطبري والجهشياري أين قامت تلك الفتنة ، ولكنهما يذكران أنها كانت فتنة انفجرت على أساس العصبية ، وربما أن اللصوص قد استغلوا هذا فعملوا إلى إحداث فوضى اجتماعية .

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٦٤ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ .

وخرج جعفر بن يحيى البرمكي ومعه جيوش ما يكفيه لإخماد الفتنة ، فكان على شرطته العباس بن محمد بن المسيب بن زهير ، وعلى حرسه شبيب بن حميد ابن قحطبة . وأخذ الرشيد يوصي جعفرًا ، ويرسم له أموراً ألزمه بالوقوف عند حدّها ، وهذا ما يدل على اهتمام الرشيد بالشام .

فأتى جعفر بن يحيى البرمكي الشام ، ومعه الأشراف والمال والعساكر ، ونجح جعفر بما عرف عنه من دهاء وحسن سيرة وحلم من إطفاء تلك النار الموقدة، فأصلح بين الناس وجرّد الناس من السلاح واستقامت أمور الشام ، فلم يدع بها رمحاً ولا فرساً لديهم وأعاد الأمن والطمأنينة إلى المنطقة (١) .

وقد صور منصور النمري مخاوف الخلافة العباسية من هذه الفتنة ، وما ستجرّ إليه من ويلات قد يصعب السيطرة عليها والتحكم بها ، ومما قيل في ذلك شعراً :

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة
فهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل برمكٍ عليها خبت شهبانها وشرارها
 رماها أمير المؤمنين بجعفرٍ وفيه تلاقي صدعها وانجبارها (٢)
 ولما استقام الوضع في الشام عاد جعفر إلى بغداد ليعلم الخليفة الرشيد إلى ما
 آلت إليه الأحوال من خلال خطبة ألقاها بين يديه دلت على شدة هذه الحركة ومدى
 خطورتها على أمن الدولة ، ومن خطبة جعفر "... وفارقت يا أمير المؤمنين أهل
 كور الشام ، وهم منقادون لأمرك نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ،
 متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤمنون

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ٢٦٢ ، اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ، ص ١٤٧ ، الأزدي ،
 تاريخ الموصل ، ص ٢٨٩ .

(٢) ابن كثير ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ ، منصور النمري ، شعر منصور النمري ، ص ٩٢ - ٩٣ .

فضلك ، آمنون بادارتك اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في إمتناعهم ،
 وعفو أمير المؤمنين عنهم وتغمده لهم سابق لمعذرتكم ... ولئن كنت قد شخصت
 عنهم ، وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ، ونفي مراقهم وأصلح دهاءهم ،
 وأولاني الجميل فيهم ، ورزقني الانتصار منهم" (١).

ذكر الجشهياري أن جعفرأ خطب في أهل الشام خطبة أوصاهم فيها بالآفة
 وحذرهم من الفرقة والاختلاف ، فهو يقول : " .. أوصيكم بالآفة ، وأحذركم الفرقة
 والاختلاف ، وأمركم بالاجتماع ، وأنهاكم عن الاختلاف . قال تعالى : " واعتصموا
 بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " (٢) فأمر الجماعة في أول الآية ، ثم لم ينقص حتى نهى
 فيها عن الفرقة ، وتوكيدا للحجة ، وقطعا للمعذرة أن الفرقة تنشئ بينكم إحنا ،
 يطلب بها بعضكم بعضا ، وأن الجماعة تعقد بينكم ذمما
 يحمي بها بعضكم بعضا ، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم ... (٣) .

وقد تناول شعراء الدولة هذه الفتنة في أشعارهم ، فقد أكثر أشجع السلمي من الشعر فيها ، ولجعفر خاصة فهو الذي قضى على الفتنة في بعض مراحلها بحنكته السياسية ودون إراقة دماء ، فعمل على نشر الأمن في دمشق لفترة من الزمان ، وكما أشار إلى قدرة الدولة في إطفاء نيران الفتنة فور نشوبها ، وعلى مقدرة جعفر وعمله البطولي الذي قام به في القضاء على الفتنة ، فصور الشام ، وقد حل بها الأمان والسلام بعد الخوف والهلع ، يقول : (٤)

أتى الله أرض الشام بالأمن فأنجلت	ضبابة خوف قد أربّت غياطلة
أتاها ابن يحيى جعفر وكأنمّا	أتاها ربيع قد تعرّم وأبله
ولم يبق سهل في قرى الشام كلها	ولا جبل إلا أطمأنت زلازله

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٦٤ ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .

(٢) سورة آل عمران - آية (١٠٣) .

(٣) الجهشيري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٠٩ .

(٤) خليل بنيان الحسون ، أشجع السلمي حياته وشعره ، ص ٢٤٢ .

والملاحظ على هذه الفتنة اقتصرها على الزواquil (١) والمتلصصة مما يضعف فيها عامل العصبية القبلية ، فهي إذن فتنة غير واضحة لا في أسبابها ، ولا في مناطق انتشارها .

وكان الزواquil قد لعبوا دوراً واضحاً في فتنة أبي الهيثام ، وكان قسم منهم في حوران ، وحاربوا مع القيسية في جميع أدوار الفتنة ، فأرادوا بعدما شتت صفهم في أن يجمعوه مرة أخرى ولذلك لجأوا في كسب رزقهم إلى السلاح ، وتخويف الناس ، ونهب الأموال في محاولة لجمع صفهم الذي فرط عقده بعد أبي الهيثام . ولذلك أراد جعفر في أن يكون قضاءه عليهم بمطاردتهم ، وأخذ ما كانوا يجمعونه من الرماح والسيوف وقتل المتلصصة .

وهكذا كان لهذه الفتن آثار تجاوزت القتل والحرق والتدمير ، فقد فرضت على والي دمشق في أن يكون محايداً في مشاعره ، دقيقاً في التسوية بين قيس ويمن، لا يحابي قيسياً على اليمانية ولا اليمانية على القيسية ، يسوس البلاد ويصلح بين الناس . وعلى الوالي أن يعي أن أي ميل من أحدهم إلى هذا الجانب أو ذاك لا بد أن يوجب نار الفتنة بين الفريقين . (٢)

كان إبراهيم بن المهدي نموذجاً عملياً لمفهوم التسوية ، فلم يقطع أحد طيلة سنوات ولايته أي طريق ، ولم يخرج عليه أحد من الثائرين ، واستطاع إبراهيم في أن ينال رضى الحيين ، فحقق توازناً بينهم . حيث يذكر أنه أعد طعاماً ، ودعى إليه وجوه الحيين ، وعندما دخلوا حجرة الطعام جلس على المائدة وجعل علي يمينه قيسياً وعلى يساره يمينياً ، وكان الجانب الأيمن أعلى من الجانب الأيسر ، لكن كان

-
- (١) الزواويل : هم فئة من القبائل العربية ، وأنهم كانوا في حالة اجتماعية سيئة ، فربما عمدوا إلى السلب والنهب في القرى المجاورة . وقد استخدمهم ابو الهيثم في الفتنة . فاروق عمر ، الجند الأموي والجيش العباسي ، مجلة آفاق عربية ، عدد ٢ / ١٩٧٩م ، ص ٣٤ .
- (٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج٤ ، ص ١٢٩-١٣٠ .

هذا المجلس بالتناوب ، يقول ابراهيم بن المهدي " إلا أن مجلسك يا رئيس المضرية في غد من الجانب الأيسر، ومجلسك يا رئيس اليمانية من غد في الجانب الأيمن ، وهذان الجانبان نوب بينكما " (١) . وقبل أن يتقدم الطعام تحدث إبراهيم إليهم ، وبين لهم أن قریش میزان بین العرب فالمضري أعمامها ، واليمانية أخوالها، وحثهم على التعصب ونبذ الخلاف بين ظهورهم . ثم قدم الطعام وطعموا معه ، وانصرف القوم والجميع في ذلك اليوم حامداً لإبراهيم (٢) .

فتنة سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م

عرفت دمشق استقراراً بفضل حسن إدارة إبراهيم بن المهدي أخي الرشيد الذي عرف بآبن شكله ، وامتد هذا الاستقرار عدة سنوات ، وخلفه شعيب بن حازم ابن خريمة الذي تولى دمشق من قبل هارون الرشيد سنة سبع وثمانين ومائة (٣) .

وقد انحاز شعيب إلى اليمانية فهجات العصبية بين الحيين ، وجمعوا جموعاً كبيرة ، وتجددت المعارك بينهما وقتل من المضرية نحو خمسمائة ، مما يدل على قوة وكبر حجم هذه الفتنة الأمر الذي أدى إلى مقتل العدد الكبير من الجانب الواحد .

وقام الرشيد بإيفاد أحد كبار مستشاريه إلى دمشق ، وهو محمد بن منصور ابن زياد مع بعض مستشاريه من أهل الشام ليصلح بين الناس . وكان الرشيد قد كلفه بمعالجة الأمور بحكمة ، وأن يحمل من بيت المال ما كان بينهم من الدماء ، وأن يعفو عنهم ، وأن يعزل حاكم دمشق شعيب بن حازم ، وتولية من أحب الفريقان ورضوا به ، مما يوحي أن شعبياً كان له اليد الأولى في تأجيج الفتنة . وقد اختار أهل دمشق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم والياً عليهم سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م . وتحمل الرشيد من ماله الخاص ما كان بين الحيين من الدماء (٤).

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٣ ، ص ٨٨ ، ترجمة ابراهيم بن المهدي .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٢٣ ، ص ٨٨ .

(٣) الصفدي ، امراء دمشق ، ص ٦١ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٣ ، ص ٨٩ ، الصفدي ، امراء دمشق ، ص ٣٨ ، ١٣٢ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ١ ، ص ٩٥٥ .

ويبدو أن التذمر من الأوضاع في ظل الحكم العباسي في خلافة الرشيد قد تعدى إلى مناطق أخرى ، فقد ثار أهل حمص عام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م على واليهم إسحاق بن سليمان ، مما يؤكد ذلك تعدد الثورات التي قامت في عهده في عدة مناطق . (١)

وعندما تولى الأمين الخلافة عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م كانت بلاد الشام تعيش حالة من الهدوء الظاهري ، ولكن الجو العام فيها لم يكن يوحى بالطمأنينة إذ أن قلوب أهل الشام ما زالت تتطوي على كراهية الحكم العباسي .

وكانت الأوضاع الاقتصادية تزداد سوءاً جراء الوضع المتوتر في العراق بين الأمين وأخيه المأمون ، وانعكس هذا الوضع على الشام ودمشق . ويبدو أن اهتمام الأمين بحشد القوات لمحاربة أخيه لاكراهه على التنازل عن ولاية العهد ، وحاجته للأموال لهذه الغاية دفعته إلى الإلحاح على ولاية الأمصار بالتعجيل بارسال كل ما لديهم من أموال الخراج مما حال دون دفع عطاء الجند في بعض الولايات .

وقد عبر الدمشقيون عن عدم رضاهم عن الأوضاع الاقتصادية السيئة بسلسلة من الانتفاضات ضد واليهم الجديد منصور بن محمد المهدي ، عم الخليفة الأمين الذي سعى إلى تقريب رجال العلم والدين إليه في محاولة لكسب ثقتهم لما كان لهم من تأثير على العامة . ولكن هذه المحاولات لم تتجح بسبب ظهور ثورة قلّة دمشق سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م . وإنّ ما فجر هذه الثورة هو تكليف والي دمشق منصور بن المهدي رئيس شرطته داود بن عيسى بسرقة القلّة (٢) ، وهي إناء من بلور من فضيات جامع بني أمية ، وإرساله إلى الأمين الذي كان يهوي اقتناء التحف النفيسة، وحينما تسربت أنباء السرقة إلى العامة أدركوا أن للوالي ولرئيس شرطته يداً في

- (١) محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ ١ ، ص ١٨٣ ، دون الإشارة إلى المصدر .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٧ ، ص ١١٩ - ٢٣٦ ، الصفدي ، امراء دمشق ، ص ١٠٤ .
- القلة : هي اناء من بلور فضي ، والقلة هي القره ، ابن منظور ، لسان العرب ، جـ ١١ ، ص ٢٩٢ .
- ذلك فصاح إمام جامع دمشق بالناس بعد أن خلع قلنسوته وضرب بها الأرض :
 " سرقت قلنكم " فقال الناس لا صلاة بعد القلة فصارت مثلاً ، وهاجم الناس رئيس الشرطة وأثخنوه بالجراح ، ففر إلى دار الإمارة حيث الوالي ، واحتفى هناك فحاصروهما ، ولم يفلحا بالتملص إلا عندما تنازل الوالي عن الولاية لرجل من أهل دمشق ، وهرب ليلاً مع صاحب شرطته من المدينة ، ولما علم الخليفة الأمين بذلك سخط على واليه ، وعين بدلاً منه سليمان بن عبدالله المنصور (١) في محاولة لاسترضاء أهل دمشق لإصلاح الأمور فيها . وقد رد المأمون على أهل دمشق الإناء المسروق بعد مقتل الأمين بواسطة عبدالله بن طاهر (٢) .

ثورة أبي العميطر (السفيني) ١٩٥ هـ - ٨١١ م

كان عهد الأمين مليئاً بالفتن والاضطرابات ، وفي الوقت الذي قامت فيه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون ، اشتعلت نار الثورة في بلاد الشام على يد علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية ويلقب بأبي العميطر ، والمعروف بالسفيني .

ولقب أبو العميطر لقب التصق به ، فكان يغضب من هذا اللقب ، وقيل في هذا الصدد أنه سأل أصحابه عن كنية الحرزون فلم يعرفوها ، فقال : "أبو العميطر ، فلقبوه بهذا اللقب (٣) . وكان قد شارف على التسعين من عمره عندما ثار . وقيل أنه كان حسن السيرة وقد أخذ الناس عنه علماً كثيراً لكنه لما خرج ظلم وأساء ، فترك الناس ما نقلوا عنه . (٤)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٧ ، ص ١١٩ ، الصفدي ، امراء دمشق ن ص ١٠٤ ، ٥٩ .

(٢) الصفدي ، أمراء دمشق ، ص ٥٩ ، ٧٠ ، ١٠٤ .

- (٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
 (٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٤٩ ، الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ص ٢٥١ ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج٢٣ ، ص ١٥ .

كان أبو العميطر قد رفض الخروج في بداية الأمر رغم محاولات اليمانية في ترغيبه على الخروج ، ولجأوا إلى الحيلة ؛ إذ يقال أنه حفر سرداباً تحت دار أبي العميطر في المزة ، وكان الخطاب بن وجه الفلس أحد مولي بني أمية الذي تغلب على مدينة صيدا ، وهو أحد الدمشقيين المشهورين يدخل ذلك السرداب ليلاً مع جماعة من أصحابه وينادون أبا العميطر : أخرج فقد آن لك ، فوقع في نفسه أن الذي يناديه شيطان ، فلما تكرر النداء تراجعت مقاومته ، ورضى بالخروج ^(١) . ويبدو أن الرواية والحادثة مشكوك فيها وأنها وضعت من أجل السخرية بأبي العميطر .

وكان الأمويون قد تزعموا نشر دعاية واسعة لصالح أبي العميطر فهو ابن شيخي صفين (علي ومعاوية) ، وأنه السفيناني الذي سيعيد الخلافة إلى بني أمية ، وأن فيه علامات السفيناني ، فهو ذو نسب أموي هاشمي ، وينتسب من جهة الأم إلى علي بن ابي طالب ، فأمه هي نفيسة بنت عبيدالله بن عباس بن علي، كما ينتسب من جهة الأب إلى معاوية بن أبي سفيان لأنه حفيد ابنه يزيد ، فهو السفيناني المنتظر بحكم نسبه الأبوي ^(٢) .

كان خروج أبي العميطر في المزة التي كان يسكنها ، وقد شجعه على الخروج مولى لبني أمية يدعى الخطاب بن وجه الفلس، وكان متغلباً على صيدا ^(٣)، وكان أبو العميطر قد تجاوز التسعين من عمره عندما ثار ، وقد احتل السفيناني حمص ثم دمشق التي جعلها مركزاً له ، وطرده سليمان بن منصور (جعفر) الوالي العباسي ، واستطاع أن يسيطر على دمشق وأن يستصفي منازل بني هاشم وأموالهم، فأخذ ضياعهم ووزعها على بني أمية ^(٤) . وقد انضمت إليه قبيلة كلب اليمانية التي كان جلّ أعوانه منها .

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج١٢ ، ص ٤٤٦ ، الطبري ، تاريخ ، ج٨ ، ص ٤١٥ ، ابن الاثير ، ج٦ ، ص ٢٤٩ .
 (٢) - ٢٥٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٣ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

- (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٦ ، ص ٢٤٩ ، ج٥ ، ص ١٥٥ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٤٢ ، ص ٤٤٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٤٩ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي ، ص ٥٣-٦١ .
- (٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج٦ ، ص ٢٤٩ ، ابن خلدون ، تاريخ ، ج٥ ، ص ٥٠ .
- (٤) ابن عساكر ، مصورة تاريخ دمشق ، ج١٥ ، ص ٦١٣ .

ويبدو أن بعض الشاميين قد رفضوا البيعة لأبي العميّطر خشية العباسيين ، مما جعل أتباع هذا الثائر وهم كثر ، أغلبهم من كلب إلى استخدام القوة في أخذ البيعة من العامة ، فكانوا يصادرون حوانيت الناس فلا يردّونها عليهم إذا كانوا من قريش أو من مواليهم كما كان الركيبي - وهو من أصحاب أبي العميّطر - يسير في الأسواق على منازل أهل دمشق يأخذون البيعة له فمن يخرج منهم ، ومن لم يخرج ، قال : بايعوا مهدي الله ، بايعوا الرضا من آل محمد ، ومن لم يخرج ، قال: يا غلام سمرّ بابيه واشمت به جاره (١) .

وحاول السفيناني الاتصال بزعيم القيسية محمد بن صالح بن بيهس الكلابي يدعوه في الوقوف إلى جانبه ، ويتوعده إن رفض ، إلا إن ابن بيهس رفض ذلك فتوجه السفيناني إلى القيسية . (٢)

وكانت القيسية قد جمعت لأبي العميّطر جيشاً من ثلاثمائة فارس من الضباب ومواليهم ، ولما علم السفيناني بذلك وجه إليهم يزيد بن هشام في اثني عشر ألفاً ودارت بينهم حروب ومعارك قوية انتهت بهزيمة السفيناني ، وقتل عدد منهم وأسروا الكثير حتى أن عدد القتلى وصل إلى ألفي رجل ، وأسّر ثلاثة آلاف أطلقهم بعدما حلق رؤوسهم ولحاهم (٣) . وضعف أمر السفيناني بهذه الهزيمة ، ولكنه استجمع قواه من جديد وأمر على جيشه ابنه القاسم والتقى ابن بيهس الذي تمكن من هزيمة القاسم الذي جزّ رأسه فأرسله إلى الخليفة الأمين بعد مقتل القاسم بن العميّطر جمعاً آخر وأرسله مع مولاة المعتمر إلا أن ابن البهيس هزمه وقتله وهزم أصحابه ، وبعدها وهن أمر أبي العميّطر (٤) .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج٤٣ ، ص ٣ .

(٢) محمد بن صالح بن بهس الكلابي (ت. ٢١٠هـ/ ٨٢٥م) زعيم في بلاد الشام ، استولى على دمشق من سنة ١٩٨-١٠٨هـ/ ٨١٣-٨٢٣م ، انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٥ ، ص ٤٦٧ ، الصفي ، تحفة ذوي الألباب ، ص ٢٦١ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٥٢ ، ص ٥٢٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢٤٩ ، ابن خلدون ، تاريخ ج ٥ ، ص ٥٠٠ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .

وكانت هذه المعركة وما انتهت إليه الشوكة التي قصمت ظهر البعير ؛ إذ ألغت كل أحلامه في التوسع وتقوية دولته، فانتهى أمره .

وبعد هذه الحوادث مرض ابن بيهس واشتدت عليه علته ، وكان مرضه المفاجئ حائلاً دون التقدم إلى دمشق ، فاضطر الانسحاب إلى حوران . وقبل أن ينسحب إلى حوران جمع رؤوساء بني نمير ، وهم قيسية ونصحهم ، وقال لهم : قد كانت عنتي ما ترون ، فارقوا ببني مروان بن الحكم ، وأطفوا بهم ، وعليكم بمسلمة بن يعقوب ، فإنه ركيك ، وهو ابن أختكم ، فأعلموه أنكم لا تثقون ببني أبي سفيان وإنكم تثقون به ، وتبايعونه (١) .

وبهذه السياسة التي تمثلت في التمييز بين السفيانية والمراونية ، نجح ابن بيهس في إيقاع الفرقة بينهم ، فقد بويع مسلمة بن يعقوب المرواني بالخلافة من قبل القيسية وكيّدوا به السفياني (٢) . وبعدها تمكن من إلقاء القبض على أبي العميطر وشده في الحديد ، وأخذ يرسل إلى بني أمية يأمرهم في الحضور على لسان أبي العميطر ، فجعل كل من دخل يقال له : بايع، والسيف على رأسه ، فبايع - لمسلمة ابن يعقوب (٣) .

وقد قرّب مسلمة بن يعقوب القيسية له ، وأقطعهم ضياع المرج ، وجعل لكل رجل من وجوه قيس بمدينة دمشق منزلاً ، ولبس مسلمة وقيس ثياب الحر (٤) .

- (١) مسلمة بن يعقوب ابن علي بن محمد بن معين بن مسلمة بن عبد الملك وهو الذي وثب على أبي العميطر، وخلعه من الخلافة ، وبائع لنفسه بدمشق أيام المأمون . ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٥٨ ، ص ٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جأ ٦ ، ص ٢٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٤٩ .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٥٨ ، ص ٧٠ ، ترجمة مسلمة بن يعقوب . الصفي ، امراء دمشق ، ص ٨٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠ .
- (٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٥٨ ، ص ٦٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٥٠ ..
- (٤) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، جـ ٩ ، ص ٣٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ٢٢٧ .

وعندما شفي ابن بيهس من علته جمع جيشاً ، وأقبل يريد دمشق فحصرها ، وأقبل جيش مسلمة وجُلَّهم من القيسية الذين وقفوا معه ضد ابن بيهس ، وقالوا له : ما هو لنا بصاحب ، وما نعرف غيرك ، وهذه سيوفنا دونك ، ولكن سرعان ما عادوا إلى صف ابن بيهس ، فأزروه في الدخول إلى المدينة ، وأطبق ابن بيهس على المدينة بالخيول والرجالة والسالام ، ونشب القتال ، ودخل ابن بيهس المدينة من جهة باب كيسان ، ولم يشعر مسلمة إلا وأصحاب ابن بيهس معه في المدينة ، فعمل على إخراج السفيناني من سجنه وهربا من المدينة في زي النساء متكرين خشية إمساحهم . ودخل ابن بيهس المدينة في العاشر من المحرم عام ١٩٨هـ / ٨١٣م^(١) ، وغلب عليها ، فلم يزل يحارب أهل المزة وداريا وبيت لهيا إلى أن صالحه أهل بيت لهيا ، وأقام على حرب أهل المزة وداريا وهو مقيم في دمشق ، وبقي أميراً على دمشق حتى قدوم عبدالله بن طاهر إلى دمشق سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣م .

وبانتهاء ثورة السفيناني باتت محاولة استرداد الحكم إلى بني أمية حلاً صعب المنال ، إذ انتهت أقوى الثورات التي اتخذت من عقيدة السفيناني شعاراً لها . والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا هذا الانهيار السريع لهذه الثورة ؟

إن أكبر نقطة ضعف في هذه الثورة منذ البداية هو اعتماد السفيناني على اليمنية دون العرب الآخرين وخاصة القيسية ، فلم يستطع أن يكسب ولاء القيسية وزعيمها ابن بيهس ، وهو لا يستطيع أن يحقق الهدف الذي قام من أجله وهو يبذر بذور التفرقة بين عرب الشام . وإنه باعتماده على فريق دون آخر منهم قد بدأ الدعوة بتحيز غير عادل ، ثم هو قد أوجد العذر للفريق الآخر بأن يحس بأنه مقصى أو منبوذ ، ومثل هذا التصرف يبيح لهذا الفريق حمل السلاح ضد الثورة .

(١) ابن عساکر ، تاریخ دمشق ، ج ٥٨ ، ص ٧٠ ، ترجمة مسلمة بن يعقوب ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .

وكما كان لكبر سنه الذي بلغ التسعين من العمر أثرٌ على عدم قدرته على قيادة الثورة بحيوية ونشاط ، إذ كان يعتمد على ابنه القاسم في قيادة الجيش ، وبعد مقتله تلاحقت الهزائم به ، وضعف أمره .

وثمة ملاحظات في هذه الثورة تستدعي الانتباه ، وهي : موقف اليمانية في هذه الثورة؛ إذ نلاحظ أن موقفهم كان معاديا للدولة ، فأين دورهم في مؤازرة بني العباس ولست أعرف ما هي الأسباب التي دعت اليمانية إلى الابتعاد عن مؤازرة بني العباس فما الذي أراد اليمانية أن يحققوه ؟ وهل هي ثورة ضد القيسية أم ضد الدولة ؟

والملاحظة الأخرى أن القيسية في هذه الثورة حاربت من أجل الدولة ، وهذا تحول خطير في الدولة وسياستها : ونحن نعلم أن القيسية ما فتأت تحارب الدولة منذ ثورة أبي الهيثام المري .

ثورة الفديني ١٩٧هـ / ٨١٣م

لم تنقطع آمال أهل دمشق بالخلاص من الحكم العباسي . وفي أيام خلافة المأمون قامت في الأردن حركة مناوئة لبني عباس انطلقت من قرية الفدين (١)،

إحدى قرى حوران تحت زعامة أموي هو سعيد بن خالد بن محمد الفديني . وسعيد أموي يرتفع نسبه إلى عثمان بن عفان ، وقد ادعى الخلافة شأنه شأن أبي العميطر ، وآزرتة اليمانية (٢) .

وبدأ سعيد ثورته بالإغارة على ضياع السعديين (قيسية) في البلقاء ، وعلى القيسية في المناطق المجاورة لهم ، مظهراً العصبية لأهل اليمن . (٣)

-
- (١) الفدين : من أرض حوران ، جنوبي دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٢٤٠ ، وهي المفرق اليوم .
 (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢١ ، ص ٥٦ .
 (٣) ابن عساكر ، مصورة تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٢٧٧ ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠ .

ويذكر أن أعداداً كبيرة انضمت إلى الفديني ، ومعظمهم من أصحاب أبي العميطر ومن غطفان حتى أصبح جيشه زهاء عشرين ألفاً . ولما علم الخليفة المأمون به وجّه إليه والي دمشق محمد بن صالح بن بيهس جيشاً بقيادة محمد بن يحيى بن صالح ، فهرب الفديني إلى زيزياء ، فهدمها وخربها وغادرها إلى الماسوح (١) . أما يحيى فقد اتخذ من عمان مقراً له ليبقى على مقربة من الفديني حتى يراقب حركته .

وفي الماسوح بدأت حركة الفديني بالتعاظم بعد أن انضم إليه زيوندية الغور وبأراشه ويقوم من غطفان وبعض العيارة من بني أمية ، ومن جلا منهم من دمشق من أصحاب أبي العميطر ومسلمة . إلا أن يحيى تمكن من إجلائه عن الماسوح ، وظل يلاحقه إلى حسابان التي تحصن بها ، وتفرق أصحابه عنه وتركوه وحيداً ، ولم يعرف مصيره بعد ذلك (٢) .

ثورة المبرقع اليماني ٢٢٧هـ / ٨٤٢م

تجددت العصبية القبلية في بلاد الشام في خلافة المعتصم (٢١٨هـ-٢٢٧هـ/٨٣١/٨٤٢م) حيث قامت في جنوب الشام واحدة من أعظم الفتن التي عرفتها المنطقة ، إذ وثب بفلسطين تميم اللخمي المعروف بأبي حرب ، ويلقب بالمبرقع اليماني (٣) . والمبرقع لقب التصق به لأنه كان يضع على وجهه برقعاً حتى لا يعرفه أحد ، وقد خرج المبرقع اليماني بفلسطين ، وقيل في أرض الرملة سنة ٢٢٧هـ/٨٤٢م ، وقد رفع الراية البيضاء شعار بني أمية (٤) .

(١) الماسوح : قرية قرب عمان تقع شرقي مادبا وهي مدينة حسان اليوم ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن عساكر ، تهذيب ابن عساكر ، جـ ٦ ، ص ١٢٥ ، ياقوت معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٥ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٩ ، ص ١١٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥٢٢ .

(٤) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

ويعود السبب في خروجه أن أحد الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها ، وفيها إما زوجته أو أخته ، فمنعته من النزول في داره ، فأقدم الجندي التركي على ضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها ، فأصاب السوط ذراعها فأثر بها . فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها ، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه ، فأخذ أبو حرب سيفه وقتل الجندي ثم فرّ إلى جبال الأردن ، وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف (١) .

أصبح المبرقع طريد الدولة حيث فرّ إلى جبال الأردن ، كان يظهر في النهار متبرقعاً جالساً فوق قمة جبل ، كلما مرّ شخص يراه يأتيه ، يحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويعيب الوالي العباسي ، ويعيب المعتصم واستجاب له من كان في تلك النواحي ؛ إذ استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى (٢) . وأكثر من كان معه من قبائل لخم وجذام وبلقين وعامله ، وهذه القبائل تشكل أكثرية سكان الأردن في ذلك الوقت (٣) .

ولإضفاء شيء من الشرعية على حركته ادعى بأنه أموي ، وأنه السفيناني المنتظر . وأراد من هذه السياسة أن يكسب مزيداً من الأنصار لحركته ، فتبعه كثير من الفلاحين الذين رأوا أنه سيخلص الناس من الظلم والإضطهاد التركي . (٤)

وجاءت هذه الأخبار إلى المعتصم في سامراء ، وهو على فراش المرض ، وهي أن ابتاعه قد كثروا ، وأغلبهم من أهل القرى ، واستجاب له من هذه القرى الواقعة في الأردن رؤوساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن ورجلان آخران من أهل دمشق ، فسير إليه قوات لا يزيد عددها عن مئة

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١١٦ ، ابن الاثير الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢٢ . .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١١٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢٢ ، ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٥٧٢ .

(٣) محمد خريسات ، تاريخ الأردن منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص ٩٨ .

(٤) صالح الحمارنة ، دراسات في تاريخ جنوب بلاد الشام (ثورة الفلاحين في فلسطين) ، ص ١٣٧ .

الف رجل بقيادة رجاء بن أيوب الحضاري لحربه ، وفضل رجاء قبل الإشتباك معه إلى التأكد من جيش المبرقع اليماني . فلما رأى رجاء كثرة أتباعه الذين قُدِّروا بمائة ألف رجل أجل مواقعه ؛ حيث علم أن معظم جنوده هم من الزراع والقرويين فأثر الانتظار في الرقة إلى حين موسم الحصاد حيث ينفذ من حول المبرقع هؤلاء الفلاحون منصرفين إلى زراعتهم ، فهاجمهم ، وقال لأصحابه : " ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره " (١) .

أما في دمشق فإن واليها موسى بن ابراهيم بن سابق الذي ولاه المعتصم دمشق عام ٢٢٧هـ / ٨٤١م (وكلفه بالتحقيق في نزاع على السلطة بين عامل الخراج رجاء بن أبي الضحاك ، وعلي بن اسحاق عامل المعونة في دمشق) وأدى التنافس بين الرجلين إلى أن قتل الثاني منهما الأول ، ولما وصلت الانباء إلى الخليفة المعتصم ، أمر الخليفة أبا المغيث والي دمشق بالنظر في هذه القضية (٢) .

ويبدو أن الأمور تطورت في اتجاه جديد حين أخذ الوالي خمسة من القيسية فضربهم بالسياط ، فحشدت قيس جموعاً منها وأغاروا على خيل الوالي وأوغلوا في البرية ، وسلك الوالي سبيل العنف خلال ملاحقتهم في سبيل استرجاع الخيل ، فترصدته اليمنية بمرج راهط واضطرتته إلى خوض القتال ، فخرج وقتل عدد كبير من جنده ، وإزاء ذلك خرج رجل يدعى ابن بيهس في جماعة من القيسية وأقبل نحو مرج دمشق ، وحاصروا الوالي والمدينة حصاراً شديداً ، فاغلق الوالي ابواب المدينة واعتصم داخلها . (٣)

ويبدو أن حركة القيسية كانت أكثر خطورة على العباسيين من حركة المبرقع اليماني نظراً لقربها من دمشق ، فأمر الخليفة الواثق رجاء بن أيوب الحضاري بترك المبرقع والتوجه إلى القيسية ، ثم العودة إلى المبرقع .

-
- (١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٥٣٤ .
 (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٤ ، ص ٢٤٣ .
 (٣) المصدر السابق نفسه .

ونزولاً عند رغبة الواثق توجه رجاء إلى دمشق ونزل دير مرّان (١) ، ثم شرع بمفاوضة الثائرين الذين حاصروا المدينة ، وأخذ رجاء يسألهم في الكف والعودة إلى الطاعة . ولم تفلح المفاوضات بينهم إزاء تغيب الفريقين ، والتجأ الفريقان إلى خوض معركة انتهت بهزيمة الثائرين . وتمكن رجاء من القضاء على الفتنة بدمشق ، وعاد إلى المبرقع فواقعه عدة مرات إلى أن أسره (٢) .

وثمة ملاحظات على ثورة المبرقع اليماني ؛ وهي أنها ثورة اجتماعية ضمت عدداً كبيراً من الفلاحين في فلسطين وشمال الاردن ومشارف منطقة حوران (٣) ، ولا شك أنهم كانوا يعانون من فداحة الضرائب وظلم الجباة في تحصيلها ، ورأوا في انضمامهم إلى المبرقع كمخلص لهم من الفقر والحاجة التي كانوا يعانون منها (٤) .

إن الصفة البارزة في ثورة الفلاحين في فلسطين ، هي أنها كانت ثورة ذات طابع اجتماعي واقتصادي ، واتخذت من الشعارات السياسية لبوساً بادعاء صاحبها أنه أموي ، وأن أصحابه آمنوا بأنه السفيناني المنتظر ، وأنه يدعو للمعروف وينهي عن المنكر ، وانضم إليه رؤوساء العشائر وكبار الملاكين على رأس هذه الثورة فصبغوها بالصبغة الشامية المنافسة لدولة بني العباس (٥) .

-
- (١) دير مرّان :هو دير قرب دمشق أقامه الرهبان ، تكثر به النباتات وزهور الزعفران ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة دير مرّان ، جـ ٢ ، ص ٥٣٣ .
- (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٠ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ١١٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥٢٢-٥٢٣ .
- (٣) انظر الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ١١٨ ، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٠ .
- (٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٩ ، ص ١١٨ .
- (٥) انظر صالح الحمارنة ، دراسات في تاريخ جنوب بلاد الشام (ثورة الفلاحين في فلسطين) ص ١٤٠ - ١٤٥ .

ويلاحظ في ثورة الفلاحين حجم الأعداد الضخمة من الفلاحين والمزارعين الذين اشتركوا فيها ، وأن قائد الثورة كان " في عالم من الخلق " (١) . تُرى من هم هؤلاء الفلاحين ؟ ومن هم سكان القرى الذي ثاروا ؟ إن اليعقوبي يجيب على هذه التساؤلات بوضوح تام يقول: " ووثب بفلسطين ... تميم اللخمي ... ويلقب بالمبرقع ، في لحم وجذام وعاملة وبلقين " (٢) ، وإن أتباعه كما يذكر الطبري من الفلاحين بتلك النواحي وأهل القرى ، وأن بعضهم من أرباب الأرضين " (٣) . فالفلاحون الذين ثاروا بقيادة المبرقع ، في لحم وجذام هم من أبناء القبائل العربية الذين استقروا ببلاد الشام وصاروا أصحاب القرى والعاملين في أراضيها ، وقد

تحولوا من دور المقاتلة إلى الاهتمام بالزراعة ، خاصة في العصر العباسي الأول (٤) .

فلا غرابة إذن أن نرى هذه الأعداد الضخمة من الفلاحين الذين اشتركوا في ثورة المبرقع اليماني في فلسطين ، والذين أصبح كسبهم يأتي عن طريق الأرض وزراعتها ، وأصبحت الأرض مصدر رزقهم الرئيسي . لذا أخذوا يطالبون بخفض الخراج عنهم ورفع الضرائب أو تخفيفها عن كاهلهم ، مما حمل المسؤولين على إعادة النظر في الضرائب المعمول بها خاصة الخراج ، والعمل على تخفيفه وترغيب الفلاحين على أن يبقوا في الأرض، ولا يغادروها (٥) .

وكما أن من أسباب ثورة المبرقع اليماني هو الاحتجاج على سياسة العباسيين وخاصة المعتصم التي اخذت سياسته تميل في تقريبه للتراك ، واستخدامهم بالجيش والإدارة بشكل كبير ، على حساب العرب .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١١٦-١١٧ ، اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ١١٦ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، العرب والأرض في بلاد الشام ، مؤتمر بلاد الشام الخامس ، ص ٢٥ - ٣٤ .

(٥) صالح الحمارنة ، دراسات في تاريخ جنوب الشام (ثورة الفلاحين في فلسطين) ص ١٤٣ .

وفي خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٦-٨٣١م) مر العديد من مدن الشام بفترة من أسوأ الفترات التي مرت بها في ظل الحكم العباسي ، حيث قامت ثورات عديدة في دمشق وحمص قمعها المتوكل بكل شدة وعنف بواسطة ولاية سيئين انتقاهم خصيصاً لهذه الغاية ، ومن أبرزهم سالم بن حامد ، وهو أعرابي وصفته المصادر بالعنف والظلم (١) . وقد توجه إلى دمشق ، وهو يحمل في صدره حقداً على أهلها بسبب ثارات قديمة يعود تاريخها إلى أواخر فترة الخلافة الأموية وأوائل الدولة العباسية (٢) .

ولقي أهل دمشق خلال ولايته معاملة سيئة ؛ فقد حاول إذلال أهلها لكنهم تكاثروا عليه وقتلوه ، وذلك عام ٢٣٦هـ / ٨٥٠م ، فغضب المتوكل على أهل دمشق غضباً شديداً ، وقرر أن ينهي هذه الثورة بشخص فيه صولة الحجاج ، فعين افريدون التركي قائداً للجيش ، وتوجه به إلى دمشق ، وكان المتوكل قد أباح له القتل في أهلها يوماً على ارتفاع النهار ، وأن ينهب ما فيها لمدة ثلاثة أيام ، وقبل وصوله إلى دمشق توفي إثر ركلة من دابته أصابته في صدره . وعادت قواته إلى العراق دون أن تدخل دمشق (٣) ، غير أن زيارة المتوكل لدمشق وإعجابه بها حمله على أن يعدل عن معاقبة أهل دمشق .

-
- (١) ابن عساكر ، تهذيب ابن عساكر لعبد القادر بدران ، جـ ٦ ، ص ٤٧ ، الصفدي ، امراء دمشق ، ص ٣٦ و ٤٧ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ ١٥ ، ص ٧٨ .
- (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ ، الطبري ، تاريخ ، جـ ٧ ، ص ٣٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ص ١٧-١٨ .
- (٣) ابن عساكر ، تهذيب ابن عساكر لعبد القادر بدران ، جـ ٦ ، ص ٤٧ ، الصفدي ، امراء دمشق ، ص ٣٦ و ٤٧ ، الصفدي ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي ، ص ٦٩ .

ولما كان عام ٢٤٤هـ / ٨٥٨م وصل المتوكل إلى دمشق بالشام ، وقد قرر أن يتخذ منها عاصمة له ، فنقل الداودين إليها والبناء بها (١) . وكانت سامراء أنشئت لتضم الأتراك بعد أن ضاقت بغداد بهم زمن المعتصم ، وقد ضاقت على المتوكل بحيث غدا عاجزاً عن فرض هيئته فيها بعد أن ازداد تمادي الأتراك فيها . وقد تحدث الطبري عن عظم ونفوذ القائد التركي إيتاخ ، الذي همّ مرة بقتل المتوكل، فيقول الطبري : " فخرج المتوكل ، بعدما استوت له الخلافة منتزهاً إلى ناحية القاطول ، فشرب ليلة فعربد على إيتاخ ، فهمّ إيتاخ بقتله ، فلما أصبح المتوكل قيل له ، فاعتذر إليه والتزمه ، وقال له : " أنت أبي وربيتي " (٢) .

وقد يكون عجز المتوكل عن تلبية المطالب الكثيرة للأتراك ، أو أن الجو العربي العام في بلاد الشام هو الذي أغراه بالانتقال إلى دمشق ، وجعلها عاصمة له بدلاً من سامراء خاصة وأن دمشق ليس للأتراك فيها أي نفوذ وقوة . فقد أراد المتوكل دمشق مقراً دائماً للخلافة ليجعل العرب عمادها وأعوانها (٣) . وقد أنشدت قصائد عديدة للمتوكل في جمال دمشق وغطتها ومياهها وهوائها ، ومما قيل شعراً على لسان الشاعر البحتري (٤) :

العيش في ليل داريا إذا بردا والراح نمزجها بالماء من بردى

ولما همّ المتوكل في السفر كتب إلى واليه على دمشق ، وهو أحمد بن المدبر يأمره باتخاذ القصور ، وإعداد المنازل ، وإصلاح الطرق . وكان المتوكل قد وصل إلى دمشق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م بعد رحلة شاقة استمرت سبعين يوماً ، ومعه كل ما يمثل أجهزة الدولة تمهيدا لجعل دمشق مركز الخلافة . (٥)

(١) اليعقوبي ، تاريخ جـ ٢ ، ص ٤٩١ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ٢٠٩ ، الصفدي ، تحفة ذوي

الالباب ، ص ٢٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٨٣ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٦٧ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١١٥ ، الريحاني ، تاريخ دمشق العمراني ، ص ٢٣-٥٤ .

(٤) البحتري ، الديوان ، ١٥١١/٣ ، محمد كرد علي ، غوة دمشق ، ص ٨٠ .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩١ .

ونزل المتوكل في قصر المأمون بين داريّا ودمشق ، وأبى أن ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها وما يرتفع من بخار مياهها ^(١). وكان القصر يقع على مرتفع من الأرض ، ويشرف على مدينة دمشق .

ولم يمكث المتوكل في دمشق سوى شهرين وأياماً (في فصل الشتاء) ثم قرر العودة إلى العراق دون مقدمات .

ويعزو المسعودي أن سبب عودة المتوكل المفاجئة إلى العراق إلى مؤامرة حاكها الأتراك بهدف اغتياله ، وأنها فشلت بسبب إخلاص أحد قادته وسهره على أمنه ، فعمد الأتراك إلى تدبير حيلة للإيقاع بين المتوكل وبين هذا القائد وهو بَغَا الكبير ، فدسوا للخليفة المتوكل رقاعاً يقولون فيها أن بَغَا الكبير يريد قتل الخليفة ، وكذلك دسوا لبَغَا رقاعاً أن مجموعة من الغلمان الأتراك سيفتكون بالمتوكل يوم كذا ، وحثوا على حراسة الخليفة من المؤامرة المزعومة ، ولما رآه المتوكل في الموعد المحدد أيقن أنه يريد قتله ، فاحترس منه لكنه لم يظهر عداوته ، فعاد المتوكل إلى العراق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م ، ولم يعلم كل منهم وجه الحيلة ^(٢) .

كما عزت مصادر أخرى عزوف المتوكل عن الإقامة في دمشق ، إذ لم يعجبه هواء دمشق لبرودته والماء فيه ثقيل ، وأن الريح تهب فيها عصاراً ، وأنها كثيرة البراغيث ، والأسعار فيها غالية ، وحال الثلج دون وصول الميـــــرة بسرعة ^(٣) .

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ١١٥ ، الريحاني ، تاريخ دمشق العمراني ، ص ٢٣-٥٤ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ١١٥ ، محمد الحصري ، منتخبات التواريخ لدمشق ، ج١ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) الطبري ، تاريخ ، ج٩ ، ص ٢١٠ .

هذا وقد كانت حاشية المتوكل وجنده ومرافقوه من الضخامة ، بحيث سببوا أزمة في المواد الغذائية ما أدى إلى ارتفاع أسعار الحاجيات وفقدان بعضها في دمشق ، فقد نقل الخطيب البغدادي عن علي بن يحيى المنجم عن أبيه قوله : " خرجنا مع المتوكل إلى دمشق فلحقنا ضيقة بسبب المؤن والنفقات التي كانت تلزمنا " (١) .

وباعتقادي أن السبب الرئيسي في عودته أنه لم يكن محبوباً من أهالي دمشق حيث كان قاسياً عليهم جباراً في القضاء على ثوراتهم ، فهو قائل " من لدمشق وليكن في صولة الحجاج " (٢) .

كما أن جنود الخليفة المتوكل قاموا بثورة عارمة في دمشق مطالبين بزيادة إعطياتهم، فجرّدوا سلاحهم ، وأخذوا برمي الشباب ، واستشار المتوكل رجاء الحضاري ، فأشار عليه بوضع الأعطيات للجنود تفادياً لامتداد الثورة ، وقام المتوكل بإنفاق المال ، فأعلن الرحيل إلى العراق . (٣)

وقد أتاح هذا إلى أن بدأ الأتراك يسيئون النية به ، فبدأوا يتآمرون عليه ، وهو في دمشق ، وأرادوا قتله لولا اختلافهم .

ولما عاد المتوكل إلى سامراء معقل الأتراك بعد خروجه إلى دمشق التي حاول أن ينقل مركز الخلافة إليها ، ولكنه فشل في ذلك . ورأى الأتراك أن وجوده في السلطة خطر عليهم ، فحاكوا له المؤامرات والدسائس التي انتهت بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ - ٨٦١م ، واعتلاء ابنه المنتصر عرش الخلافة وكان عهده عهد فوضى سيطر فيها القادة الأتراك على مقاليد الحكم ، وطال نفوذهم شخصية الخليفة، وأصبحوا يولون ويعزلون الأشخاص كما يشاؤون في عهد المنتصر والمستعين فيما بعد . (٤)

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ٧ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٣) انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ٢١٠ .

وهكذا قُدر لجميع الثورات التي قامت في دمشق بالفشل بالرغم من الانتصارات التي تحققت في البداية ، ولكن لم تلبث أن ينفطر عقدها ، فما هي الأسباب وراء ذلك :

١- افتقار هذه الثورات إلى القيادة الموحدة ، وافتقارها إلى التنظيم ، فلو قدر أن وجد اتفاق موحد بين قادة هذه الثورات على إعلانها في وقت واحد ، ولو توحدت هذه الجهود مع بعضها البعض تحت قيادة وزعيم ترتضيه كافة الفئات المتحاربة ، فلربما استطاعت أن تغير الظروف والأحوال التي عاشتها المدينة والمنطقة جميعها .

٢- كانت الإمدادات العباسية تتوالى دون انقطاع وذلك بهدف التعجيل بخنق حركات التمرد قبل أن يستفحل داؤها وتتسع لتعم المنطقة كلها ، وهذا ما حدث في ثورة أبي الورد مثلاً .

٣- العصبية القبلية ^(١) بين القيسية واليمانية ، إذ أن شدة التعصب كانت واحداً من الأسباب التي حالت دون نجاح الخطط التي استهدفت العودة إلى أمجاد الدولة الأموية، فتماسك القبيلة والتعصب لها وقف سداً دون الانصهار الاجتماعي وتكوين صف واحد أمام ما يواجهونه من ضيق وضنك العيش إثر الانتصار العباسي .

فقد أجهزت العصبية القبلية بما تحمله من أحقاد ومذابح بين الحيين على آخر أمل بمقاومة العباسيين في دمشق ، إذ حالت الانقسامات القبلية بين الطرفين في تكوين جبهة واحدة لمقاومة العباسيين المتحدين ، فكان لكل ثورة تقوم مصيرها الانقسام والفشل .

(١) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ج١ ، ص ١٣٥ .

إن كثيراً من الحركات التي قامت في دمشق والشام قد استلهمت أفكارها من الثورات الأموية ، ونسجت خطاها على وتيرتها ، ولأجل ذلك فإن العباسيين تعاملوا مع أهل الشام والأمويين فيها بشكل خاص بنوع من الحذر ، وعدم التهاون في القضاء عليها .

وقد انتبه الخلفاء العباسيون إلى ما تحمله هذه الثورات ، وما تسببه من خلخلة الأمن في البلاد ، فأصبحوا يعاملون أهل دمشق والشام بنوع من الحرص والشدة ، والضرب من حديد على من تسول له نفسه في العبث بأمن البلاد .

ولعل رسالة الصحابة لابن المقفع كانت بمثابة النصيحة والتحذير للخليفة المنصور بضرورة معاملة أهل الشام معاملة لين وعدل ، فيقول له : " فإنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالها وتدويخهم " (١) .

ومن ثم نجد ابن المقفع يتحدث عن أهل الشام بأنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة ، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ، فلا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . والواضح أن ابن المقفع أراد أن يحذر الخليفة من أهل الشام كونهم أهل الدولة السابقة ، وأن من الواجب على الخليفة أن يعاملهم معاملة لين ، فيقول : " كان العدل أن يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم ، أو

يزيد أو ينقص غير أنه يأخذ أهل القوة والغناء بخفة المؤنة والعفة في الطاعة ، ولا يفضل أحد منه على أحد إلا على خاصة معلومة " (٢) .

(١) ابن المقفع ، رسالة الصحابة ، ص ٣٥٦ .

(٢) ابن المقفع ، رسالة الصحابة ، ص ٣٥٦ .

كما يرى ابن المقفع بضرورة تخير أمير المؤمنين ولالة وعمال خيار من أهل بيته وغيره لأن ذلك يحقق العدالة ، ويمجد النظام في كافة الأجناد والثغور .

وحذر ابن المقفع من يأخذ عمال الخراج بالخرق والعنف والمغالة فإن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم . فاقترح على الخليفة أن يكون لها دواوين تسجل فيه الرساتيق والقرى والأرضين ، وما يأخذ منها من خراج وضرائب ، فإن ذلك حسم لأبواب الخيانة وغشم العمال (٢) .

وحذر ابن المقفع كذلك من أن يولي الخليفة الجند شيئاً من الخراج لأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، فإذا ما جلبوا الدراهم والدنانير اجتروا عليهما ، وما إذا وقعوا في الخيانة صار كل أمرهم مدخولا (١) .

وقد فهم الخليفة المنصور ما كانت ترميه هذه الرسالة من نصائح ، وأن ما قاله ابن المقفع حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهذا ما رسمه المنصور في سياسته تجاه بني أمية وعماله على الأقاليم ، فأخذ المنصور يتقرب إلى بني أمية ويلطف بهم ، فهو القائل : أن هيبة العباسيين لا تتم في قلوب الأمويين إلا باستعمال العقوبة ونسيان العفو (٣) . إلا أن هذه السياسة قد تغيرت بسبب تغير الظروف المحيطة به ، كما رأينا سابقاً .

وكان المنصور قد شرع في بعض الاصلاح فعلاً ، قبل أن يكتب الكاتب رسالته : من تخير العمال وتفقد أمورهم ، واستبدالهم . ولا بد أنه تفرغ للنواحي المالية بعد أن أزاح عن دولته الاخطار السياسية .

(١) ابن المقفع ، رسالة الصحابة ، ص ٣٥٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٤ .

فمن الإجراءات التي اتخذها المنصور تعديل أرض السواد إلى جانب اشرافه على احوال الدولة والرعية واهتمامه بالناحية الاقتصادية ، فقد ذكر ابراهيم بن موسى بن عيسى أن " ولاية البريد في الافاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم : بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكل ... وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث (١)

وظلت الشام مسرحاً للانقسامات القبلية والثورات التي أخذت منأى جديداً في الثورة بسبب انشغال القادة الأتراك في النزاع على السلطة في العصر العباسي الثاني .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ٢٩٩ .

العنوان:	أثر الحركات الفتن و الثورات في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في العصر العباسي الأول من سنة 132 هـ / 247 هـ / 750 م / 861 م
المؤلف الرئيسي:	الرقب، نائل عبدالحميد عبدالرحمن
مؤلفين آخرين:	خريسات، محمد عبدالقادر(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2003
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 239
رقم MD:	548579
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الحركات الثورية، الأحوال السياسية، العصر العباسي الأول، الأحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/548579

الفصل الثالث

أثر الحركات (الفتن والثورات)

في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية

* تمهيد

- ١- مصادر العباسيين للأموال .
- ٢- الخراج وجبايته .
- ٣- تراجع الأمن على الطرق التجارية .
- ٤- أثر الحركات على الأسواق .
- ٥- تأثير الفتن والثورات على خزينة الدولة العباسية .

الفصل الثالث

أثر الحركات (الفتن والثورات) في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية

أصبحت بلاد الشام منذ مطلع القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بحالة ركود اقتصادي استمر طوال هذا القرن ؛ وذلك بسبب فقدان دمشق مركزها السياسي إثر انتصار العباسيين ، وفقدان ما كان يدرّ عليها هذا المركز من غنى مادي وجبايات ، وحركة اقتصادية .

وكان لسياسة الخلفاء العباسيين أثر كبير في تأخر بلاد الشام اقتصادياً ، فلم تلقَ دمشق أي اهتمام من جانب الخلفاء ، بل على العكس فقد أهملت الشام وتركزت لمناحراتها القبلية يدمر بعضها بعضاً في الفتن والثورات (١) ، فزاد ذلك من الضعف الاقتصادي ، ومن تعطل القوى وإتلاف المزروعات ، وإحراق القرى والمتاجر مما أثر سلبياً على التجارة فزاد من تأخرها وتدهورها .

ولم يكتفِ العباسيون بما سببته سياستهم من تأخر البلاد اقتصادياً ، بل زادوا على ذلك بفرض الضرائب وإسقاط العرب من الديوان مما أدى إلى فقد كثير من الدمشقيين الكثير من مواردهم الاقتصادية ، وانعكس ذلك على أحوال الناس التي أخذت تسير إلى الوراء . (٢)

بالإضافة إلى ذلك فقد تعرضت دمشق إلى نكبات طبيعية من زلازل وجفاف ؛ فقد سببت الزلازل دمار كثير من القرى والمنازل ، وقتلت كثيراً من الخلق . وكان للأمراض تأثير على الناس ، إذ كثرت الأمراض وكثرت الثورات التي قامت للخلاص من الوضع المتردي ، وعمت الفوضى في البلاد ، وأصبح الوضع في الشام كله لا يحسد عليه .

(١) تم الإشارة إلى الفتن والثورات في الفصل الثاني من الدراسة .

ومع ذلك فقد عمل الدمشقيون على تنمية وتنشيط الوضع الاقتصادي لتعويض الفقر التجاري وللقيام بالحاجة السكانية المعاشية ؛ وذلك بالعودة إلى الإنتاج الزراعي المحلي بوصفه المورد الرئيسي للدخل ولكن الشكاوي من الخراج والضرائب وثقلها كانت حائلاً أمام تقدم البلاد اقتصادياً . (١)

وقد أدت سوء الأحوال الاقتصادية إلى انتشار قطاع الطرق الذين عرفوا بالزواquil والمتلصصة مسببين في اعتدائهم على الطرق التجارية في تأخير البلاد. وقطاع الطرق هم من الفئة الفقيرة المعدمة من عامة السكان ، أغلبهم من العاطلين عن العمل والمشاغبيين هم من هذه الفئة . والمهم في الأمر أن وجودهم على الطرق التجارية بهذه الصورة يزيد من خطورة الوضع الاقتصادي.

وكان للحركات والثورات التي قادها الفلاحون والحرفيون أثر على الموسم الزراعي والإنتاج ، إذ أدت إلى انشغالهم عن أراضيهم وحرفهم وإهمالهم لها الأمر الذي انعكس على الاقتصاد .

وقد كانت الثورات تعبيراً عن التذمر من الظلم الاجتماعي الذي كانت تعانيه هذه الطبقات . ومن المؤسف أن السلطات العباسية لم تلتفت إلى أسباب هذه الثورات بقدر ما كان جلّ اهتمامها منصّباً على زيادة الخراج والضرائب الأمر الذي تمخض عنه ثورات جديدة في كل مرة . (٢)

وقد تأثرت التجارة وحجمها في بلاد الشام في فترات الاضطرابات والحروب ، ولكن موقع الشام التجاري أبقي لها شيئاً يمكن الاحتفاظ به من تجارتها مع العالم الخارجي .

- (١) امينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٣٨ .
- (٢) رياض زركلي ، بلاد الشام منذ سقوط الدولة الاموية وحتى قيام الدولة الطولونية ، ص ١٢٩ .
- وعليه فقد عانت دمشق كغيرها من مدن بلاد الشام من جراء الفتن والاضطرابات القبلية والثورات ضد العباسيين الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى ، وبالتالي إفساح المجال لوقوع أعمال السلب والنهب والتي هي النتيجة الحتمية لانعدام الأمن ، وانعدام الأمن يضطر القوافل التجارية التي تخشى السلب إلى تغيير طرقها التجارية المعتادة إلى طرق أخرى أو استئجار حراس لحمايتها ، مما يؤدي إلى تزايد أثمان السلع والبضائع .

وسأتناول في هذا الفصل تأثير هذه الحركات على الأوضاع الاقتصادية في دمشق التي كانت مسرحاً للثورات طيلة أحداث العصر العباسي الأول ، وشكلت هذه الثورات ركيزة أساسية في سياسة دمشق تجاه العباسيين باعتبارهم معتصبي الخلافة والسلطة ، ولما لهذه الثورات من أثر على الوضع الاقتصادي في المدينة باعتبارها مركز بلاد الشام .

١ - مصادرة العباسيين للأموال :

لقد انتهجت الدولة العباسية سياسة المصادرات في قمعها للثورات وحركات المعارضة ، وتتوخى في ذلك عدة أهداف ؛ إذ إن للمصادرات من أهمية في دعم خزينة الدولة ، عن طريق الأموال التي كانت تصدر من حركات المعارضة ، إضافة إلى إضعاف حركات المعارضة مالياً واقتصادياً ، وبالتالي توفير الجهد على الدولة للقضاء على هذه الحركات نهائياً . وكان هذا الأسلوب إجراءً رادعاً لكل من يفكر في الخروج على سلطة الدولة ؛ إذ كان يترك من يخرج على سلطة الدولة بعد مصادرته صفر اليدين لا يملك شيئاً ، وبالتالي يفقد مكانته الاقتصادية في المجتمع وقد وجد الخلفاء العباسيون أن المصادرات وسيلة فعالة لاستئصال شأفة أي حركة تقوم ضدهم ، نظراً لأهمية الناحية الاقتصادية في نجاح أي حركة (١) .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٧ ، ص ٤٧٤ ، محمد شطناوي ، المصادرات في العصر العباسي ، ص ٨٩ .

وكان أول بدايات المصادرات منذ الدخول العباسي إلى الشام للقضاء على مركز الدولة الأموية آنذاك ، وهي دمشق . فقد انتقل جزء كبير من هذه الأموال والأمالك إلى العباسيين بعد إتمام السيطرة على الشام .

وكان الخليفة الأموي مروان بن محمد قد فقد جزءاً كبيراً من أمواله في معركة الزاب ؛ إذ نهبت أمواله من قبل الأمويين أنفسهم ، واستولى العباسيون على أمواله الباقية . وبعد انتهاء معركة الزاب انتقلت ملكية هذه الأموال إلى العباسيين ، وكانت تحتوي على خزائن هائلة من الأموال والجواهر الثمينة ، وقدراً كبيراً من المتاع (١) . واعتبرت هذه الأموال ملكاً خاصاً بالخليفة العباسي يتصرف بها كيفما شاء .

وقد أوردت كثير من المصادر أسماء الكثير من القطاعات الأموية المصادرة التي آلت ملكيتها إلى العباسيين ، فقد ذكر البلاذري عدداً من القطاعات والأراضي التي صادرها العباسيون منها الجبان والخست والريحية والسبين والشرقي في البطيحة (٢) ، وكذلك عباسان ونهر الفيض وبلوردا ورأس الأيل في البصرة والموصل . وكما ذكر البلاذري عدداً من القرى التي وقعت تحت الحكم العباسي ، مثل بالس التي كانت من ضياع مسلمة بن عبد الملك وتقع بين حلب والرقّة ، وكذلك الهني والمري في الرصافة وبوبلس وصفين وعابدين وقاصرين وصفين من قرى بالس ... (٣).

ولم تنقطع الملاحقات العباسية لأفراد بني أمية بمصادرة أملاكهم ، فيذكر ابن طباطبا : أن العباسيين قد بالغوا في استئصال شأفة بني أمية ، حتى قيل أنهم نبشوا قبورهم بدمشق واستصفوا أموالهم (٤) .

(١) مجهول ، العيون والحدائق ، جـ ٣ ، ص ٢١٩ .

- (٢) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٦٢ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٥٦ ، ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٥٢ وهي من الضياع الموجودة في منطقة البطائح بالقرب من البصرة .
- (٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٦ .
- (٤) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٥٢ .

وجاء في الأغاني أن الشاعر سديف بن ميمون مولى السفاح كان يحرضه على قتل بني أمية كما جاء في حادثة قلنسوة ، وكما قام صالح بن علي أثناء إقامته في فلسطين بقتل سبعين رجلاً من بني أمية ، وقام بالقبض على أموالهم وتتبع من بقي منهم (١) .

وقد اتبع الخليفة العباسي المنصور هذه السياسة في معاقبة من يخرج عليه، فكان عبدالله بن علي أول المصادرين الذين قام المنصور بمصادرتهم لخروجه عليه وطلب الخلافة لنفسه (٢) ، فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني فهزمه وأخذ ما وجد معه من أموال ومناج وخواهر وضعت في خزائن المنصور (٣) .

ويبدو أن المنصور كان قد أمر بمصادرة كل من خرج مع عبدالله بن علي أو أيده فجاء في العقد الفريد أن وفداً من أهل الشام ذهب إلى المنصور بعد هزيمة عبدالله بن علي فقال رجل منهم للمنصور : " يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة فأمر المنصور برد ضياعه عليه بالغوطة (٤) .

وكما أن والي فلسطين قد كتب إلى الخليفة المنصور يذكره بأن بعض أهلها وثب عليه ، واستغوى جماعة منهم ، فعاث في العمل ، فكتب إليه المنصور ، دمك مرتهن إن لم توجه به ، فصمد له العامل ، وأخذه ووجه به ، فلما مثل بين يديه ، قال : أنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين ؟ لأنثرن من لحكم أكثر مما تبقى على عظمك ؟ فقال ، وكان شيخاً كبيراً : العبد عبدكم والمال مالكم ، فخلى المنصور سبيله ، وعفى عنه ، وأحسن إليه (٥) .

(١) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٥ ، ص ٢٤٠ ، المنبجي ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، ص ١١٣-١١٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٧ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٩ .

(٣) ابن أعثم ، الفتوح ، ج ٨ ، ص ٢١٢ ، حسين فاضل العاني ، سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

وكان الخليفة العباسي المأمون مولعاً باقتناء التحف النفيسة ، فأمر واليه على دمشق بسرقة قُلة الجامع ، وهي إناء من بلور ونقلها إلى العراق ، فأدى ذلك إلى ثورة أهالي دمشق على الوالي منصور بن محمد المهدي ومطالبته بإعادتها ، واستجاب المأمون لهم ، وأعادها لهم (١) .

ولم يكتفِ العباسيون بأخذ الأموال من أهالي الشام ودمشق، بل أنهم قبضوا من الأهالي الضياع ، فصادر المنصور الكثير من الأراضي الزراعية التي كانت للأمويين وأعطاهم لأفراد عائلته والمقربين له . واعتبر الخلفاء العباسيون الضياع الأموية ملكاً وميراثاً لهم من الأمويين ، حتى أنهم استحدثوا ديوان الضياع لكثرة ما صودر من أملاك وضياع وأراضٍ ، لتكون مهمته الإشراف عليها . وفي ذلك أورد الجهشيارى " وقلد أبو العباس عمارة بن حمزه بن ميمون من ولد أبي لبابة ، مولى عبدالله بن العباس ضياع مروان وآل مروان (٢) .

وقد صادر العباسيون خزائن الأمويين بما حوته من جواهر وأموال ومتاع، حيث يذكر اليعقوبي أن عبدالله بن علي قام بعد قتله مروان بن محمد بنهب ما حوت عليه خزائنه وأمواله (٣) . وكما أورد المسعودي أن عبدالله بن علي هدم قصر مروان بن محمد في حرّان ، واحتوى على خزائن مروان وأمواله (٤) .

وقبضت في أول الدولة ضيعة الهني والمري في الشرقية ، وكانت لأولاد هشام بن عبد الملك ، وأعطيت لأم جعفر زبيدة (٥) ، كما قبضت صنيعة تدعى بقنس في البلقاء كانت لأولاد معاوية فأعطيت لأولاد المهدي (٦) ، وأخذ عبدالله بن علي بالس وقراها (٧) ، وكانت لأولاد مسلمة بن عبد الملك .

(١) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .

(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .

- (٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ ، الجيهشاري ، الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .
 (٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٦ ، ص ٢٧٥ .
 (٥) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٣١٥ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٤ .
 (٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .
 (٧) بالاس : بلد بالشام بين حلب والرقّة ، واتخذها مسلمة وطناً له ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ .
- ويذكر أن كثرة ما استولى العباسيون من ضياع أهل الشام أثرت على الجانب الاقتصادي للبلاد إذ فقد أهل دمشق والشام مصدراً رئيسياً لمعاشهم وأرزاقهم ، وشحت الموارد والأموال في ظل ارتفاع الأسعار (١) .

وقد اتسعت الضياع ، وضم إليها أرض واسعة سميت بضياع الخلافة وهذه الزيادة جاءت بطريق إحياء الموات أو الإلجاء أو الشراء (٢) ، وكان الناس يقبلون على اقتناء أراضي الشام لأنها أراض خصبة ، وتمتاز بمناخها المعتدل وأمطارها الوفيرة ، في ذلك سأل الرشيد أبا البختری في أين اتخذت لولدك (يعني أملاكاً) (أجابه بالشام وبساحل دمشق ، بحصن يقال له صيدا ، قال الرشيد : وكيف اتخذت بالشام ومأواه الفتن وفيه العصبية) ، فقال له : (أنه بلد أرضه طعام وسماءه ادم (٣)) . ويلاحظ أن الناس كانوا يختارون الأراضي المشرفة على الساحل أو القريبة من الماء لصلاحيتها للزراعة ، فينعكس ذلك على الإنتاج الزراعي وعلى رخص الأسعار . وأما بقية الأراضي فقد زرع فيها عدد كبير من المحاصيل الزراعية التي عرفت بها دمشق ، ولكن ليس كذلك التي في الأراضي القريبة من الماء .

وقد أدت المصادرات إلى تأثير كبير على القوى الاقتصادية المختلفة ، فقد أدت إلى كساد البضائع في الأسواق بعد أن قل الطلب عليها ، فالعامة لا يستطيعون شراء المستلزمات الضرورية لهم من الأسواق ، فيضطر فقراء الرعية الحصول على الأموال بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة ، وبذلك يضطرب الأمن وتنتشر السرقات مما يؤثر على استقرار الدولة (٤) .

- (١) الجهيشاري ، الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .
- (٢) انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٥٦ وما بعدها ، الرئيس ، الخراج والنظم المالية ، ص ٣٨٢ .
- (٣) ابن عساكر ، مصورة ابن عساكر ، ج ١٧ ، ص ٤٦٤ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠١ .
- (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ٤٦٠ .

وقد اثرت المصادرات سلبياً على العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع ، وفشت البطالة وكلّ الناس العمل وتقاعسوا عن الكسب ، نتيجة لشعور الناس بالظلم ، مما دفع بالكثيرين إلى محاولة الهرب بأموالهم ، والتظاهر بالفقر ، وأدى ذلك في النهاية إلى قيام ثورات اجتماعية كبيرة في معظم الأحيان ، ويبين ابن خلدون أثر المصادرات على الناس بقوله : " أما أخذ أموالهم مجاناً والعدوان على الناس في أموالهم ، وحرمتهم ودمائهم وأسرارهم ، وأعراضهم ، فهو يقضي على الخلل والفساد دفعة واحدة ، وتنتقص الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضي إلى الانتقاص ^(١) وهذا الخلل الذي أشار له ابن خلدون جاء نتيجة لعدم الوضع الاجتماعي ، والخلل في العلاقات بين أفراد المجتمع والفساد قصده ابن خلدون يأتي نتيجة المصادرة فالخوف بين المصادرة يؤدي إلى اكتناز الأموال خوفاً من مصادرتها ، ويؤدي إلى انتشار القلق على الأموال وضعف الروابط الاجتماعية بين الناس ، نتيجة السعاية ، وتؤدي المصادرة إلى ارتفاع الاسعار وعدم الحصول على مستلزمات الحياة بالطرق المشروعة . (٢)

ولم تقتصر مصادرة العباسيين للقطائع الأموية من أراضٍ وقصور على الخليفة العباسي وحده بل أخذ في تفريق القطائع على أفراد الأسرة العباسية ، وخص تابعيهم ممن قدموا خدمات جليلة للدولة ، ويورد الأزدي سنة ١٣٩هـ/٧٥٨م أسماء أشخاص قدموا خدمات جليلة للدولة مثل وائل بن الشجاع الأزدي في الموصل ^(٣) .

والجدير بالذكر أن معظم الفقهاء قد حرّم مصادرة الأملاك (أملاك الأمويين) ؛ فقد أورد الصولي عن الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م) قوله : (بعث إليّ عبدالله بن علي فقدمت عليه والناس قيام فقال ، يا عبد

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ، ص ٨٥٥ - ٨٥٦ .

(٢) محمد شنطاوي ، المصادرات في العصر العباسي ، ص ٢١٨ .

(٣) انظر نص الإقطاع ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٥٩ .

الرحمن الأوزاعي ما تقول في أموال بني أمية ؟ فاستعفيت ، فقال : لتخبرني ، فقلت : إن كانت لهم حلال فهي عليكم حرام ، وإن كانت لهم حرام فهي عليكم حرام (١) .

وكذلك حرّم عبادة بن كثير (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م) تلك الأموال على العباسيين ؛ إذ قال عبادة للمنصور (أتؤمن بالله ؟ قال نعم : قال : فحدثني عن الأموال التي اصطفيتموها من أموال بني أمية ، فوالله لئن كانت صارت إليهم ظلماً وغصباً لما ردتموها إلى أهلها الذين ظلموا وغصبوا ، ولئن كانت الأموال لهم لقد أخذتم ما لا يحل ولا يطيب) (٢) .

وكذلك حرّمها علي بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١٤٥ هـ / ٧٦٣ م) فقد حرّم ما صودر للأمويين من قبل العباسيين لدرجة أنه كان يرفض أن يشرب من عين مروان كونها عيناً مصادرة ، وما جاء في مقاتل الطالبين يؤيد ذلك (٣) .

الخراج وجبايته :

كان الخراج مورداً رئيسياً لبيت مال المسلمين في الدولة الإسلامية ، وعليه حرصت كل دولة إسلامية على ضرورة إبقاء هذا المورد باعتباره الركن الأساسي لخزينة الدولة في سبيل تحقيق توازن بين موارد الدولة ومصروفاتها .

وكان ديوان الخراج هو الرافد الأساسي للخزينة الأموية التي كانت ملأى بالأموال والمتاع ، وبالرغم من الأحداث والنزاعات التي عصفت بالدولة الأموية

في أواخر عهدها ، فإن ما جمع في عهد الخليفة مروان بن محمد من خراج الشام بلغ قدراً كبيراً من الدنانير . (٤)

(١) الصولي ، اشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (الأوراق) ، ص ٣٠٣ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٣٨ ، ص ٢٢٢ .

(٣) الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ١٩٠ .

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

وفي العصر العباسي انتقلت الدواوين من دمشق إلى بغداد ، وأصبحت دواوين الشام دواوين محلية تابعة للديوان الرئيسي في بغداد ، فأصبح ديوان خراج الشام يتبع الديوان الرئيسي في العراق .

وقد تولى الخراج في العصر العباسي للسفاح خالد بن برمك (١) ، وكان هذا الديوان يشرف على أمور الخراج في جميع المناطق التابعة للدولة ، فكان خراج الشام يجمع من قبل أشخاص يعينهم الولاة العباسيون على اجناد الشام . (٢)

وقد حصل العباسيون في أول دولتهم على قدر كبير من الأموال من تلك التي أخذوها من أهل الشام عامة والأمويين بشكل خاص ، هذا بالإضافة إلى الأرض التي انتقلت إلى العباسيين بعد دخولهم بلاد الشام .

وأما الخليفة المنصور فقد نظم أمور الدولة الإدارية والمالية ، فأعلن أنه سلطان الله في الأرض ، وأنه صاحب المال والتدبير فيه ، يعطيه بحقه ويقسمه بإرادته (٣) ، فأعطى المنصور اهتمامه لجميع البلاد ، وأشرف على أمورها المالية ، فأنشأ ديوان خراج الشام (٤) ، كما أنه بعث رجلاً إلى دمشق لتعديل مساحتها (٥) ، واهتمام المنصور بالخراج نبع من حاجته للأموال لمواجهة الحركات التي قامت ضده طوال خلافته ، وكان أبرزها حركة عبدالله بن علي بالشام ، وحركة محمد النفس الزكية في المدينة ، ثم لحاجته للأموال لبناء المدن وتحصين الثغور في الشام .

(١) خالد بن برمك الفارسي (ت ١٦٥ هـ / ٧٨١ م) ، أنظر : الطبري : تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٤٦٧، ٤٦٠ ، ابن عساكر م ٥ ، ص ٤١٣-٤١٤ ، الذهبي : سير ، جـ ٧ ، ص ٢٢٩ .

(٢) بيطار : الحياة السياسية ، ص ٣١٨ .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ق ٣ ، ص ٢٦٨ ، ابن عساكر ، : تاريخ دمشق ، م ٣٨ ، ص ٢١٣ .

(٤) الجهشيري : الوزراء ، ص ٧٧ .

(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ص ٣٩٢ .

وكان المنصور يولي خراج الشام لأهلها فولاهما لعبيدالله بين زياد (١) ،
واحمد بن مهاجر الذي تولى بيت المال للمنصور أيضاً (٢) ، ووجد في عصر
المنصور جماعة شاميين تولوا أموراً مالية له ، كهشام بن الغار الدمشقي الذي
ولاه المنصور بيت المال وكان من علماء الشام (٣) ، وكذلك ولى خزانة الكسوة
لإسماعيل بن عياش الحمصي الذي كان إماماً حافظاً (٤) ، وقد أراد المنصور من
تولية أهل الشام خراجها ، سهولة إشرافهم عليها ، وبدافع معرفتهم بالمنطقة ،
وتقدير أمورها المالية ، كما أن ذلك أقرب إلى نفوس أهل الشام .

واختيار المنصور رجلاً من حمص لتعديل مساحة أرض دمشق (٥) ، يدل
على هذا الأمر ، وسارت سياسة المنصور في معاملة أهل الشام بجباية الخراج
باللين والتسامح ، فقد أوصى عمال خراجه على الشام أن يعاملوا أهلها معاملة
حسنة في جمعه ، وحذرهم من التشدد في ذلك (٦) ، وكان إذا رأى ظملاً من قبل
عمال الخراج على الناس يقوم بعزلهم ، فعزل أخاه العباس بن محمد بن علي عن
الجزيرة نتيجة ظلمه لأهلها (٧) ، كما عزل عن فلسطين واليهما الذي شدد على
أهلها بالضرائب وهو عبد الوهاب بن إبراهيم (٨) .

-
- (١) ابن حمدون : التذكرة ، مخطوط ، و ٧٣ أ ، ماجد : " الضياع الأموية في الشام " ، ص ٤ .
(٢) أبو زرعة : تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .
(٣) الذهبي : سير ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، الذهبي : العبر ، ج ١ ، ص ١٧٠ .
(٤) خليفة : تاريخ خليفة ، ص ٨١١ ، الذهبي : سير ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ ، ابن كثير : البداية ، ج ١٠ ، ص ١٨٦ ، اسماعيل بن عياش بن سليم أبو عتبة العنسي ، توفي سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م (ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج ٢٦ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥) .
(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، م ٣ ، ص ٣٩٢ .
(٦) الطبري : تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ٦٧ .
(٧) ابن ثغري بردي : النجوم ، ج ٢ ، ص ٢٤ .
(٨) الجهشباري : الوزراء ، ص ١٣٧ .

وعبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي (ت ١٥٨هـ / ٧٧٤م)
مؤلف من القرن ٣هـ : أخبار الدولة العباسية ، ص ٤١٤ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٣١ ،
ابن عساكر : تاريخ دمشق ، م ١٠ ، ص ٥٩٠ - ٥٩٢ .

وهذه السياسة تخالف ما أورده المنبجي في تاريخه من أن المنصور أثناء إحدى زيارته لبيت المقدس شدد على الناس بالخراج فلحقهم بسبب ذلك مصاعب كثيرة (١) .

ولم أعثّر في المصادر التاريخية - التي اطلعت عليها - التي تحدثت عن زيارات المنصور لبيت المقدس ، ما يشير إلى أن المنصور فعل ذلك ، مما يشكك في هذه الرواية التي انفرد المنبجي بروايتها .

أما عمال المنصور على الشام فقد وجد منهم من كان يتشدد في الخراج والجباية على أهلها ، فاشتكى أحد رجال أهل الذمة في البقاع للأمام الأوزاعي ظلم عامل الخراج له ، كما أن أهل بعلبك أيضاً عانوا من ظلم عامل الخراج لهم وتشدده عليهم بالضرائب ، وهذا الظلم من قبلهم قابله أهل الشام بالثورة والخروج على الدولة ، فخرجوا على عامل خراج بعلبك وقرروا قتله . (٢)

وقد أدت هذه الحركات إلى تدهور الجباية ونقص الأموال ، لأن الثائرين كانوا يمنعون الخراج عن الدولة (٣) ، وهذا ما حصل في خروج أهل بعلبك على العباسيين في لبنان (٤) ، أو ما حصل في حركة عبدالله بن علي في الشام والتي منع فيها الخراج من الوصول للدولة العباسية . (٥)

(١) يذكر المنبجي أن المنصور زار مرة بيت المقدس ، ففرض ضرائب على الناس لم يسبقه فيها أحد " فلم يبق إنسان من صانع ولا حمّال ولا حفّار القبول ولا فلاح ولا متصرف من صنوف الناس حتى ألزمهم الخراج وأخذ أموالهم ، واشتد البلاء بالناس وبلغ الجهد حتى أن بعضهم حفر القبور وأخذ الجيف وطحنها وأكلها ، وذبحت الكلاب وشويت وبيعت في الأسواق ، وفنيت الدراهم من بين أيدي الناس ، ولحقهم من البلاء ما لا يوصف " ، المنبجي : المنتخب من تاريخ المنبجي ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٦ .

(٣) خليفة : تاريخ خليفة ، ص ٤٥١-٤٥٢ ، بيطار ، أمينة : " الحياة الاقتصادية في الشام بين سنتي (١٣٢هـ-٢٥٩هـ) " ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، عدد ٣ ، ص ١٣٠ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٦ .

(٥) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

أما المهدي فقد نهج نهج والده المنصور ؛ إذ خفف الخراج عن أهل البلاد ، وكتب إلى العمال برفع العذاب عنهم واللين في معاملتهم ، وهدد عمال الخراج بالعزل إذا ظلموا الناس . وكان المنصور قد أدخل نظاماً جديداً في جباية الخراج ، فبعد أن كان الخراج يؤدي على حسب المساحة ، بصرف النظر عن نوع المحصول وطرق الري ، قرر المنصور إدخال نظام المقاسمة ، وبمقتضاها كانت الدولة تقاسم المزارعين المحصول بنسب معينة بغض النظر على مساحة الأرض . وقد حدد المهدي نسبة المقاسمة بمقدار نصف المحصول ، وأشار الماوردي لهذا التغير الذي طرأ في الدولة بقوله : " ولم يزل السواد على المساحة والخراج إلى أن عدل بهم المنصور في الدولة العباسية عن الخراج إلى المقاسمة " (١) .

أما البلاذري فيشير إلى أن الناس سألوا السلطان في آخر خلافة المنصور المقاسمة ، إلا أن المنصور قد مات قبل ذلك " فقبض قبل أن تقاسموا " (٢) ، ثم أمر المهدي بها فقاموا فيها . والمنصور ليس هو الذي أحدث التعديل ، ولكن المهدي هو الذي أمر بذلك ، وقد قرر الماوردي نفسه ذلك في آخر عبارته ؛ فتجب نسبة هذا التغيير إذن إلى المهدي وعهده ووزيره أبي عبيد الله .

وقد اختلفت آراء الفقهاء بين مؤيد ومعارض لنظام المقاسمة ؛ فقد أيده أبو يوسف واعتبره حلاً مناسباً لمشاكل الجباية ، واعتبره كذلك أفضل نظام ينبغي العمل به ؛ لأنه يكفل تحقيق مصلحة كل من الدولة والشعب (فلم أجد أوفر على بيت المال ، ولا أغنى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم ، وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج راحة) (٣) . وكما أيده الماوردي إذ رأى إجازة تغييره إلى المقاسمة لسبب طارئ . أما القاضي أبو يعلى فيشترط وجود سبب يدعو إلى المقاسمة (أو حادث اقتضاه اجتهاد الأئمة) (٤) .

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٦٨ .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) أبو يعلى طبقات الحنابلة ، ص ١٨٦ ، ابن رجب الحنبلي ، الاستخراج لأحكام الخراج ، ص ٢٧١ .
 أما عهد الرشيد فكان نموذجاً في جمع الخراج وانتظام الجباية ؛ إذ أن الرشيد لما تولى الخلافة رغب أن يخفف عن رعيته وأن يحكم بالعدل وفقاً لما رسم الشرع الحنيف، ولا سيما في شؤون المال . فوجه رسالة إلى قاضيه أبي يوسف ، محتوية على أسئلة عن كل ما يختص بالخراج طلب الإجابة عنها ، فكانت نتيجة ذلك أن ألف أبو يوسف لنا كتابه الخراج . (١)

وهذا الكتاب يعد من أعظم كتب الفقه الإسلامي المختصة ببيان أحكام الخراج ، وكما يعد وثيقة تاريخية هامة للعصر الذي كتب فيه ، وهو العصر العباسي ، ويصور الكتاب بعض الأحوال عندما تولى الرشيد الخلافة ، ولكن في صورة أوضح ، ومن وجهة نظر الفقيه ، فأبو يوسف يسجل عدداً من المساوئ التي بلغه نبأ وجودها ، يذكرها ليندد بها ، ويستنكرها ، ويهيب بالخليفة أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل محوها ، مقترحاً عليه الطرق العملية للإصلاح ، وأكثر هذه المساوئ يتعلق بظلم العمال لأهل الخراج ، ومطالبتهم بما ليس واجباً عليهم ، وتعذيبهم من أجل الجباية ، فيقول أبو يوسف " ورأيت أن تتخذ قوماً من أهل الصلاح والدين والأمانة ، فتوليهم الخراج (٢) . وجاء تحذيره من طرق جباية الخراج لما فيها من هلاك لأهل الخراج وخراب البلاد ، إذ رأى أن أعوان العمال أحياناً يطالبون بأجور خاصة ، فإن لم يعطهم المزارعون ضربوهم وعسفوهم وساقوا البقر والغنم ، ومن أمكنهم من ضعفاء المزارعين ليأخذوا ما يريدون ظلماً وعدواناً " (٣) .

ونهى أبو يوسف عن نظام التقبل (الالتزام) ، وقد حمل أبو يوسف عليه بشدة لأنه يؤدي إلى ظلم الفلاح . وكان هذا النظام شديداً على أهل الخراج ؛ وفيه يعمل المقطع أو الملتزم على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد في إرهاب الأهالي وإتقالهم بالضرائب المختلفة ، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ، ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك (٤) .

- (٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٦ . .
 (٣) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٦ ، الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٢٠٧ .
 (٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٦ . حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ ، غيداء خزنة كاتبي ، الخراج ، ص ٣٤٠ .

وقد شهد عصر الرشيد زيادة في نسبة الضرائب المفروضة ، وزيادة الجباية على الناس ، وقد ورد إلى خزنة الدولة في عهد الرشيد مبلغاً كبيراً من المال ، ولا يعني كبر المبلغ أن البلاد كانت مزدهرة في عصر الرشيد فقد أصبحت مدينة دمشق جرداء بعد أن كانت تحيط بها الأشجار والثمار والمياه بسبب زيادة الضرائب التي أرهقت أهالي الشام كله ، مما أضطر أصحاب الأراضي الزراعية إلى ترك أراضيهم وهجرتها . (١)

وكما أن العصبية القبلية المتمثلة بثورة أبي الهيثم سنة ١٧٠هـ ، وما سببته هذه الفتنة بأحداثها من قتل وحرقت ونهب ساهمت في نقص في واردات الدولة القادمة من الشام ، فعملت الدولة على زيادة الضرائب وطرق الجباية ، فأرهقت بذلك الأهالي ، وزادت من تأخر البلاد .

وكان للصراع بين الأمين والمأمون دوراً في خفض نسب الجباية، فقد خرجت معظم مناطق دمشق والشام عن طاعة العباسيين ، فلم يدفعوا الخراج . وبلغ الأمر إلى منع المتنفذين من وصول الخراج إلى العباسيين كما فعل نصر بن شبث في الجزيرة سنة (١٨٩-٢٠٦هـ/٨١٣-٨٢١م) علماً بأن الجزيرة ترفد الدولة بمبلغ كبير من المال . (٢)

وكان للنفقات التي أنفقتها الدولة للقضاء على الحركات التي قامت في الشام أثناء فترة الصراع بين الأمين والمأمون أثر كبير في انخفاض نسبة الجباية وقلة المال ؛ إذ لم يبق في بيت مال المسلمين درهم واحد لكثرة الفتن والثورات صاحب ذلك تعرض الشام إلى الجفاف والآفات الزراعية والأوبئة (٣) .

- (١) امينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٢١ ، بيطار ، الحياة الاقتصادية في الشام ، ص ١٣٠ .
 (٢) ابن أعثم ، الفتوح ، ج ٨ ، ص ٣١٣ ، طلاس ، تاريخ الأمة العربية ، ص ١٥٠ .
 (٣) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٣ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، م ٤ ، ص ٣٢ .

ومن أجل تعديل اوضاعه تلك ، فقد لجأ المأمون إلى إجراءات هامة في الخراج وجبايته ، فأرسل رجلاً إلى دمشق من أجل تعديل مساحة أرضها ، وإعادة تنظيم خراجها ، كما أنه أرسل إلى واليه على الشام بفرض الأموال على اجنادها (١) ، وهذه الإجراءات عدلت الأوضاع فتحصل على مبلغ كبير من هذه المنطقة . (٢)

وبالرغم من قلة المال وانخفاض الجباية عند المأمون إلا أنه لم يشدد على أهل الشام وغيرهم في الخراج عن أجناد الشام وأهلها (٣) وسار عماله على نهجه ، فكان عبدالله بن طاهر - والي الشام - يكتب لعمال الخراج أن : "... يعطوا القوت لمن أصبح من الزراع ضعيفاً ، ويكونوا إلى جانبه . (٤)

وفي عهد المعتصم انخفض خراج بلاد الشام ، وخاصة دمشق إلى أكثر من النصف ، ويعود ذلك إلى الظلم الفاحش والعسف الذي لحق بدافعي الضرائب من جراء جور الحكام وبطشهم بالناس ؛ لاستنزاف جميع موارد أرضهم ، وسواها مما يملكون لسداد المبالغ التي دفعها الولاة جراء التزامهم الولاية من جهة ، ولجمع ما يستطيعون جمعه من أموال لأنفسهم من جهة أخرى ، وكان المعتصم قد اتخذ الأتراك وعينهم للإشراف على أمور الدولة الإدارية والمالية ، وقد أفسد الأتراك شؤون الخراج ، واتبعوا سياسة ظالمة حتى أن المعتصم جمع ورائه مبالغ طائلة مما يدل على انتظام جباية الخراج في الدولة (٥).

- (١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٨ ، ص ٦٣١ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢١٨ .
- (٢) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٦ ، ص ٤٦٨ .
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٨ ، ص ٤٤٦ .
- (٤) مسكوية ، تجارب الأمم ، جـ ٦ ، ص ٥٦٦ .
- (٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٩١ .

وأما في عهد المتوكل فقد اتسع نظام التقبل أو الضمان ، حتى أصبح بعد ذلك هو النظام السائد ، وهو الذي أصبح يسمى نظام الالتزام . وأجرى تعديلاً آخر سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م ، وأوكل المتوكل لأحمد بن المدبر بإجراء هذا التعديل ، فجمع ابن المدبر الفقهاء والعارفين بشؤون الأرض ، واستوعب أحكام الأرض من المشيخة . وقام بإجراء تعديل في الشام ، ولكن هذا التعديل بقدر ما كان منصفاً وفق ما أراده ابن المدبر إلى أن فيه ظلمات وقعت على بعض أصحاب الأراضي لسهوا وتسامح معاوني بن المدبر ، لكن المتوكل وجد لها الحل أثناء زيارته إلى دمشق (١) .

ونرى من كل ما تقدم كيف أن الدولة لجأت إلى نظام التعديل ظناً منها أنه يقرب المسافة بين تطلعات الدولة وآمال الفلاحين ، ولكن التعديل مرهون بالتطبيق ، فإما أن يشتط العمال فيه فيعمل إلى ناحية الجور ، وإما أن يقتصدوا فيه فيميلوا به إلى ناحية الإنصاف (٢) .

وثمة ملاحظات على مقادير الخراج وجبايته ؛ وهي أن الضرائب بأنواعها كانت تختلف من وقت لآخر ، وذلك حسب الزمان والأحوال ، وأن نظرة إلى أرقام مقادير الخراج الذي كان يجبي من الشام تمثل لنا بوضوح ما كانت تتلقاه الخزانة المركزية من هذه الضرائب .

والناظر إلى قوائم الخراج (٣) يجد أنها قوائم مفصلة كاملة تبين مقادير الخراج التي كانت تجبي من مختلف الأقاليم في أوقات مختلفة ، بل تبين أيضاً أنواع العروض إلى جانب المبالغ النقدية ، وبذلك يمكن - بالتحديد - تقدير

مجموع الخراج العام الذي يجبى من الدولة كلها ، وهو الذي يمثل ثروة الدولة العباسية . وتبين هذه الوثائق حالات الخراج بالتفصيل ، في مدى نصف قرن أو أكثر ، أي من عهد الرشيد إلى عهد الواثق أو المتوكل .

- (١) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٢٢ .
 (٢) احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٩ .
 (٣) انظر إلى قوائم الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٧ ، (القائمة) ، وانظر إلى قائمة ابن قدامة (الخراج وصناعة الكتابة) ، ص ١٨٣ ، وانظر قائمة ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ص ٤٢،٤٣ .
 وقد ترك لنا المؤرخون تقديرات لما كان يحمل من الضرائب إلى بغداد ، تعطينا فكرة واضحة عن الأوضاع الاقتصادية في المنطقة ، وأول قائمة وصلتنا من قوائم العصر العباسي هي القائمة التي أوردها الجهشيارى ، وهي التي عرضت على يحيى البرمكي ، وتتص في جملة ما تتص على ما كان يحمل من الشام إلى بيت المال في بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد .
 وفيما يلي تقديرات وارد الشام كما جاءت في القوائم (١)

المدينة	ابن الفقيه	الجهشيارى	ابن خلدون	خليفة بن خياط
دمشق		٤٢٠,٠٠٠ دينار	٤٢٠,٠٠٠ دينار	٤٠٠,٠٠٠ دينار
الأردن		٩٦,٠٠٠ دينار	٩٧,٠٠٠ دينار	٩٠,٠٠٠ دينار
حمص		٣٢٠,٠٠٠ دينار	—	—
قنسرين		٤٩٠,٠٠٠ دينار	٤٠٠,٠٠٠ دينار	٤٣٠,٠٠٠ دينار
فلسطين	٣٦٠,٠٠٠ دينار	٣٢٠,٠٠٠ دينار	٣١٠,٠٠٠ دينار	١٩٠,٠٠٠ دينار

وتضمنت قائمة ابن الفقيه ، مقدار ارتفاع المواد العينية من جميع أجناد الشام كالزيت ٥٠٠,٠٠٠ رطل ، والتفاح ٢٠٠,٠٠٠ تفاحة

ومن خلال مقارنة الأرقام المعطاة في القوائم المذكورة نجد أن ابن خلدون أعطى أرقاماً مشابهة قد تصل إلى حد التطابق مع الأرقام الواردة عند الجهشيارى، وأرقاماً إلى حد التشابه عن ارتفاع وارد الأردن وفلسطين وقنسرين ، علماً بأن قائمة ابن خلدون تعود إلى عهد المأمون .

وكما تعطينا قائمة الجهشيارى مجموع ما جمل من الشام إلى بيت المال في عهد الخليفة هارون الرشيد حيث بلغ مليوناً وستمائة وستة وأربعين ألف دينار ، وهو مبلغ كبير ، يدل على أن خراج الشام في عهد الخليفة هارون الرشيد ، كان قريباً جداً مما كان عليه في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، حيث كان الخراج مليوناً وثمانمائة ألف دينار (٢).

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٦-٢٨٧ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٤٩-١٥١ ، خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٥٦٠-٥٦١ .

(٢) أمينة البيطار ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، ص ١٢٦ .

ومع ذلك فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن الوضع الاقتصادي في الشام كان في هذه الفترة مزدهراً ، خاصةً إذا علمنا أن هارون الرشيد قد عاقب واليه على الشام لأنه جعل من دمشق التي كانت جنة خضراء ومنطقة جرداء (١) ، كما أن أهالي فلسطين تركوا أراضيهم في عهده لتتعدد عماله في جباية الأموال ... (٢)

وبالتالي يمكن القول بأن ارتفاع جباية الخراج في عهد الخليفة هارون الرشيد ، يمكن أن يرد إلى ارهاق الأهالي بالجباية .

وهناك قائمة أخرى أوردها قدامة بن جعفر (٣) ، إذ قدم فيها تقديراً لوارد أجناد الشام سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ، وجاءت على النحو التالي :

جند دمشق	١١٠,٠٠٠ دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠ دينار
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠ دينار
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠ دينار
جند قنسرين	٣٦٠,٠٠٠ دينار

ومما يلاحظ على هذه القائمة أنها أقل بكثير من القائمة التي جاءت في عهد الرشيد ، إذ حدث تراجع ملحوظ في وارد دمشق والأجناد الأخرى ، ويبدو أن تراجع الوارد أمراً طبيعياً أمام الاضطرابات التي أعقبت أزمة العهد بين الأمين والمأمون ، كذلك الأمر بالنسبة لدمشق أثر انتهاء فتنة أبي الهيثم ، وما رافقها من تخريب وتدمير وحرقت لمعظم قرى الغوطة ، وبالتالي تراجع واردها العام . (٤)

(١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ .

(٢) أمينة البيطار ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، ص ١٢٦ .

(٣) قدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ١٨٢-١٨٣-١٨٤ .

(٤) غيداء كاتبي ، الخراج ، ص ٤٢٠ .

وهناك قائمة أخرى أوردتها ابن خلدون (١) عن الجباية في عهد المأمون ، ويحتمل أن تكون هذه القائمة قد سجلت جباية الشام بعد أن استقرت أمورها للمأمون . ويحتمل أن تكون هذه القائمة قبل سنة ٢١٨هـ - ٨٣٣م وهي سنة وفاة المأمون (٢) .

وتدل قائمة الجباية التي وردت في أيام الخليفة المعتصم عن انخفاض خراج الشام عما كان عليه في عهد المأمون ، وبشكل خاص في دمشق التي انخفض خراجها من اربعمائة وعشرين ألف دينار إلى مائة وعشرة آلاف دينار أي إلى الربع ، وكذلك فلسطين ، بينما ارتفعت الجباية في الأردن قليلاً ، ويبدو أن انخفاض الجباية في دمشق وفلسطين كان بسبب ثورة المبرقع اليماني التي قامت في فلسطين (٣) ومما جاء في القائمة ما يلي :

جند دمشق	١١٠,٠٠٠ دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠ دينار
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠ دينار
جند قنسرين	٣٦٠,٠٠٠ دينار (٤)

-
- (١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٤٩-١٥١ .
 (٢) امينة البيطار ، الحياة الاقتصادية ، في الشام ، ص ١٢٦ .
 (٣) غيداء كاتبي ، الخراج ، ص ٤٢٨ .
 (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج-٩ ، ص ١١٦-١١٧ .

وكما قدم ابن خرداذبة من خلال قائمته معلومات مفيدة عن وارد الشام ،
 ربما أيام المعتصم فجاءت كما يلي :

جند دمشق	٤٤٠,٠٠٠ دينار
جند الأردن	٣٥٠,٠٠٠ دينار
جند فلسطين	٥٠٠,٠٠٠ دينار
جند حمص	٣٤٠,٠٠٠ دينار
جند قنسرين	٤٠٠,٠٠٠ دينار (١)

ويلاحظ مما تقدم ارتفاعاً ملحوظاً في وارد أجناد الشام تتاهز (٩٤٣٥)
 دينار عن مجموع الوارد في القائمة قدامة بن جعفر سنة ٢٠٤هـ - ٨٠٩م ، وهذا
 يعني على الأقل زيادة في الضرائب ألزم بها أهل الشام مقارنة بالسابق خاصة إذا
 علمنا أنه لم تحدث أية اصلاحات اقتصادية في هذه الفترة ، بل كان الاقتصاد في
 تدهور مستمر (٢) .

والذي يلفت الانتباه في الشام آنذاك حجم الضرائب التي فرضت بين فترة وأخرى ، رافق ذلك تشدد الدولة الرقابة في هذه الناحية ، وتؤكد زيارة الخلفاء العباسيون المتتالية إلى الشام سعيهم في إعادة النظر في مسح الأراضي الخراجية والعشرية ، وهذا العمل يعرف بـ (التعديل) ، ومعناه استئناف مسح الأراضي والعقارات ، والغرض الظاهري فيه انصاف الفلاحين بحسب تغير مساحة المزروع من الأرض ، وتفاوت المحصول ، إلا أنها كثيراً ما تسببت في ظلمهم بشكل أو بآخر ، وأول من سن هذه السُّنة أبو جعفر المنصور وتبعه فيها الخلفاء ، إذ أرسل المنصور المعدلين إلى الشام لمسح الأرض والتمييز بين أرض الخراج وأرض العشر ، في محاولة لوضع حد للتجاوزات على حقوق بيت المال . (٣)

(١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٢١ ، ٤٢ ، ٤٢ ، ١٢٥ ، ٧٤-٧٩ .

(٢) أمينة البيطار ، الحياة الاقتصادية في الشام ، ص ١٢٨ ، غيداء كاتبي ، الخراج ، ص ٤٣٠ .

(٣) غيداء كاتبي ، الخراج ، ص ٢٩٨ .

والملاحظ أن الدولة أوكلت مهام التعديل إلى الفقهاء لأسباب قد تعود إلى مقدرة الفقهاء على التمييز بين الأراضي الخرجية والعشرية في وقت أصبح التمييز بينهما أمراً صعباً ، لما ارتبط بهما من حقوق في الملكية والميراث ، ولإضفاء مزيد من الشرعية على إجراءات التعديل تحسباً من حصول تجاوزات قد تنثير المشاكل ، ومن أبرز هؤلاء الفقهاء ، اسماعيل بن عياش ابن سليم ، أبو عتبة العنسي الحمصي (ت ١٨١هـ / ٧٩٧م) الذي قدم إلى الشام مرتين ، مرة لتعديل أرض حمص ، ومعه حُرَيز بن عثمان ، ومرة أخرى لتعديل أرض دمشق وبعلبك ، فعدلوا الأشربة ، كما عدلوا ما بقي بأيدي الانباط ووضعوا الخراج عليها ، ويوضح ابن عساكر هذا الأمر فيشير إلى أن المنصور أرسل المعدلين إلى كور الشام في سنة (١٤٠-١٤١هـ / ٧٥٧-٧٥٨م) لتعديل الاشربة والمقصود بها (الخراج) . (١)

ويبدو أن هذا الإجراء قد أثار ردود فعل مختلفة ، اضطرت إلى إرسال معدلين آخرين لاعادة التعديل حيث يشتمل جميع المناطق وأمرهم بمراعاة بأن لا

يضعوا خراجاً على القطائع القديمة والاشربة التي بأيدي أصحابها ، بل تبقى بأيديهم تدفع العشر ، كما أمرهم بأخذ الخراج من الأراضي التي بقيت بأيدي الانباط ، حيث بعث لهذه المهمة عبدالله بن محمد هضاب بن طوق ومحرز بن طوق فعدلوا الأشربة . (٢)

وتسكت المصادر عن أخبار التعديل حتى نصل إلى عهد المأمون ، فإنه في سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م) فرقت المعدلين - يعني المساح - في اجناد الشام ، وذلك أنه استدعى عدداً من مساح أهل الجزيرة والموصل والرقعة ، فاستغفاهم ، فاستدعى مساحة العراق والاهواز والرّي ، إذ الدقة في المساح تستوجب استخدام رجال غرباء ليس لهم مصلحة أو هوى في ذلك العمل . (٣)

(١) ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ٥٩٦ ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٢ ، ص ١٦٦ .

(٢) ابن عساكر ، جـ ١ ، ص ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٣) احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٤ .

وعهد المتوكل إلى أحمد بن المدبر بإجراء التعديل في أيامه ، وجمع ابن المدبر المشيخة العارفين بشؤون الأرض تاريخياً ، واحكامها فقهيّاً ، وبعد أن استوعب ابن المدبر أبعاد أحكام الأرض من المشيخة قام بالتعديل في جندي الشام والأردن سنة ٢٤٠هـ/٨٥٥م ، وكان من المتوقع من رجل مدقق مثله أن يصل بالناس إلى جادة الحق ، ولكن بعد انتهاء المسح تظلم أصحاب الأرض مما أجراه على الرغم من اجتهاده وسعيه للانصاف (١). ولكن يبدو أن بعض معاونيه أجروا بعض المسامحة والتساهل ، أو بعض السهو ، فحفظ الناس له ولهم ذلك حتى قدوم المتوكل إلى دمشق سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م ، فعالج الأمور على قدر ما تستحق . (٢)

وعندما ندرس هذه القوائم يمكن أن نستخلص منها معدل انخفاض مقادير الجباية بين أقاليم الشام ، ويرجع ذلك إلى الفتن والاضطرابات التي حدثت بالشام ، وخاصة دمشق التي تذبذبت فيها مقادير الجباية بتذبذب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، فدارسة قوائم الخراج ومقدار ما حُصِّل يمثل بصورة واضحة مقدار

ثروة الدولة في العصر العباسي الأول ؛ فحين تبلغ الدولة ذروتها يزداد مقدار الخراج ، فتكون الإدارة قد وصلت إلى غايتها القصوى من الإحكام ، وهذا ما تمثله قائمة الجهشيارى التي يعود زمنها إلى عصر الرشيد وهو أزهى عصور الدولة الإسلامية .

وهنا يجب أن نؤكد على حقيقتين أساسيتين في المجال المالي في العصر العباسي في دمشق ؛ وهما عدم ثبات مقدار ما كان يتحصل من مال ، كما ذكرنا سابقاً ، وثانيهما هو العسف والجور الذي وقع على دافعي الضرائب نتيجة لسوء تصرف الولاة (٣) .

-
- (١) احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٦ .
 (٢) البعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٢١٤ .
 (٣) نبيه عاقل ، بعض من ملامح الأوضاع المالية والتجارية في فلسطين في العصر العباسي ، مؤتمر بلاد الشام ص ٣٢٧ .

ومن استقرار قوائم الجباية يتضح أن مقدار الجباية يتدهور كلما زادت حدة الاضطرابات والثورات في الدولة العباسية ، إذ ينخفض ناتج ما حصل من الرعية في فترة الاضطرابات وعدم الاستقرار بشكل ملحوظ وكبير ، ويزداد من جانب آخر عندما تحقق الدولة استقراراً وتوازناً في أوضاعها الداخلية .

٣- تراجع الأمن على الطرق التجارية

ساهمت بلاد الشام مساهمة ملحوظة في المعاملات التجارية بين مختلف الاقطار الإسلامية بحكم الموقع الجغرافي المتميز الواقع على خطوط سير القوافل البرية من جهة ، ومدنها الساحلية ذات الموانئ التجارية من جهة أخرى .

وقد ساهمت التجارة في تطور المدن الشامية وازدهارها بما تتمتع به من موقع متميز وهام وخبرة أهلها وبراعتهم واستعدادهم الفطري للنجاح في هذه المهنة .

ومن خلال المعلومات المتوافرة عن النشاط التجاري في بلاد الشام في الحقبة التي ندرسها نجد أن المنطقة كانت ذات مساهمة ملحوظة في الحركات التجارية بين مختلف الاقطار الاسلامية ، فقد كانت بلاد الشام في هذه الفترة كما هو شأنها معبراً لتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب ، الأمر الذي كان له كبير الأثر في نماء مدنها الواقعة على خطوط سير القوافل البرية ، ومدنها الساحلية ذات الموانئ التجارية (١) .

(١) ابن خردابه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

أما دمشق ، قاعدة الشام ومدينتها الأولى ، فكانت منذ عهد الأراميين الذين حلوا بها في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد مركزاً لا مندوحة عنه لقوافل التجار ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة عبر العصور اللاحقة ، وتأكدت مكانتها وازدادت بعد علو شأنها السياسي في الدولة العربية الإسلامية منذ انتقال مركز الخلافة الأموية وبقيت في الفترة التي ندرسها مركزاً ترد إليه ، وتتطلق منه تجارات الشرق والغرب . (١)

وقد ازدهرت موانئ دمشق التي شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً استحق التدوين من قبل الجغرافيين والرحالة ، فكانت تنقل البضائع والسلع التجارية القادمة من الشرق بحراً إلى أوروبا وبالعكس ؛ فطرابلس كانت ميناء تجارياً نشطاً ومركز التحصيل المكوس على السفن القادمة من بلاد الروم وأوروبا ، وبيروت كانت ميناء دمشق ومنفذ التجارة الواردة إليها من الشرق (٢) ، وقد وصف ابن حوقل بأنها فرضة دمشق وساحلها... وتجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة (٣).

ولم تكن بلاد الشام جسراً تمر عليه البضائع فحسب ، بل أسهمت بشكل ملحوظاً في ذلك النشاط التجاري عن طريق تصدير بعض منتجاتها إلى الأقطار الإسلامية لا سيما المجاورة لها ، وعن طريق استيراد بعض السلع من عدد من هذه الأقطار ، ويدل حديث المقدسي عن التجارات في الشام أنها مفيدة ، وأن هذه المنطقة تتمتع بقاعدة اقتصادية إنتاجية وفرت الأساس الضروري للإسهام في نشاط تجاري متوازن ، حيث يقول : "والتجارات به مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطين (٤).

(١) Allen Tower , The Oasis of Damascus, (Beirut: The American University of Beirut, 1935, p.p 5-7 .

(٢) ابن خراذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٣ .

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٢ .

ولكن حالة القلق السياسي التي شهدتها الشام التي ما كنت تخرج من فتنة إلا تدخل في فتنة أخرى ؛ فمن ثورة أبي الهيثم سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م إلى خروج السفيناني (أبي العميطر) سنة ١٩٥هـ / ٨١١م ، إلى ثورة المبرقع اليماني سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م ، إلى ثورات حمص ٢٤٠هـ / ٨٥٤م . وظلت البلاد تعيش حالة من الصراع السياسي ما بين هذه القوى مما أثر بشكل كبير على التجارة ؛ إذ أفسح المجال لوقوع أعمال السلب والنهب التي تكونت نتيجة الحالة القلقة ، حيث كانت بضائع التجار وأموالهم عرضة للنهب من قبل المتصلصة الذين امتدوا على طول الطريق التجاري .

ونتيجة لتلك الحركات فقد انعدم الأمن على الطرق التجارية ، وأصبحت مهددة من قبل الثوار وقطاع الطرق ^(١) ، الذين كانوا يقتلون التجار وينهبون أموالهم فاعتدى الوليد بن طريف أثناء خروجه على الرشيد على طرق التجارة في الشام كما أنه قام بقتل التجار ونهب أموالهم . ^(٢)

وقد استغل اللصوص وقطاع الطريق هذه الحركات وما نجم عنها من فوضى ، أن كمنوا للتجار وقتلوا عدداً منهم ، ونهبوا أموالهم ، كما تعرضوا للأسواق ونهبوا ما فيها من الأمتعة ، ويضطر التجار مقابل حمايتهم إلى استخدامهم كحراس لقوافلهم التجارية مقابل دفع مال لهم يكفيهم عن السلب والنهب وعنهم يقول ابن حوقل مشيراً إلى خطورتهم على التجارة وطرقها ، ويتوقع توقف النشاط التجاري نتيجة لذلك فيقول : "...الطريق انقطع في غير وقت من بطن الشام على التجار باعتراض السلطان عليهم واستيلاء الأعراب على الولاة وخفروا وساروا بالأدلاء ، وعن قريب يكف التجار فقرهم وتتقطع سابلتهم وطرقهم له " ^(٣).

(١) سليمان ، الدولة الإسلامية ، ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٤٥١ .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

يذكر التتوخي أن قافلة قادمة إلى دمشق من السماوة قد تعرضت للنهب والسلب (١) ، مما وجب على كل قافلة تعبر الطريق أن تكون مخفورة برجال القبائل التي تمر بأراضيها مقابل دفع أتاوة لها ، وإلا تعرضت للهلاك (٢).

إن قطاع الطرق هم من الفئة الفقيرة في المجتمع ، وجدوا في هذه المهنة أنها تدرّ عليهم أموالاً هائلة تعيلهم على لقمة العيش وسط ظروف اقتصادية سيئة ، ومن بين هؤلاء دعامة والنعمان موليان لبني أمية ، ويحيى بن أرما من يهود البلقاء ، وكانوا خارجين عن طاعة الدولة العباسية ، ووصفهم ابن عساكر أنهم كانوا يحملون سيوفاً محليان بالذهب ، مما يدل على ما كان يحصله من مال عن طريق السلب والنهب وقطاعة الطريق (٣).

وكان دعامة اليهودي يقطع ويتعرض للأموال القادمة من مصر ، فأدت كل هذه الممارسات إلى قلة الأمن على الطرق التجارية التي تعرضت لأعمال القطع والنهب ، فقد أدى قطع طرق دمشق إلى طمع العرب في عمل دمشق وأفسدت الغوطة (٤).

ونتيجة لذلك فقد بذلت السلطة المركزية في بغداد عناية فائقة من أجل الحفاظ على التجارة ومراعاة مرافقها ، من صيانة للطرق لتسهيل مرور التجارة في هذه المناطق ، وحماية الأمن الذي يعتبر ضرورة أساسية لازدهار التجارة في هذه المنطقة ، وكذلك رعاية الأبنية المخصصة للتجارة وصيانتها ، وتسهيل مهام التجار خاصة بعد تزايد هجمات البيزنطيين المتكررة على شمال الشام وسواحلها (٥).

(١) لتتوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٥٢ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢٣ ، ص ١٦٢ .

(٥) نظر إلى مقال تيسير زواهرة ، طرق التجارة والحج في بلاد الشام في العصر العباسي ، ص ١٥٧ ، وما بعدها K مؤتمر بلاد الشام الخامس سنة ١٩٩٠ ، أحمد الاوتاني ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري ، دمشق ، ص ٩١ .

وهكذا كان أمن الطرق التجارية على سلم الأولويات في الدولة ، فهذا الأمر لا يمكن التهاون به لما له سلبيات على الوضع الاقتصادي للدولة . فقد كان هم كل الولاة المتتابعين هو تخليص البلاد من المتلصصة والمارقة ومخيفي السبيل والزواquil ، فكان جعفر البرمكي أول الولاة الذين انتدبوا من قبل الخليفة العباسي الرشيد للقضاء على زواquil الشام (١) .

وتعتبر مدينة دمشق شبكة المواصلات في بلاد الشام ، ففيها تلتقي الطريق الطولية والعرضية القادمة من داخل بلاد الشام أو من خارجها ، وأهم هذه الطرق طريق دمشق وبصرى ومنها إلى ايله ، وطريق اللجون ، نابلس ، القدس ، بئر السبع ومنها إلى البتراء . وهناك طريق داخلي من دمشق جنوباً إلى بصرى أو أذرعات ثم إلى الزرقاء وعمان وسرخ (المدورة) ثم إلى تبوك فالمدينة المنورة فمكة (٢) .

وأما الطريق من دمشق إلى الحجاز ، وهو المعروف بطريق الحج الشامي ، يتبع طريق تراجان الروماني ، وقد عرف بالتبوكية (٣) ، ويمتد هذا الطريق من دمشق إلى ذات المنازل ، فالمدورة فتبوك فوادي القرى فالمدينة ومنها إلى مكة ماراً بالمحدثة والأقرع والحنينة وذوي المروة والسويداء وذوي الخشب (٤) . وكانت طريق الحج من أكثر الطرق التي تعرضت لخطر قطاع الطرق والأعراب مما يؤدي إلى هلاك كثير من الحجاج القادمين من أماكن مختلفة ، الأمر الذي يستدعي من الدولة الوقوف بحزم لمنع هذا الخطر .

- (١) انظر الفصل الثاني من الدراسة (ثورة ١٨٠هـ) .
 (٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٥٠ ، صالح درادكه ، البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام ، المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، ١٩٩٢ ، ص ٢٠٥ .
 (٣) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص ٣٨٧ - ٣٩١ ، ٤٠٥ .
 (٤) ابن رسته ، الاعلان النفسية ، ص ١٨٣ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت ترتبط بدمشق شبكة من الطرق الجيدة والمنظمة التي ربطت بين المدن الداخلية والموانئ الساحلية ، مثل طريق الذي يبدأ من الرقة دوسر (١) ، والطريق البري الصحراوي الذي يبدأ من الرصافة وينتهي بدمشق ، وطريق البريد الذي يربط دمشق ببلعك ، ويبدأ من حمص إلى بلعك (٢) .

ولكن مع وهن وضعف الدولة الإسلامية انعدم الأمن على معظم هذه الطرق التجارية ، الأمر الذي أدى إلى تحول القوافل والحجاج عن هذه الطرق مما سبب ضعف وركود في الوضع الاقتصادي لبلاد الشام .

ولو نظرنا إلى أسباب ضعف التجارة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي لوجدناها مجموعة في هذه الأسباب :-

- ١- حالة القلق السياسي - التي أشرنا إليها سابقاً - كانت سمة الوضع في الشام كله ، فأدت بالتالي إلى انتشار الفوضى وسيطرة قطاع الطرق والأعراب على طرق القوافل ، وما يتبع ذلك من عمليات سلب ونهب اضطر التجار على أثرها أن يسلكوا طرقاً تجارية أخرى غير الطريق المارة ببلاد الشام لسلامة بضائعهم ، مما زاد في ارتفاع أسعار السلع (٣) .
- ٢- الاعتداءات على التجار ومحلاتهم في فترات الثورات ، حيث كانت الدولة العباسية كوسيلة انتقام من الثورات تقوم بنهب أموال التجار ، كما حصل في ثورة أبو العميطر في دمشق سنة ١٩٤هـ / ٨١٠م (٤) .

- (١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٩٨ .
 (٢) المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ١١٧ .
 (٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٥٢ .
 (٤) انظر إلى الفصل الثاني (ثورة أبي العميطر) ، ص ٧١ .
- ٣- كانت بلاد الشام في ولايتها لا تتبع لحاكم واحد ، بل كان لكل جند والٍ مستقل عن الآخر ، مما يعيق العملية التجارية ، إذ كان التجار يضطرون لدفع ضريبة عند انتقالهم من جند لآخر أو من مدينة لأخرى ، مما يقف عائقاً أمام تقدم البلاد اقتصادياً (١) .

٤- الإجراءات المتشددة التي وضعت لتنفيذ حركة التجارة مثل فرض ضرائب على المراكب وكان ما يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض (٢) .

على أن كل ذلك لم يمنع من استمرار التجارة الشامية ؛ بسبب موقع الشام التجاري ، وكونها مصدراً من مصادر الثروة الزراعية والصناعية . كما أن بلاد الشام استفادت من ثورات العراق وفتته في القرن الثالث التاسع الميلادي (كثورات الزط والزنج الخ) لتنشيط الطرق التجارية القادمة إليها ، واستغلت ظروف العراق الصعبة لتحويل طرق التجارة لتمر في أراضيها . ولم تخف أهمية التجارة على الخلفاء أنفسهم ، فوجهوا عناية خاصة للتجارة ، وأقاموا المحطات على طرق القوافل ، وأنشأوا المنارات في الثغور لهداية السفن (٣) .

وبالإضافة إلى الحركات ، فإن صراع العصبية الذي شهدته دمشق ، وخاصة في عهد الرشيد كان له على الاقتصاد الدمشقي التأثير نفسه . وكما كان للولاة على الشام أثر في ذلك ، فأهمل بعضهم الاهتمام بولايته ، ولم يطور الاقتصاد فيها فأدى إلى تراجعها (٤) . وهذا ما حصل مع والي دمشق في عصر

الرشيد ، حيث أصبحت دمشق في ولايته جرداء قاحلة ، بعد أن كانت جنة تحيط بها البساتين والمياه (٥) .

- (١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٧ ، ناجي عبد الجبار ، نظره في الأحوال الحضريّة لبلاد الشام المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، ص ٢٩ ، عاقل : " بعض ملامح الأوضاع الاقتصادية في الشام ، ص ٣٣٨ .
- (٢) ادم منتر ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج١ ، ص ٢٢٠ .
- (٣) نبيه عاقل ، بعض ملامح الأوضاع الاقتصادية في الشام ، المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، ص ٣٢٩ .
- (٤) أمينة بيطار ، الحياة الاقتصادية في الشام ، ص ١٢٤ .
- (٥) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ .

الزراعة :

شكلت الزراعة المورد الرئيسي للحياة الاقتصادية في العصر العباسي ، فاهتم أهل الشام بالزراعة ، فشهدت الشام نشاطاً زراعياً كثيفاً دلت عليه المساحات الواسعة من الأراضي التي زرعت بكافة الأصناف الزراعية ، والأسواق التي عرضت فيها هذه الأصناف (١) . وتعطينا كتب الجغرافيا والبلدان صورة واضحة عن هذا النشاط الزراعي .

فيذكر ابن الفقيه أن مدينة دمشق كانت مليئة بالبساتين (٢) ، وبعلمك كانت أيضاً مثل دمشق ، وأما الاصطخري فقد عدّ منطقة الشراة من أخصب مناطق الشام والغوطة ، كانت مليئة بالزراعة والأشجار المتصلة .

وكانت الزراعة في دمشق تعتمد على مياه نهر بردى وفروعه ؛ حيث تجري فروع نهر بردى في قنوات مدفونة في الأرض إلى أن تصل إلى مستحقها، ثم يجري تجميع المياه في مجرى واحد ليبدأ توزيعها في ظاهر المدينة لسقي البساتين (٣) .

وبذلك يمكن القول أن الزراعة في دمشق وغطتها تعتمد على ماء بردى ،
إلا بعضها فيعتمد على مياه الأمطار ، وقد كانت مساحة غوطة دمشق في أيام
الاصطخري مرحلة في مرحلتين (٤) ، وتحيط بها المياه الكثيرة التي تسقي
الأشجار والزروع المتصلة .

-
- (١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٤ .
(٢) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ .
(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٩٥ ، امينة البيطار ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، ص ١٣٤ .
(٤) الاصطخري ، صور الأقاليم ، ص ٤٥ .

وساعد اعتدال مناخ دمشق وخصوبة أرضها ، ووفرة مياهها ، وموقعها بين
البادية في الشرق والجبال في الشمال والغرب على إنتاجها لأصناف مختلفة
وكثيرة من المنتجات الزراعية ، فتنمو فيها بعض الأشجار التي تحتاج إلى الجو
الحار ، وكثير من الأشجار التي تتحمل ظروف البرد . ومن مزروعاتها ما يعيش
على مياه الامطار ، ومنها ما يُسقى بماء الأنهار (١) .

وقد أشار الاصطخري (٢) إلى تشابك الفاكهة وامتلاء الغوطة بأشكالها
المختلفة ، وأشار المقدسي أيضاً إلى كثرة المياه في أنهارها وخصوبة أرضها ،
وما ترتب على ذلك من زراعة الأشجار وزيادة الإنتاج (٣) .

كانت دمشق وغطتها من أخصب البلاد وأكثرها ملاءمة للزراعة ، فكانت
تجود في أرضها زراعة أشكال مختلفة من الزروع والثمار ، مثل الزيتون ، وهي
أحدى الزراعات المألوفة في المنطقة منذ القدم ، وإنتاج الزيت وتصديره . ويزرع
في دمشق التفاح الذي يضرب به المثل ، والكروم . وكان إنتاجها من الزبيب
وفيراً (٤) ، وكما عرفت التين والأجاص والدراق والمشمش والرمال (٥) .

وكانت دمشق قد تعرضت للآفات الزراعية ؛ فقد غزت الحشرات المختلفة القمح والشعير وعدداً كبيراً من المزروعات ، فقد بلغت السوسة القمح وتبيست القمح^(٦) ، وبلغ المنّ كافة المزروعات ، وكما انتشرت الجنادب في كل بقعة من البلاد وأتلفت الكروم والأشجار وأفسدت الثمار قاطبة ، وكما غزا الجراد الحقول وانتشر في جميع الأرجاء ، وأتى على الزروع والكروم والجنات والأشجار ، وعلى كل عشب خضراء^(٧) .

-
- (١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٩٠ .
 (٢) الاضطخري ، مسالك الممالك ، ص ٥٩ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٠ .
 (٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٥٧ .
 (٤) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
 (٥) انظر إلى المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٥٧ وما بعدها .
 (٦) ديموسيوست التلمحري ، التاريخ المنحول ، ص ٩٨ - ٩٩ ،
 (٧) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

ولم يلحظ على دمشق خلال القرن الثاني والثالث الهجريين الثامن والتاسع الميلاديين أي تقدم زراعي واضح ، بل سیرت البلاد نحو التأخر الزراعي . ويتضح ذلك من الحديث الذي دار بين الخليفة هارون الرشيد ، وبين واليه على دمشق الحسين بن عمار ، فقد استاء الرشيد من هذا التدهور والتأخر الزراعي ، إذ أصبحت البلاد جرداء بعدما كانت جنة خضراء ، فعزل الوالي وعاقبه جزاء ما كان يفعله ، يقول ابن الفقيه : قال الرشيد للحسين بن عمار " وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر ، وتتكفأ أمواجها على رياض كالدراي ، فما برح بك التعدي لإرفاقهم أن جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من الفقر ، قال والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفيق من جهته ، ولكني رأيت أقواماً ثقل الحق على أعناقهم ففترقوا في ميادين التعدي ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بأضرار السلطان ، وأرادوا بذلك المشقة على الولاة ، وإن سخط أمير المؤمنين فقد أخذ بالخط الأوفر من مساعتي " (١) .

وتتطافرت عدة أسباب للتأخر الزراعي الذي شهدته دمشق ومنها : أن الولاة العباسيين الذين حكموا دمشق لم يقوموا بأي إجراء شأنه تنمية الزراعة في دمشق، فقد ظلت الأمور على ما هي عليه إبان الدولة الأموية ، حتى عهد المأمون الذي حفر قناة من نهر منين إلى معسكره بدير مران ماراً بسفح جبل قاسيون (٢) .

وأسفرت الحروب والفتن التي تعرضت لها البلاد في هذه الفترة عن نقصان الثروة الزراعية في البلاد وتأخرها . فقد تعرضت الثروة الزراعية الضخمة للقطع والإتلاف في حوادث متعددة ؛ ففي ثورة أبي الهيثم المري تعرضت قرى غوطة دمشق إلى الحريق والتدمير مثل بيت لهيا وداريا ، وخربت زيزيا في حركة الفديني ، فزادت كل هذه الأعمال من القضاء على الأرض الزراعية (٣) .

(١) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مجلد ٢ ، ق ١ ، ص ١٦٦ .

(٣) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .

وطوال العصر العباسي الأول فإن أهم المشاكل التي كانت تعيق تؤثر على الزراعة في الشام كانت تتلخص في الحركات التي تحرق وتخرّب الأرض الزراعية ، ثم في ظلم العمال للفلاحين مما يؤدي إلى سوء أحوالهم .

الصناعة :

عرفت دمشق الصناعة منذ القدم نتيجة لتوفر المواد الأولية المستخرجة من أرضها سواء أكانت معادن تلزم للصناعات المعدنية أو منتجات زراعية أو صناعات غذائية .

وقد اشتهرت دمشق بعدد من الصناعات ، ففي معرض الصناعات النسيجية اشتهرت دمشق بالذات بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى الدمقس (دامسكو) ، وكما عرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره (١) . وكان الدمشقيون يستخدمون الصباغ في تلوين الملابس وكانوا بارعين في صناعته (٢) .

أما الصناعات المعدنية فقد اشتهرت دمشق بصناعة القسي والفسيفساء والزجاج الذي يضرب به المثل في الرقة والصفاء . ووجد في داريا أحد ضواحي دمشق مناجم الحديد والفولاذ ، وأتقن أهالي دمشق بواسطة هذه المادة صناعة السيوف (٣) .

وبالرغم من أن الصناعة الدمشقية تأثرت نتيجة الهدم والدمار ، وانعدام الأمن في البلاد الذي صاحب الحركات ، إلا أنه قد وجد نشاط كبير للصناعة الدمشقية ؛ فوجدت المصانع والمعامل والأسواق (٤) ، وكما وجدت المهـمـن

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها ، ص ٢٢ ، مجلة المجمع العربي بدمشق ، مجلد ٢ ، ١٩٩٢ ، محمد جمال سرور ، الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص ١٣٧ ، حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١-٢٢ .

(٤) أحمد علي ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٧ .

والجماعات التي كانت تشتغل بهذه المهن ، فيورد اليعقوبي أن المعتصم " أحضر الفعلة وأهل المهن والحدادين والنجارين وسائر الصناعات من سواحل الشام وأنطاكيا " (١) .

وهكذا كان لحالة الاضطراب السياسي والفوضى التي سيطرت على البلاد في هذه الفترة تأثير كبير على مختلف النشاطات الاقتصادية ، ولكن سرعان ما زاد النشاط التجاري في القرنين الثالث والرابع الهجري ، وانعكس تأثيره على كافة الميادين الاقتصادية .

وكانت الزلازل عاملاً آخر حال دون تقدم البلاد عمرانياً واقتصادياً ، إذ كانت عاملاً من عوامل التخريب الذي يستدعي الاستمرار في البناء والترميم . فقد

كانت الزلازل متواترة الحدوث ، والفترات الزمنية بينها قليلة ، فقد حدثت سنة ١٣١هـ / ٧٤٩م رجفة في دمشق انشق من جرائها سقف الجامع الأموي ثم حدثت رجفة أخرى أطبقت هذا الانشقاق (٢) . وحدث سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م زلزال أدى إلى تحطيم جدران مدينة دمشق وحمص . وكما حدث سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٦م زلزال في دمشق عرف بـ (الزلزال الشديد) انتفضت منه البيوت ، وزالت الحجارة العظيمة ، وأسقطت عدة طاقات في الأسواق على من فيها فقتلت خلقاً كثيراً ، وسقطت القناطر والمنازل (٣) .

وكما أصاب الشام سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩م زلزال أصاب كثير من المدن والقناطر والقلاع فقد أصيبت دمشق والرقّة وحران ورأس العين وحمص والرها وطرطوس واللاذقية والمصيصة ، ودمر أكثر من ١٥٠ داراً و ٩٠ برجاً من أبراج أسوارها (٤) .

-
- (١) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٧١ ، بيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٢٨ ، سليمان ، الدولة الإسلامية ، ص ١٠١ - ١٠٢ .
- (٢) الطبري تاريخ ، ج ٦ ، ص ٩ ، ٢١٣ ، السيوطي ، كشف الصلصة عن وصف الزلزلة ، ص ٢٤ .
- (٣) السيوطي ، كشف الصلصة ، ص ٢٦ ، الحصري ، منتجات التواريخ الدمشقية ، ج ١ ، ص ١٢٥ .
- (٤) السيوطي ، كشف الصلصة ، ص ٢٧ .

وقد أنفقت الدولة كثيراً من الأموال ، وبذلت جهوداً كبيرة في أعمار ما دمرته الزلازل وتحت رعاية الخلفاء أنفسهم ، فقد قام الفضل بن صالح الهاشمي ، وكان والياً على دمشق أيام المنصور ، على عمل الأبواب للمسجد الأموي ، كما عمل القبة التي في الصحن ، وتعرف بقبة المال . وكان الجامع الأموي قد أصيب بزلزال سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٦م إذ تهدم ثلثه، فكان لا بد من إعادة بناء ما تهدم منه (١) .

أثر الحركات على الأسواق :

لعبت الأسواق دوراً حيوياً في تاريخ بلاد الشام ، إذ كان النشاط التجاري الداخلي يتركز فيها ، وكان السوق المركز التجاري الرئيسي في كل مدينة حيث يلتقي فيه التجار والحرفيون ، ومنه يحصل السكان على حاجياتهم . وكانت كل طائفة من التجار وأصحاب المهن المتشابهة تكون جبهة واحدة أمام الخطر . وهذه

الترتيبات أقرب إلى النقابات المهنية في وقتنا الحاضر ، إذ بينها تقارب لذوي المهنة الواحدة ليسهل الاتصال بينهم . وقد عاش الصانع وأهل الحرف مجتمعين في سوق خاص بهم (٢) .

وكانت الشام قد عرفت بتعدد أسواقها وقيسارياتها (٣) وبنشاط الفعاليات التجارية فيها . إذ أن السوق يمثل المركز الحيوي للنشاط التجاري والاقتصادي . فقد وجدت الأسواق وسط المدينة لتكون مراكز بيع للمصلين . ويصف ابن جبير أسواق دمشق بأنها " من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب من حديد ، كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بضبتها وإغلاقها الجديدة ، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير ... " (٤) .

-
- (١) احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٢٥ .
 (٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٧١ ، الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٥ ، الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٩٠-٩١ .
 (٣) القيسارية ، عبارة عن حديقة بستان ، نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم ، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة
 (٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٣٤ - ٢٧١ .

وكانت أسواق دمشق تنشط فيها الفعاليات التجارية ، وتقع بجوار المسجد الجامع ، وهي من أشهر الأسواق ؛ وذلك باعتبار دمشق مركزاً من أهم المراكز التجارية ، ولوقوعها على طريق الحجاج الرئيسي ، فقد كان الحجاج يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم منها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها . وكان هذا الطريق يمر بالطريق المحاذي لبادية الشام ، إذ مكن للحجاج أثناء العودة بزيارة بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبر إبراهيم الخليل . وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق (١) .

وكما كانت المدن الساحلية ، مثل بيروت وطرابلس تحصل على ما تحتاج إليه من السلع في سوق دمشق ، فأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل التجارية^(٢) .

وقد عرفت دمشق أسواقاً حافلة متخصصة ، وكانت معظم الأسواق ممتدة على طول البلد ، ومسقوفة وأسعارها رخيصة^(٣) . وكانت تسمية الأسواق وتخصصها متوقفة على نوع المواد التي تعرض في هذه الأسواق . وكانت أسواق مدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات .

وكانت هناك أسواق تخصصية بصنع أو بيع سلع معينة كسوق المناخين والبزوربين والعلبيين والاقبايعين ، وعشرات غيرها إلى جانب الأسواق الرئيسية . وقد ذكر ابن عساكر هذه الأسواق ، ونذكر منها سوق السراجين وسوق الحدادين وسوق النحاسين ، وسوق الدقيق وسوق القناديل وسوق الزقاقين ، وسوق الشعير والقمح وسوق الفاكهة ، وسوق الغزل ، وسوق الدواب ، وسوق الدجاج ، وسوق الحمامين ، وسوق التين وسوق المطرزين وسوق القطنين وسوق اللؤلؤ ، وسوق دار البطيخ ، وغيرها^(٤) .

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٥٦ .

(٤) انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

ومن الملاحظ على أسواق دمشق أنها لم تكن كلها متخصصة في نوع محدد من السلع ، بل وجدت أسواق أخرى جامعة يبتاع فيها مختلف أنواع البضائع، فمثلاً السوق الكبير في دمشق ، فهو سوق عظيم يجمع فيه أصناف التجارات والصناعات^(١) .

وكان للسوق الكبير أسواق فرعية صغيرة داخل السوق نفسه ، وذلك حتى لا تتجاوز البضائع الرديئة مع البضائع الثمينة . ولا بد في مدينة كبيرة مثل دمشق من تفرقة بائعي الطعام على مواضع كثيرة من المدينة ، لأن حاجة الناس إليه

متكررة . وأن يكون موقع الصناعات المضرة مثل المسالخ والمذابح والزجاج والصابون في أطراف المدينة (٢) .

وكما ظهرت الأسواق الأسبوعية في الأرياف أو في المناطق البعيدة عن السوق ، والتي تبعد عنه مسيرة نصف يوم أو أكثر . وكان سوق الأحد أشهر الأسواق الأسبوعية في دمشق (٣) . وكانت الأسواق الريفية تقام في منطقة واسعة لتجنب الازدحام ، ولتكون سهلة الدخول والخروج للناس ودوابهم .

وإلى جانب الأسواق الكبيرة وجدت سويقات متفرقة في دمشق مثل سوقية باب البريد وباب توما وسوقية الحجامين وغيرها . والسوقيات هي عبارة عن عدة عشرات من الدكاكين (٤) ، والسوقية هي سوق بدائية صغيرة يشتري سكان الحي منها ما يحتاجون إليه عموماً من سلع وأشياء (٥) . وكان لكل حرفة محل خاص في السوق ، ولأهلها ما يميزهم عن غيرهم ، سواء أكان ذلك في طراز حوانيتهم ، أم في شكل لباسهم ، أم طريقة عرضهم لنوع السلع التي يبيعونها (٦) .

- (١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ٢٤٠ ، الإدريسي ، نزهة المشتاق ، جـ٦ ، ص ٦٤٧ .
- (٢) زريف المعاينة ، الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي ، المؤتمر الدولي الخامس ، ص ٢٥٦ .
- (٣) ابن عساکر تاريخ دمشق ، جـ٢ ، ص ٢٢٧ .
- (٤) ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، جـ٢ ، ص ٢٢٩ ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٤٧ .
- (٥) زريف المعاينة ، الأسواق في بلاد الشام ، ص ٢٥٨ .
- (٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٢٩ .

وكانت ظاهرة تخصص الأسواق في دمشق أمراً مفيداً للدولة ، إذ سهلت الإشراف الحكومي ، بحيث لا يستطيع التجار التلاعب بالمقاييس والأوزان والمكاييل والأسعار ، وتقلل كذلك من الاحتكار ، ويستطيع المستهلك أن يشتري كل ما يلزمه في وقت قصير لتقارب الدكاكين والحوانيت في السوق (١) .

ويلاحظ على أسواق الشام أنها لم تكن كلها متخصصة في بيع نوع محدد من السلع ، وإنما وجدت أسواق أخرى جامعة ، وتباع فيها مختلف البضائع ،

ممثلة بالسوق الكبير في دمشق سوق عظمى تجتمع فيها أصناف التجارات والصناعات (٢).

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالأسواق ، ومن شدة اهتمامهم كان بعضهم يتفقد أحوالها وما يجري فيها بنفسه ليطمئن على أن الأمور تسير وفق المصلحة العامة ، ولا يتوانون عن أن يضربوا بشدة على يد كل من يحاول إلحاق الضرر بها (٣) ، ومن مظاهر اهتمام الخلفاء العباسيون بالأسواق ما ذكره ياقوت أنهم هدموا دار معاوية بن أبي سفيان وصار مكانها سوق عامرة . (٤)

وكانت مهمة الإشراف على الأسواق من مهام المحتسب الذي كان يعينه الخليفة أو أمير الولاية . وظهر منصب المحتسب لأول مرة عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م. ويذكر أن إبراهيم بن عبدالله بن حسن كان محتسب دمشق (٥).

(١) الشيرازي ، نهاية الرتبة ، ص ١١ .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٥٦ ، ١٧٤ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٢٢٩ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ج٦ ، ص ٦٤٧ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٦٦ ، ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ١٨٨ .

(٥) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج٢ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ومن وظائف المحتسب مراقبة الأوزان والمكاييل ، بحيث يضبط أمور الرعية من الباعة وأصناف السوق ولا يمكنهم من ظلم أحد ، ويعاقب من اطلع له على غش وينظر في تنظيف الطرق والأسواق من الأوساخ ، وإصلاح القناطر ، وفتح المسالك ، وحفظ ظواهرها ، وضواحيها وأمن سالكيها من القطاع والسراق (١).

ويساعد المحتسب أعوان متخصصون كل منهم بالحرفة التي يعرفها حتى لا يحصل الغش والتدليس . وعلى المحتسب أن يكون عارفاً بأحكام الدين والشريعة (٢) ، وللمحتسب سجل خاص ، يدون فيه قوائم بأسماء الصناع والتجار، وكان يؤشر إزاء اسم كل منهم موقع محله ، ليتمكن من الوصول إليه بسرعة عند الحاجة .

وعلى المحتسب أن ينظم جلوس الباعة في الأسواق والدكاكين بحيث يجعل لكل صنعة منهم سوقاً يختص بهم . وعلى المحتسب كذلك أن يراعي في أن تكون الأسواق في الارتفاع والانتساع بشكل مناسب ، وأن يكون على جانبي السوق ممرات يمشي عليها الناس (٣) ، وأن يشرف على جميع الصنائع والحرف ، وقد أسهبت كتب الحسبة في الحديث عن تدخل المحتسب واشرافه على تلك الحرف والأصناف . (٤)

ومع تطور المجتمع العباسي فقد ازدادت الرقابة على الأسواق مما أدى إلى ظهور مهن وحرف مختلفة ، وأوجد كذلك شعوراً لدى المهنيين بضرورة تنظيم الصناع والتجار في الأزمات السياسية والاقتصادية التي كانت تتعرض لها أسواقهم بين الحين والآخر (٥) .

-
- (١) الشيرزي ، نهاية الرتبة ، ص ١١ .
 (٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٤١ ، الشيرزي ، نهاية الرتبة ، ص ٦ .
 (٣) الشيرزي ، نهاية الرتبة ، ص ١١ .
 (٤) الشيرزي ، نهاية الرتبة ، ص ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .
 (٥) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

وقد أصبح لكل حرفة (رئيس) من أصحابها تعينه الحكومة عادة أو تعترف به ، ومع مرور الزمن قويت هذه الرابطة بين أهل الصنائع ، حتى صار كل يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صنفه (١) .

ولقد لعبت المؤثرات السياسية دوراً كبيراً في تعطيل الحركة التجارية في الأسواق ؛ تمثلت بموجات الفتن والاضطرابات والثورات التي حدثت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، واستمرت طوال القرن الثالث الهجري . فقد أدت هذه الاضطرابات السياسية إلى ارتفاع الأسعار ووقوع أعمال السلب والنهب، فتعطلت الأسواق ، وازدادت أحوال العامة سوءاً حتى وصلت إلى حد المجاعة وأكل اللحوم المحرمة والجيف ، ومن أمثلة على المؤثرات السياسية الثورات التي قامت بين الحين والآخر ، فقد أضرت بالأراضي الزراعية والإنتاج الزراعي وانتقل الأمر إلى الأسواق التي ارتفعت فيها الأسعار ، وتدهورت أحوال الناس إضافة إلى ذلك سياسة جباة الخراج الجشعة ، وما لحقوه من البلاد من أضرار حتى نصل إلى عهد المأمون الذي عثر فيه على مجاعات أحياناً ، وتعرض الناس لكثير من الاوبئة ، ففي فلسطين مثلاً وقع فيها جوع شديد ، وجراد كثير فمات الناس وهرب الناس منها ومنيت الأرض بالإهمال ، وقل الانتاج النباتي ، مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار (٢) .

(١) البعقوبي ، البلدان ، ص ٢٣٨ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٣٤٩ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ٦ ، ص ٣١٨ ، ٣٣١ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٢ .

وكما أن الكوارث الطبيعية كالزلازل وانحباس الأمطار في بعض السنين يؤدي إلى ارتفاع الأسعار ، إذ تؤدي إلى قلة الانتاج وانتشار المجاعات ، ومن

الزلازل التي أضرت بمدينة دمشق أضرار كبيرة زلزال سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م الذي أصاب كثير من القرى والقناطر والقلاع في دمشق (١) .

وزاد انحباس الأمطار وتأخرها عن موسم الزرع ، وقلتها في ارتفاع الأسعار . وقد حدث في دمشق سنة ٢٤٥هـ الصقيع والبرد والثلج مما أدى إلى تلف المحاصيل الزراعية ، فيذكر الطبري : " وغلّت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة " (٢) . كما إن كثرة الأمطار تؤدي إلى حدوث فيضانات وسيول جارفة وغرق المحاصيل ، وبالتالي إلى تلفها وارتفاع أسعارها .

لهذا كانت اسعار الحاجيات في دمشق تتأثر بعوامل كثيرة منها كثرة الانتاج أو قلتها ، وكثرة العرض والطلب ، كما كانت تتأثر بالأحوال السياسية والعسكرية التي تتعرض لها المدينة ، وبالأحوال الاجتماعية فيها ، فتأتي الأسعار انعكاساً للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة . (٣)

ونتيجة تعرض دمشق لموجات الفتن والاضطرابات وما صاحبها من ارتفاع في الأسعار برزت حدة التباين الاجتماعي وسوء أحوال الطبقات الناتج عن تكدس الثروة بأيدي طبقة اجتماعية محدودة العدد ، علماً بأن الطبقة المترفة تؤلمهم إلى وصلت إليه البلاد من شدة الضيق ، وما وصلت إليه من الفتن والثورات عبرت عنه صرخاتهم التي كانت لا تتعدى أسماع أصحابها (٤) .

(١) السيوطي ، كشف الصلصة ، ص ٢٧ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٩ ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٦ ، ص ١٦٣ .

وكان من الطبيعي أن يؤدي اضطراب الأحوال الاقتصادية ، وكثرة الفتن والثورات ، والجشع في الجباية ، وكثرة العاملين على الجباية إلى تكاثر اللصوص وقطاع الطرق ، إذ الفرصة تتسع لمحاولاتهم في أوقات الاضطراب ، كما أنهم يستطيعون أن يزعموا للفلاحين بأنهم جباة ، ويوقفوا التجار مدعين أنهم من المعشرين (١) . وقد أوجدت هذه الأحوال فئات غير قليلة العدد من لصوص المدن تمتهن قطع الطريق ، وقد غدت ممارسة اللصوصية وقطع الطريق حرفة ومورد رزق .

(١) التاريخ المنحول ، ص ١٨٢ ، انظر التتوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص ١١٧ وما بعدها .

تأثير الفتن والثورات على خزينة الدولة العباسية :

حرص الخلفاء العباسيون على توفير الأموال ، خاصة وأنهم في بداية دولتهم ، وأن الأموال هي الطريق الوحيد لتنمية الدولة وتطورها وتغذية جيوشها ، ومكافأة انصارها الذين اجتهدوا في اقامتها واغداق الأموال والعطايا على الجند .

وقد كان المنصور حريصاً كل الحرص على توفير الأموال ، حتى أنه كان يحاسب العمال أدق حساب ، ويشرف بنفسه على المشاريع التي تنوي الدولة إقامتها ، وقد عرف عن المنصور الاقتصاد في النفقة ، وجباية بعيدة عن الترف ، ولا يعرف سوى الجد والصرامة والعزوف عن اللهو ، ولما شعر المنصور بدنو أجله استدعى ابنه المهدي وقال له : عليّ دينٌ أحب أن تقضيه^(١) وأن دلّ هذا فإنما يدل على حرصه على أموال العامة رغم توفر الأموال الكثيرة في خزينته .

ويخبرنا المسعودي أن المنصور كان من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما يتجاوز معه كل وصف ، وكان يعطي الجزيل والخطير ، ما كان إعطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضييعاً^(٢) .

وإلى جانب هذا ، فقد أنفق المنصور الكثير من الأموال على الجيش الذي توجه لإخماد الثورات ، مثل ثورة عبدالله بن علي في الشام ، وثورات الخوارج في افريقيا . وكان المنصور لا يتوانى للحظة في الإنفاق على الحروب التي لا بد منها لصد الخارجين والأعداء .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٩ ، ص ٣٢١ ، محمد ضياء الدين الرئيس ، الخراج والدولة الإسلامية ، ص ٤٠٠ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ .

وكان المنصور يوصي ابنه المهدي بضرورة معاملة الناس معاملة قائمة على العدل ، وحذره من الإفراط في النفقة والتبذير لأموال الرعية . ويوصيه بالمقابل بضرورة الاهتمام بحدود الدولة وسلامة الطرق ، ويحذره من النوائب والمصائب والحوادث والزمان ، وأنّ عليه أن يدخر الأموال لهذا اليوم (١) .

أما المهدي فكان على عكس والده ؛ فقد كان كثير الإنفاق ، حيث أنفق على بناء قصر السلامة مثلاً خمسين ألف درهم (٢) . وكان كثير العطايا والهبات ؛ حتى أن الدولة في أواخر عهده أصبحت تعاني من اضطراب الأمور ، بسبب مطالبة الجند بأرزاقهم ، مما حدا بالدولة أن تفرض ضرائب على الأسواق والناس والمتاجر والحوانيت ، فلم تسلم أي من المنشآت الصناعية والزراعية والتجارية من الضرائب مما أدى إلى ظهور الثورات في كل البلاد الإسلامية (٣) .

وأما الهادي ، فقد زاد الأمر سوءاً ؛ فقد كان أكثر إنفاقاً من والده ، ولم تحدث في عهده أي إجراءات مالية تذكر . (٤)

وأما الرشيد ، ومنذ أن تولى الخلافة رغب أن يخفف عن رعيته وأن يحكم بالعدل ، وفقاً لما رسم الشرع الحنيف ، ولا سيما في شؤون المال ، فوجه رسالة إلى القاضي أبي يوسف ، محتوية على أسئلة عن كل ما يختص بالخراج طلب الاجابة عنها ، فكان نتيجة ذلك أن ألف أبو يوسف كتابه الخراج .

- (٢) الجهشباري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٥٩ .
 (٣) المنبجي ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .
 (٤) محمد ضياء الدين الرئيس ، الخراج والدولة الإسلامية ، ص ٤١٧ .

ومهما يكن من نيات الرشيد ، فإن تدبير أمور الخراج كان متروكاً - عند التنفيذ - إلى الوزير " يحيى بن خالد البرمكي " وابنيه ونوابهم ، وقد نجحوا في أن ينهضوا بالدولة اتم نهوض ، وبلغ الخراج ذروته ، وكان أقصى ما عرف عن خراج الدولة الإسلامية ^(١) ، ويقابل ذلك كثرة الانفاق في عهد الرشيد ، ففي عهده استع عمران البلاد ، وازداد نشاطها ، ولم يكن لانفاق المال ضابط . ومن جهة أخرى فقد بلغ نفوذ البرامكة أوسع مما كان يعتقد به البعض وظل الرشيد بذلك منعزلاً عن أمور العامة بسبب نفوذ البرامكة المتجذر في الدولة ، والذين كانوا قد اكتنزوا الأموال حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال ، فلا يصل إليه ^(٢) .

وعلى كل حال وبالرغم مما أنفقه البرامكة في عهده ، وما أنفق على الحروب ، وغير ذلك من الهبات والعطايا والصدقات ، إلا أن الرشيد ترك ثروة هائلة ^(٣) ، فكانت دولته من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وحيزاً ^(٤) .

وعندما نأتي إلى الفتنة بين الأمين والمأمون في منتصف القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي نجد حجم الأموال التي أنفقت من أجل استمالة الناس وكسب الحرب ، وإنفاقها على الجند الذين أعطوا أموالاً كثيرة ، وإنفاقها على شراء السلاح مما أثر على الأوضاع الاقتصادية في الدولة .

- (١) انظر إلى الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٧٧ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٩ .
 (٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٣ .
 (٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٩ ، ص ١٢٤ .
 (٤) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ، ص ١١٧ .

ومع نهاية هذه الفتنة بمقتل الأمين ، واعتلاء المأمون عرش الخلافة ، فقد أصبحت كل أموال الدولة في يده . وكان المأمون كثير النفقات ، وليس أدل على ذلك إلا حجم ما أنفق في حفل زواجه ببوران بنت الحسن بن سهل ؛ إذ فرقت الدنانير وبذرت الدراهم وبسطت الفرش ، حتى ضاق المال عند المأمون ، وربما أدى إلى فراغ الخزائن . فقد ذكر أن المأمون حين كان بالشام تعرض له رجل مراراً ، فقال له : " يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان " فقال له: " أكثر عليّ يا أبا أهل الشام ! والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد (١) .

أما المعتصم فكانت أكثر نفقاته على الجيش الذي أصبح جلّه من الاتراك . فقد كانوا أقوياء ومتنفذين في الدولة ، مما أدى إلى استغلال الدولة واختيان أموالها .

وكان المعتصم كثير الإنفاق في كل ما يتصل بالحرب ، فلم يعرف عنه أنه كثير التزين والتلذذ ، بل جلُّ نفقاته على الحروب ووجوها ، وصدقائه ، وهباته ، ورغم ذلك فقد ترك ثروة كبيرة (٢) .

وأما الواثق ، فكان عهده عهد تسلط ونفوذ الاتراك ، ولم يستطع أن يوقف هذا السيل الجارف ، فعم البلاء والفساد ، حتى أن الدولة لم تعد تأمن من عمالها وكتاب دواوينها على أموالها ، فلجئت إلى المصادرة إذا وجدت الأدلة على وجود الخيانة (٣) .

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٩ ، ص ٢٩٦ .

(٢) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ، ص ٢٠٩ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ١٠ ، ص ١٢ .

ورغم ضخامة موارد الدولة في عهد المتوكل ، إلا أن كثرة النفقات كانت تؤدي إلى عدم التوازن بين الإيرادات والمصروفات ، خاصة وأن المتوكل شيد عاصمة جديدة أسرف في الإنفاق عليها ، مما أدى إلى المصادرات . ويخبرنا المسعودي حجم نفقاته " أنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل (١) .

وقد أدت كثرة النفقات إلى قلة ما في بيوت المال من أموال ، حتى أن المتوكل لم يتمكن من توفير الجيش لغزو الروم ، كما فعل أسلافه الرشيد والمأمون والمعتصم من قبل ، مما حدا بالروم التجروء على الدولة العباسية ، وربما اضطر المتوكل إلى اصطناع قوة عسكرية من العرب والمرتزقة لمجابهة نفوذ الأتراك . وكانت هذه القوة قد كلفته هذه الأموال ، مما أدى إلى شح أمواله .

وكان للاضطرابات والحروب التي قامت في الدولة أثر على خزينة الدولة التي فنيت من كثرة ما أنفق من أموال على الجيش ، وأغلبيته من الأتراك الذي خرج لتأديب الخارجين على الدولة .

وكما كان الخلفاء العباسيون يغرقون أموالاً كثيرة على أفراد البيت العباسي، وعلى الحرس الخاص ، وأنفقوا كذلك المنح والهبات والعطايا للأدباء والشعراء والعلماء والندماء ، ومن يلوذ من ذوي الحاجة .

وقد أنفقت الدولة أموالاً باهظة في إعداد الجيوش وتجهيزها بالمؤن والعتاد. وكما كان العباسيون يعملون على استرضاء بعض الثائرين بالمال ليكفوا عن مناوأة الدولة ، وينفقون كذلك على أهل مكة والمدينة . وكما كانت الدولة تكافئ قوادها الذين أظهروا براعة وشجاعة في التغلب على أعدائها .

(١) المسعودي ، التنبيه والأشراف ، ص ٣١٣ .

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف أثرت الحركات والفتن والثورات التي قامت في دمشق على خزينة الدولة العباسية ؟

لقد استغل أهالي الشام تزعر حبل الأمن في الدولة نتيجة الثورات التي قامت بين الحين والآخر لأسباب اقتصادية أو قبلية أو سياسية في نهب الأموال ؛ إذ تعرضت أموال الدولة العباسية لنهب في دمشق عندما كان عبدالله بن علي مشغولاً في تأديب ومحاربة أبو الورد السفيناني ، ولكن عبدالله بن علي عاد وسيطر على الوضع وأخذ أموالها .

والحقيقة أن الأموال التي كانت بحيازة عبدالله بن علي كان قد استغلها في كسب ولاء أهل الشام إلى صفه للوقوف في وجه عمه المنصور ؛ إذ أخذ يعطي الأموال لأهل دمشق ، ولكن أهل الشام تراجعوا عن موقفهم بعدما لمسوا تهديد العباسيين لأموالهم في الشام (١) ، مما أدى إلى أن يأخذ أبو مسلم أموالهم وأموال ابن علي ، وإرسالها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور (٢) .

ويلاحظ على هذه الثورات أن المال هو أساس قيامها ، ولنا أن نستدل على أهميته من أنه كان سبباً في القضاء على الفتن التي قامت في بلاد الشام في عصر الرشيد بين القبائل الشامية ، فتم الإصلاح بينهم بعد إعطاء قادتهم وزعمائهم قدراً من المال (٣) .

وعلى الجانب الآخر ، يلاحظ أن المال كان من أسباب هزيمة مروان بن محمد أمام العباسيين في موقعة الزاب ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م ؛ عندما اندفع جنوده وانشغلوا بأخذ الأموال التي وضعت في مؤخرة الجيش وتركوا القتال ، وكما أنه سبباً في هزيمة عبدالله بن علي أمام الخليفة أبي جعفر المنصور .

(١) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ ، المنبجي ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، ص ١١٨ .

(٢) ابن أعم ، الفتوح ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

وتبرز أهمية الأموال وتأثيرها على خزينة الدولة في أنها كانت سبباً في قيام عدد من الحركات في دمشق والشام ، وأنها كانت من عوامل انتصار طرف على آخر ومن بين الحركات التي قامت ، ثورة الفلاحين ، وعرفت بالمبرقع ، قامت من أجل تحسين أوضاعهم ؛ بدليل انضمام كثير من الفلاحين إليها .

ونتيجة لقيام الثورات وما سببته من فوضى اجتماعية فقد انعدم الأمن على الطرق التجارية وتعرض الكثير من التجار إلى القتل والنهب والسلب ، ولذلك لم تتوقف الدولة عن متابعة هؤلاء اللصوص والحرامية الذين كانوا يعيقون الدولة، وعرفوا بالزواقل (١) ، وقد كانوا يشاركون في الحركات التي قامت لتحقيق أطماعهم . فقد اشتركوا في فتنة أبي الهيثم المري في دمشق (٢) ، وشاركوا كذلك في الصراع بين الأميين والمأمون (٣) ؛ طمعاً في الحصول على المال . وعليه فإن ظهورهم كان نتيجة الوضع القائم الصعب ، فهم من الطبقة الفقيرة في المجتمع ، والذين وجدوا في قطاعة الطريق سبيلاً للقمّة العيش، ومن ثم انخرطوا في الحركات التي قامت ضد الدولة من أجل الحصول على المال .

وهكذا كان للأموال الأثر الكبير على الوضع الاقتصادي في دمشق ، خاصة وأن المال أساس أي اقتصاد ، إذ لا يمكن أن يكون هناك زراعة أو صناعة دون توفيره . وفي ظل الظروف التي تمر بها دمشق - وأعني الثورات التي قامت - فقد انعكس تأثيرها على كافة الميادين الاقتصادية ، فعاشت دمشق

وسط أوضاع سيئة ، فكثر الاعتداءات على الأراضي الزراعية والطرق التجارية ، مما انعكس سلباً على الأسواق والحياة التجارية في البلاد .

(١) الزواقل : هم عرب ينسبون إلى زوقل بن حبيط بن قدامة ، وهم ثلاثة بطون عزة وقابوس وعجمي ، وينتمون في النسبة النهائية إلى بني كلاب (قيسية) ، ويعرفون أحياناً بالأعراب ، وينسبون إلى الشام والجزيرة وقد شاركوا مشاركة فعالة في فتنة أبي الهيثم وفتنة نصر بن شيبث ، وكانوا يسكنون حوران . احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ٢٣٤ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٨ ، ص ٢٦٢ ، انظر الفصل الثاني من الدراسة .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٨ ، ص ٢٤٨ .

وفي ظل هذه الظروف والأحوال كثرت الضرائب على الناس ، مما أدى إلى زيادة معاناتهم ، ولدينا رواية من المنبجي تصور حالة البلاد في عهد المنصور مثلاً ، يقول : " فعسف الناس جميعاً ، وألزمهم نوائب وكلفاً لم يتقدمه فيها أحد من الملوك ، وضيق عليهم تضيقاً شديداً حتى لم يبق إنسان من الصنائع ، ولا طواف ولا حمال ، ولا حفار القبور ، ولا فلاح ، ولا متصدق ، ولا صنف من صنوف الناس حتى ألزمهم الخراج ، وأخذ أموالهم ، واشتد بالناس البلاء ، وبلغ الجهد حتى أن بعضهم حفر القبور وأخذ الجيف وطحنها وأكلها ، ذبحت الكلاب وشويت وبيعت في الأسواق ، وفنيت الدراهم من أيدي الناس ، ولحقهم من البلاء مالا يوصف " (١) وبالرغم من أن هذه الرواية تصور الحالة في عهد المنصور ، وما ألزم على الناس من ظلم وجور من جراء ضروب من الجور تخللت عملية التعديل التي أدت إلى انتشار التعامل بالربا ، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون قد حصل مثله فيما بعد ، وإلا لماذا نسمع عن التعديل بعد فترة .

(١) المنبجي ، المنتخب من تاريخ المنبجي ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

العنوان:	أثر الحركات الفتن و الثورات في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في العصر العباسي الأول من سنة 132 هـ / 247 هـ / 750 م / 861 م
المؤلف الرئيسي:	الرقب، نائل عبدالحميد عبدالرحمن
مؤلفين آخرين:	خريسات، محمد عبدالقادر(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2003
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 239
رقم MD:	548579
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الحركات الثورية، الأحوال السياسية، العصر العباسي الأول، الأحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/548579

الفصل الرابع

أثر الحركات على الأوضاع الاجتماعية

- العصبية القبلية في دمشق
- الحياة العامة في دمشق
- الفئات الاجتماعية ومظاهر الحياة في جند

دمشق

- أ- السكان
- ب- الفئات الاجتماعية

الفصل الرابع

أثر الحركات (الفتن والثورات) على الأوضاع الاجتماعية

١ - العصبية القبلية في دمشق

لعبت القبائل العربية في الشام زمن الأمويين دوراً في القضايا السياسية في أمن المنطقة عموماً ، نتيجة اعتماد معظم خلفاء بني أمية على هذه القبيلة أو تلك ، مما أثار التنافس بين أبرز قبيلتين من قبائل الشام ، وهما قبيلة كلب في الجنوب ، وقبيلة كلاب في الشمال ، ونتج عن ذلك عدم استقرار سياسي في بلاد الشام خصوصاً في السنوات الأخيرة من الحكم الأموي ، عندما استطاع مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان أن يستولي على الخلافة بمؤازرة بطون من قبيلة كلاب القيسية . وغدت زعامة قبائل الشام معقودة لقبيلة كلاب القيسية طوال فترة خلافة مروان بن محمد ، ولكن الأمر تبدل بمجيء العباسيين الذين استغلوا نقمة الكلبيين على خصومهم .^(١)

إن ما ثار من عصبية قبلية ومنافسة سياسية بين اليمانية والقيسية بالشام يحوم على أجواء المنطقة ؛ إذ أن كل فريق منهم يعتقد أنه لا يقل عن الآخر بل يكافؤه ويساويه ، ويرى أنه أولى بالسلطان منه ، وقد بدأ الخلاف بينهم بعد موت معاوية بن يزيد ، إذ كانت اليمانية مؤيدة لبني أمية ، وكانت تبتغي أن تكون الخلافة لخالد بن يزيد لأنه ابن أختهم^(٢) . إلا أنهم عدلوا عنه لصغره ، وبايعوا مروان بن الحكم لأنه سيد بني أمية ، وشيخ قريش . وكانت القيسية تؤيد عبدالله بن الزبير ، ويدعون بالخلافة له ، فلما تعارضت آراؤهم ، واختلفت أهواؤهم ، اقتتلوا بمرج راهط ، فهزمت القيسية شر هزيمة ، وازدادت الخصومة بينهم على مرّ الأيام ، وجعل كل منهم يتربص بالآخر^(٣) .

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٢٦١ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٥ ، ص ١٣٣ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٦ ، ص ٥٣٣ ، ابن الأثير

الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٠٨

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٥ ، ص ١٣٣ .

ظل الصراع القبلي سمة بارزة خلال العصر الأموي حتى جاء الخليفة مروان بن محمد الذي وجد نفسه مضطراً لإيجاد سياسة متسامحة تجاه القبائل في بلاد الشام وكسب ود وخواطر هذه القبائل ، إذ أوكل اختيار من يرضونه لولاية أجنادهم ، فاختار أهل دمشق زامل بن عمرو الجبراني . (١)

ومع ذلك لم تتجح سياسته في الحدّ من النزاع إذ بدأت بذور العصيان على الدولة تظهر هنا وهناك ، وكان أهل حمص أول من شق عصا الطاعة على مروان ، وتبعهم أهل غوطة دمشق وفلسطين ، إلا أن مروان حرك الجيوش لمعاقبة الخارجين على الدولة ، وعلى ولاية الدولة في أقاليم بلاد الشام ، وتمكن الجيش من أن يلحق الهزيمة بأهل الغوطة ، وأن يستبيح عسكرهم ، وأحرقت المزه مركز كلب وقرى يمانية أخرى . (٢)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد استطاع جيش مروان (جيش الخلافة) من إلحاق الهزيمة بأهل فلسطين ، وقائدهم في العمليات العسكرية وهو ثابت بن نعيم الجذامي الذي فرّ بعد فشل حركته في فلسطين ، إلا أن مروان جدّ في طلبه ، فحُمِل عليه وصلبه على باب مسجد دمشق وقتله . (٣)

وكان من أسباب تأجج العصبية في العصر الأموي هو سياسة الولاة على الأقاليم المتبلورة بالميل إلى جماعة ما ، وصراع البيت الأموي ، إضافة إلى سوء الأوضاع الاقتصادية وما ترتب عليها من فقر وبؤس .

وقد كانت المصاهرات بين القبائل والعشائر أحد الأسباب التي أججت هذه العصبية ، لا سيما بين أفراد البيت الأموي ، ويذهب إحسان النص إلى القول أنه بسبب المصاهرات : " وجدنا خلفاء بني أمية وولاتهم وأشرافهم ينحازون تارة إلى قيس ، وتارة إلى كلب ، وتارة إلى غيرهما ، وكان إيثار إحدى القبائل على غيرها

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٧ ، ص ٣١٢ .

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٣٢١ ، ابن الأثير الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢٨٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٣٢ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٣١٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢٨٦ .

مدعاة لغضب القبائل وسخطها على الخليفة والوالي ، بل أن هذه المصاهرات قد أدت إلى وقوع الخصومة والنزاع بين أبناء البيت الأموي أنفسهم ، فمن كانت أمهاتهم من قيس كانوا يؤيدون هذه القبيلة ، وربما حرضوا على الثأر لها ، وعلى الإيقاع بهم ، فقد جاء في شرح الحماسة أن خالد بن يزيد لما ضاق بافتخار أبناء القيسيات من بني أمية عليه حرّض حميد بن بحدل الكلبي على الإيقاع بقيس .. " .^(١)

لقد تراجعت المكانة السياسية لقبائل الشام عموماً منذ انهيار العرش الأموي، فقد انصب اهتمام العباسيين بشكل رئيسي على الأجزاء الشرقية من الدولة كما قربوا الخراسانيين وعينوهم في المناصب ، وفي الجيش ، فكان هذا إضافة إلى ما قاموا به من فظائع في بلاد الشام ، أحد أهم العوامل في ثورة قبائل الشام قيسها ويمنها ضد العباسيين إبان خلافة السفاح .

وكان لسياسة خلفاء بني أمية مع القبائل والتي تحيزوا فيها إلى جانب وتعصبوا فيها على الجانب الآخر أثر كبير في سقوط دولتهم وتسيير الأمور لدخول العباسيين بلاد الشام فأدى تقريب آخر خلفائهم - مروان بن محمد - القيسية إلى ابتعاد اليمانية عنه^(٢) وعدم مساندته في حربه مع العباسيين^(٣) ، بل غنهم سهلوا للعباسيين دخول الشام ففتحوا أبواب دمشق للعباسيين^(٤) ، منهين فترة المقاومة التي أبدتها المدينة في وجه العباسيين .

(١) حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ص ١٣٠ ، إحسان النص ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

- (٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ٣٢١ .
- (٣) ابن قتيبة : الإمامة ، جـ٢ ، ص ١١٧ ، ١٢٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ٤٥٤ .
- (٤) ابن اعثم ، الفتوح ، جـ٨ ، ص ١٨٦ ، الأزدي : الموصل ، ص ١٣٥ ، ابن كثير : البداية ، جـ١٠ ، ص ٤٤-٤٥ ، بيطار : الحياة السياسية ، ص ٥٠ .

ومع انتقال مركز الحكم إلى العراق ، فإن خلفاء بني العباس وولاتهم على الشام ركزوا في إدارتها على القبائل فمالوا في أول عهدهم إلى القبائل اليمانية وقربوها ، ويرجع قيامهم بذلك إلى عدة أمور ، أولها أن تقريبهم لهم كان مكافأة على موقفهم معهم سواء أثناء الدعوة في خراسان ، أو في حرب مروان في الزاب ، أو أثناء الدخول العباسي للشام وبالتحديد في حصار دمشق . والأمر الثاني أنهم أرادوا من ذلك استمالهم إلى جانبهم في تصديهم للحركات القيسية التي قامت ضد العباسيين في أول الدولة ، كحركة أبي الورد وإسحاق بن مسلم وحبيب المري ^(١) ، أو على الأقل تحييدهم فلا يساندوا تلك الحركات ، وبالإضافة لذلك فإن العباسيين بسياساتهم هذه فرقوا بين أهل الشام ، واستغلوا ذلك في تثبيت مركزهم واستقرار سلطتهم وإحكام سيطرتهم على هذا الجزء من الدولة .

وعلى الرغم من أن الخليفة المنصور قد أظهر ميله لأهل اليمن من قوله لابنه المهدي يوصيه : " أي بني إني أعرف بالناس منك ، وأطول تجربة فعليك بأهل اليمن والإقبال عليهم " ^(٢) ، فإن سياسته مع القبائل أراد منها تحقيق الأمن في البلاد ، فكان يضرب القبائل ببعضها ، " فإذا فسدت عليه مضر ضربها باليمن ، وإذا فسدت اليمن ضربها بمضر " ، وفعل الأمر نفسه مع الجنود في جيشه فصيرهم أحزاباً كل حزب يضرب الآخر ^(٣) . كما أن سياسة المنصور مع ولاته كانت تقوم على قصر مدتهم ، فلا يبقينهم في الولاية مدة طويلة ^(٤) ، وهذا أراحه من إستفراد الولاة في أجناد الشام ، وميلهم إلى جانب دون آخر لاتخاذ الأعوان له .

(١) بيطار : الحياة السياسية ، ص ٥١ ، علي : تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي ، ص ٢٥ .

(٢) الأزدي : تاريخ الموصل ، ص ٢٢٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٠٦ ، مجهول : تاريخ الدولة العباسية ، مخطوط ، و ١٢ ب ، سليمان : الدولة الاسلامية في العصر العباسي ، ص ٨٨ .

وقد أدت هذه السياسة إلى ضمان الإستقرار في البلاد ، إلا ما كان من بعض تصرفات الولاة في منطقة الجزيرة الذين مالوا للقبائل القيسية وتعصبوا ضد اليمانية ^(١) .

وغدت القبائل الشامية مجرد عنصر مفسد للأمن ومثير للقلق ، ففي خلافة الرشيد (١٧٠هـ / ٧٨٦م) ظهرت القبائل الشامية كقوة بنظر العباسيين في وجه السلطة العباسية عندما ثارت بطون من قيس في دمشق وحمص وحوارن ومناطق أخرى ، ونجح أبو الهيثام المري عامر بن عمارة زعيم القيسية في الشام في عام (١٧٦هـ / ٧٩٢م) بالاستيلاء على دمشق وطرد الوالي العباسي منها ، كما أحرق قرى عديدة لليمانيين في الغوطة وهزمهم في معارك عديدة . ^(٢)

ويبدو أن إدراك الرشيد لأهمية التوازن القبلي في بلاد الشام ، ودوره في استتباب الأمن في هذه المنطقة كان وراء استبداله للعديد من ولاة دمشق بعد فشلهم في معالجة الفتنة إلى أن نجح واحد من كبار رجال دولته ، هو موسى بن يحيى البرمكي في إصلاح الأمور واخلاد الفتنة . ^(٣)

وقد انتهج الرشيد السياسة نفسها عندما تجدد النزاع القبلي بين قيس واليمن في عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م في كل من حمص ودمشق والأردن وفلسطين حيث نجح وزيره جعفر بن يحيى البرمكي في معالجة هذا النزاع ^(٤) .

- (١) الأزدي : تاريخ الموصل ، ص ٢١٧ .
 - (٢) انظر إلى الفصل الثاني من الدراسة .
 - (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، م ١٧ ، ص ٤١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .
 - (٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج ٨ ، ص ٢٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٢ .
- وعندما أسند الرشيد ولاية الشام بعد عام ١٨٠هـ/٧٩٦م لواحد من أقدر رجالات البيت العباسي وأكفأهم ، وهو أخوه إبراهيم بن محمد المهدي المعروف بـ (ابن شكلة) ، إذ نجح إبراهيم ابن المهدي طوال السنوات الست التي كان فيها والياً على الشام في كسب قلوب أهل الشام ، كما حقق التوازن القبلي بين قيس واليمن ، امتنعت القبائل من التعرض لقوافل التجار والحجاج ، كما هادنه اللصوص وقطاع الطرق وكفّوا عن الفساد خلال فترة ولايته (١) .

وفي عام ١٨٧هـ/٨٠٢م سبب انحياز والي دمشق العباسي شعيب بن خازم لليمانية إلى استياء القيسية وإلى نشوب معارك ضارية بين اليمانية والقيسية راح ضحيتها الكثيرون ، ولم تنتهي إلا بتدخل الرشيد الذي كلف أحد مستشاريه بمصالحة الفريقين على أن يحمل الرشيد من ماله ما كان بينهما من الدماء ، كما أمره بعزل الوالي ، وأن يعين على دمشق من يرتضيه الفريقان (٢) .

ومن المؤسف أن الصراعات بين الفريقين اقترنت بعمليات انتقام واحراق دور كثيرة للفريقين ، مما أثر ذلك على الوضع الاجتماعي والاقتصادي لدمشق ، ومع أن المصادر لا تعطينا صورة دقيقة عن طبيعة الوضع الاقتصادي في ذلك الوقت إلا أنه مما لا شك فيه أن فئة كبيرة من ضحايا المعارك إنما كانوا من الطبقة التي كان لها تأثير كبير على المجتمع ، وهي الطبقة العاملة .

وهكذا نلاحظ أن الخلفاء العباسيين وولاتهم على دمشق ركّزوا في إدارتها على القبائل فمالوا في أول عهدهم إلى القبائل اليمانية وقربوها ، ويرجع ذلك إلى عدّة أمور منها : مكافأة لهم على دورهم البارز في الدعوة العباسية ، وميولهم تجاه العباسيين أثناء دخول العباسيين لمدينة دمشق ، وثانيهما : أنهم أرادوا أن يكسبواهم إلى صفوفهم

للتصدي للحركات القيسية التي قامت ضد الدولة في أول الدولة مثل حركة أبي الورد ، وإسحاق بن مسلم ، وحييب المري .

- (١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢، ص ٤٣٠ ، تهذيب ابن عساكر لعبد القادر بدران ، ج٤ ، ص ٢٦٨ .
 (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٤٣٩ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٨ ، ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ج٦، ص ١٨٩ .

وفي غمرة الصراع بين الأمين وأخيه المأمون على الخلافة ، وعندما أوشكت الكفة أن تميل لصالح المأمون عام ١٩٦هـ/ ٨١١م ، اقترح عبد الملك بن صالح ، وهو من كبار رجالات الدولة العباسية على الأمين أن يوليه الشام ليستعين برجالها لمحاربة المأمون ، وقال له : " أن أهل الشام قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد ، وجلهم منقاد إلى طاعتي ، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عددهم " . (١)

فولاه الأمين الشام والجزيرة عام ١٩٦هـ / ٨١١م ، وجّهه إليهما في جماعة من الخراسانيين ، وبذل له خزائن الذهب ، وكلفه الاتصال بقبائل الشام لهذه الغاية . (٢)

ولا بدّ من القول أن الأمين كان يعقد الآمال على نصره عرب الشام له في صراعه مع أخيه المأمون ، والذي كان في الحقيقة صراعاً على النفوذ العربي بزعمارة الأمين ، والعنصر الفارسي بزعمارة المأمون ، وقد حاول الأمين في هذا الصراع الاستناد إلى سيوف القبائل الشامية وإلى أهل الشام .

وظلت العصبية القبلية في الشام تؤرق خلفاء بني العباس ، فلم يستطع الولاة الذين تعاقبوا على دمشق من إيقاف هذه النار المتأججة باستثناء إبراهيم بن المهدي كما ذكرت ، وبعد أن انتهت ولايته على دمشق التي امتازت بالاستقرار ، سرعان ما عادت العصبية وأصبحت سمة الوضع السياسي في دمشق .

- (١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ١٠ ، ص ١٦٢ ، ابن الأثير الكامل، جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .
- (٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ١٠ ، ص ١٦٢ ابن الاثير ، الكامل، جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .

وعندما تسلّم المعتصم الخلافة عام ٢١٨هـ/٨٣٣م تعاقب على إدارة الشام ودمشق ولادة معظمهم من الأتراك والقليل النادر منهم عرب ، وقد امتازوا جميعاً بالكفاءة الإدارية والعسكرية ، إضافة لما امتازوا به من صفات فردية كالمروءة والجود والظرف ^(١) .

واخفقت في خلافة المعتصم محاولة لأسترداد مكانة العرب ، وعمد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) إلى اسقاط العرب من الدواوين وبذلك ضعف شأن العنصر العربي ، وغدت القبائل العربية في الشام شأنها شأن قبائل الجزيرة الأخرى مجرد عنصر مفسد للأمن ومثير للقلق .

وهكذا عاشت الشام فترة خرجت فيها قبائلها عن سلطة الخلافة العباسية ، وعبرّت عن عدم خضوعها لبغداد ، واتخذ بعض الثائرين من اسم السفيناني أحياناً شعاراً لجمع المزيد من المؤيدين ، كما نادى ثائرون آخرون بأنفسهم خلفاء معبرين بذلك عن عدم اعترافهم بخليفة العراق .

استمر الصراع بين اثنتين من أبرز قبائل الشام هما قبيلة كلب اليمانية وكلاب المضرية لفترة طويلة في العصر العباسي الأول ، وكانت الكفة تميل أحياناً لليماو أحياناً أخرى لكلاب .

وعندما بدأت سيطرة العنصر التركي في الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية، تضاءلت أهمية قبائل الشام ، وعانت من الفقر بعد أن كانت تعيش في بحبوحة أيام الحكم الأموي ، ولجأ بعضها إلى قطع الطريق وسلب قوافل الحجاج والتجار ، كما أغار بعضها على المدن في سنوات القحط .

(١) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، جـ ٣ ، ق ١ ، ص ٢٦ ، من بين الأسماء التركية التي تولوا دمشق نوشري بن طاجيل التركي ، واما جور التركي . الطبري ، تاريخ الرسل ، جـ ٧ ، ص ٣٥١ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٧ ص ٢٧٢ .

وفي أواخر النصف الأول من القرن الثالث للهجرة التاسع للميلادي ترددت أسماء عربية في خضم الأسماء التركية الكثيرة التي تتعاقب على تولي مدن الشام ، ولعبت قبيلة شبيان وهي من ربيعة التي انضمت إلى اليمن من خلال زعيمها عيسى بن الشيخ دوراً في تحدي سلطة العراق ، وكانت له مطامح سياسية استطاع أن يحقق بعضها عندما سيطر على بلاد الشام بأكملها ، وقطع المال عن بغداد ، ولكن سرعان ما أفل نجمه أثر هزيمته على يد القائد التركي أما جور ، واستكانت قبائل الشام من جديد إلى السلطة المركزية في حاضرة الخلافة ، واستمر ذلك إلى حين سقوط الشام بأكملها في قبضة ابن طولون والي مصر في عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م .^(١)

وقد ترتب على العصبية القبلية وما صاحبها من حروب إلى عمليات انتقام تم بموجبها حرق بيوتهم وقطع أشجارهم ، وإتلاف مزارعهم أثناء الفتن القبلية التي نشبت بين قبائل الشام القيسية واليمانية .^(٢)

لقد بدأ أبناء القبائل العربية بهجر قراهم وبيوتهم وأراضيهم وأخذوا يتوجهون إلى مناطق أخرى أو إلى المدن بحثاً عن سبيل آخر للقامة العيش . وكان هؤلاء

يتجمعون عادة في الضواحي ومشارف المدن مشكّلين طبقة جديدة عائمة في المجتمع غريبة عنه، وبعد أن كانوا يساهمون في إنتاج وتقديم الحبوب والخضروات واللحوم وغيرها إلى المدينة ، أصبحوا هم أنفسهم عبئاً عليها ، الأمر الذي ساهم في فقدان المواد وارتفاع الأسعار ، وزادت من حدة الأزمة الاقتصادية . (٣)

-
- (١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ . ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٢٦ .
 (٢) انظر الفصل الثاني من الدراسة .
 (٣) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٩٤ و ٤٩٥ .

ويستدل من التقسيم الإداري لبلاد الشام عندما تسلم العباسيون مقاليد الحكم عن مدى خطورة القبائل الشامية التي ناهضت العباسيين ، فقد عمد العباسيون إلى وضع أجناد قنسرين ودمشق والأردن تحت قيادة واحدة يكون عبدالله بن علي والياً عليها ، ووضع جند فلسطين والبلقاء تحت قيادة صالح بن علي ، وربما كان هذا الإجراء من العباسيين كرد مناهض للقبائل الشامية التي ناهضت العباسيين ، واستمر هذا التقسيم حتى عهد المنصور الذي أدرك مدى خطورة جمع مناطق كبيرة لوال واحد ، فعادت الشامات إلى أجنادها السابقة ، وعادت البلقاء إلى جند دمشق . (١)

ويتضح مما سبق أن الدولة العباسية كانت تلجأ إلى عزل مناطق عن الجند وضمها إلى جند آخر في محاولة لوضع حدّ للقبائل الشامية وغاراتها على جيش الدولة ، وما أن تهدأ الأوضاع تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل وضع هذا الإجراء.

وهكذا لعبت القبائل الشامية أهمية كبيرة في سياسة الدولة العباسية تجاه دمشق والشام ، بالرغم من أن العصبية القبلية كانت أحد الأسباب القوية التي كانت السبب في الانتصار العباسي ، فقد نهجت الدولة العباسية في سياستها تجاه القبائل إلى محاولة التفريق بين القبائل ، ومنع اتحادهم في محاولة لوضع الشام في حالة منعزلة عن الدولة حتى تلتفت إلى الأقاليم الأخرى ، ومثال على ذلك سياسة الولاة الذين أخذوا يشتدون في الميل إلى قبيلة دون أخرى والامثلة على ذلك في عهد الرشيد ، كما أن خروج أهل دمشق في عهد الواثق عن طاعة الدولة بسبب تعصب واليهم عبد الرحمن القرشي لأحد الحيين ابرز دليل على ذلك . (٢)

(١) محمد خريسات ، البلقاء منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، مجلة دراسات تاريخية، الجامعة الأردنية ، ص ٤٩-٦٣ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، م ٤٠ ، ص ٢٤٣ ، تحقيق سكيئة الشهابي .

ولكن الدولة غيّرت سياستها السابقة إلى سياسة الموازنة بين القبائل من أجل تكوين جبهة داخلية للتصدي للخطر البيزنطي ، ولكن العصبية القبلية لم تهدأ بالرغم من توقفها في بعض الفترات ، وقد حدا هذا بالمعتصم إلى استبدال الإدارة العربية في دمشق إلى إدارة تركية وإسقاط العرب جميعهم من الديوان .

الحياة العامة في دمشق

من الطبيعي في أي مجتمع يعيش حالة من عدم الاستقرار الداخلي ، ويعاني من عدم ضبط الأمور والفوضى لفترة طويلة أن يتولد لديه شعور من عدم الرضا ، لا يلبث أن ينقلب إلى رغبة بالتمرد ضد أوامر النظام ثم يتحول بعد حين إلى غليان داخلي يؤدي إلى انفجار وثور عارمة ضد النظام وأعوانه . (١)

وقد عانت دمشق كغيرها من المدن الشامية خلال الحكم العباسي من سوء إدارة عدد من الحكام وعسفهم وجورهم ، فكانت تربة خصبة لنمو الأخبار والأوضاع الاجتماعية السيئة التي كان يمرُّ بها الدمشقيون في تلك الفترة ، إذ كانت هذه الأحاديث تعم المتاجر والخانات والأسواق والدكاكين والساحات العامة والحمامات والمجالس الخاصة .

وكانت الأوبئة والمجاعات والزلازل قد أثرت على جميع مرافق دمشق وقراها ، بالإضافة إلى شطط العمال ورجال الدولة . وكان من أهم أدوات التخريب هو الصراع بين قيس واليمن والذي كان معظمه خارج حدود المدينة ، ولكن سبق تأثيره على مدينة دمشق ، فقد أثرت الحروب والمعارك على جميع مرافق دمشق ، فعمَّ الخراب المدينة ، وزاد التسلط على الفلاحين ، وتمردَّ كثير من أهل الزرع والضرع ، ونهبت الأموال .^(٢)

(١) رياض زركلي ، بلاد الشام منذ سقوط الدولة الأموية ، ص ٨٧ .

(٢) انظر محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، ص ٢٠٠ .

وإذا ما وقعت فتنة في دمشق كانت الغوطة ساحة حرب تحرق وتدمر أراضيها بفعل عبث المقاتلة ، مما أدى إلى إحلال البؤس والشقاء والجذب والغلاء . وكانت الغوطة يعود إليها أمنها بعد زوال الفتن التي تنتشب في أرجائها أو على أطرافها .^(١)

ووسط هذه الاعمال والأوضاع القاسية فقد كان عمال الخراج والضرائب يشتطون في الضرائب ، وخرجوا إلى الأسواق والحوانيت ليستوفوا الضرائب فكانوا إذا ولجوا حانوتاً فيه أمتعة بقيمة مائة دينار سجلوا خمسمائة دينار ، وإن وقفوا على ما ثمنه ألف دينار ، دونوا خمسة آلاف .^(٢)

وكان القائمون على جباية الأموال أو ما يسمّونَ بالمعشرين يستخدمون كل الأساليب التي تكفل ضمان سيطرتهم على المدينة ، بحيث لا تغيب عنهم لا شاردة ولا واردة ، فجاسوا في الأسواق والأنهار والمنازل والحوانيت والقصور ، وأقاموا الحواجز في الطرقات وعلى منافذ المدن ؛ فأصاب البلاد خسائر كبيرة .

ولم تكن السجون ولا السياط بعيداً عن كل ما يشكون في معاملته لهم ، إذ زُجَّ في غياهب السجون سجناء المعارضة والثورات والقضايا الاجتماعية ، ليموتوا تحت السياط والبرد والجوع ، فأطبقوا بذلك على كل ما تحمله المدينة من مال واقتصاد . (٣)

ويتحدث التلمحري في الفقرة السابقة عن الجزيرة وما كان يعاملوا به ، وما كان عليهم من ضرائب وجباية ، وإن من الطبيعي أن ننظر لارض الشام بمثل ما كان في الجزيرة بحكم أنها ترتبط مع الشام بالجوار ، فإذا ما حدث شئ في الجزيرة نجد تأثيره في الشام .

(١) محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، ص ٢٠٣ .

(٢) التلمحري ، التاريخ المنحول ، ص ٩٨-٩٩ .

(٣) أيمن التميمي ، السجون في العصر العباسي ، ص ١٣٥ .

وقد أدت هذه الأعمال إلى خلق جو مشحون بالقلق والتوتر والفوضى ، وإن دلت هذه الاحتجاجات على شئ إنما تدلُّ على وعي الرعية وجرأتها على انتقاد أولي الأمر ، ومحاولة تعديل الوضع القائم بأن اعلنت الثورة والتمرد ، فهذا إن دل على شيء إنما يدل على قسوة الحياة والأحوال ، فأرادوا أن يتخلصوا من الوضع القائم بشتى الوسائل حتى ولو بإعلان العصيان ضد الدولة .

واعتاد أهل الشام بسبب الحوادث والفتن المتكررة ، وبسبب الكوارث التي تعرضت بلادهم لها أن يكتنزوا المال لحين الحاجة ، ويدخرونه للأوقات العصيبة ،

وكانوا يكتنزون الذهب لأن هذا المعدن الثمين لا يطرأ عليه أي تغير إذا دفن في الأرض لآجال طويلة ، وظلت هذه العادة مستمرة إلى عهد قريب . (١)

وكانوا غالباً يخزنون مؤونة سنتين من الأقوات لمواجهة الأزمات وأيام القحط من الحبوب واللحوم المقددة والعسل والفاكهة المجففة والحلويات . (٢)

وقد شغلت الحمامات دوراً بارزاً في الحياه الاجتماعية في بلاد الشام وخاصة دمشق فقد كانت مناسبة لعقد الاجتماعات المرحية ، والتقاء أفراد الحي للمسامرة وتبادل الأحاديث حول مشاكلهم اليومية ، كما ارتبطت به عادات اجتماعية أخرى مثل مراسم الزواج ، وعلاوة على ذلك فقد كان الحمام متنفساً اجتماعياً نسائياً هاماً في الوقت الذي كانت الأمكنة التي يمكن للمرأة التردد عليها محدودة . فكانت الحمامات مركزاً هاماً لإقامة العلاقات الاجتماعية حيث كانت مخصصة لجميع سكان المدينة بطوائفهم المختلفة ، فالنساء كن يجتمعن بالحمامات مسلمات ونصرانيات . (٣)

(١) أبو الفضل الدمشقي ، محاسن التجارة ، ص ٦

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٠

(٣) فايزة حجازي ، أهل الذمة في بلاد الشام ، ص ١٣٧

وكان يوم السبت من كل اسبوع في دمشق يوم منادمة وطرب وترف واحتفال ، وكان هذا اليوم خاص بالطوائف اليهودية ، فلم يكن أحد يتخلف عن تعطيله والأضراب عن كل شغل فيه ، والانتشار في الميادين ، وبالإجمال كانت أيام السبوت في الفيحاء من أكبر الأعياد والمواسم تغلق فيها الأسواق وتعطل الدواوين والمكاتب ، وتهجر من أجلها حلقات التدريس في المساجد ، وتزدحم في الساحات

والميادين أصناف الخلق بأغرب الأزياء من الثياب المشهرة والمنسوجات البلدية
الموشاة الفائقة الصنعة .^(١)

ويضيف الزييات : "وفي هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حجر ، ولا للوالد
على الولد . ولا للزوج على الزوجة ، ولا للأستاذ على التلميذ ، فإذا كان أول النهار
يطلب كل واحد من هؤلاء نفقه يومه ، فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك والصبي
بأقرانه من الصبيان ، والزوجة بأخواتها من النساء ، والرجل أيضاً بأصدقائه ، فأما
أهل التمييز فيمشون في البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة ، وأما سائر الناس
فإلى الميدان الأخضر وهو محوط ، فرشه أخضر صيفاً وشتاء ، وفيه الماء الجاري
والمتعيشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم .^(٢)

ويظهر أن اختيار هذا اليوم للقصف والمنادمة على الشراب ، والبروز إلى
الحدائق والرياض لم يقتصر على دمشق بل عمَّ أكثر مدائن الشرق ، ولعل عادة
الاصطباح فيه مأخوذة من الفرس ، فقد حكى المسعودي أنه كان لهم يوم بهران أو
يوم رام ينقطعون فيه لمعاقرة المدام .^(٣)

(١) حبيب زيات ، أيام السبت في عهد العباسيين ، مجلة المشرق ، ص ٤٥ ، العدد ١٩٣٣ .

(٢) حبيب زيات ، أيام السبت ، ص ٤٥ ، انظر القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، وصف دمشق ،
ص ٢٠-١ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٢١ .

ويظهر أن عادة تكريم يوم السبت كانت منتشرة أيضاً في بعض أنحاء
المغرب والأندلس مأخوذة دون شك عن أهل الشرق ، ولكن مهما بلغ شأن يوم

السبت في جميع البلدان فلم يكن ، دون شك ، الا دون مبلغه في دمشق واحتفال أهلها به احتفالاً ساوياً فيه الغني الصعلوك والسيد المملوك .^(١)

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا كان لهو السكان يوم السبت تحديداً وليس الجمعة ؟ يمكن القول أن هذا تقليداً متبعاً منذ ما قبل الاسلام ، أو ربما أن معظم الصانع والحرفين والتجار كانوا من أهل الذمة ، لذلك كانت عطلتهم المفضلة يوم السبت ، بالإضافة إلى أن يوم الجمعة يوم بيع وشراء وصلاة .

وكان للأديرة^(٢) دور كبير في الحياة الاجتماعية حيث كان يتردد إليها الشعراء وطلاب المتع ، وكانت مكاناً للقوافل والمسافرين ، ومكاناً للبطالة والخلاعة^(٣) ، وقد ألقت الكتب العديدة عنها مثل ديارات الشابشتي وديارات الخالدين .

ومن الملاحظ على الديارات في دمشق أن أغلبها كانت في الغوطة أو بالقرب منها ، فهذا دير سمعان الذي بني على قمة جبل قرب الغوطة وحوله البساتين والأنهار ، وهو من كبار الأديرة ، وعنده دفن عمر بن عبد العزيز^(٤) ، ودير مران وهو على سفح جبل قاسيون ، وأشجاره متراكبة ، وماؤه يتدفق ، وقد نزل الرشيد عنده وشرب فيه ، ونزله كذلك الخليفة المأمون بعده^(٥) ، ودير صيدنايا وهو دير مشرف على غوطة دمشق وما يليها ، وهو دير كبير ويوجد فيه عين ماء ، ومن حوله البساتين ويزوره كثير من الناس أغلبهم من النصارى للتبرك ، وهناك كذلك دير شق ودير بلودان اللذان يقصدهما النصارى للتبرك .^(٦)

-
- (١) انظر حبيب زيات ، أيام السبوت ، ص ٤٣ .
 (٢) الدير : بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم ، إنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .
 (٣) الشابشتي ، الديارات ، ص ٣٠٤ .
 (٤) الاصفهاني ، الاغانى ، ج ٦ ، ص ١٩٥ ، ج ٧ ، ص ٥٥٥ ، العمري ، مسالك الابصار ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .
 (٥) العمري ، مسالك الأبصار ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ .
 (٦) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

وعلاوة على ما قامت به الأسواق من بيع وشراء وإبرام الصفقات التجارية ، فقد كانت هذه مكاناً مناسباً لمزاولة العديد من النشاطات الاجتماعية والثقافية لرجال الحديث وغيرهم ^(١) ، وكما كانت بحكم الازدحام والاختلاط فيها مركزاً محتملاً للدسائس والفتن ، ولهذا خضعت للمراقبة الدقيقة من قبل السلطات . ^(٢)

وتمتعت المرأة العربية عموماً بالحرية وتقدير المجتمع خلال العهد العباسي ، وعندما غلب الموالي على الخلافة العباسية ، وأدخلوا كثيراً من التقاليد الغربية على المجتمع العربي ، وكثر الاختلاط ، وأقبل الناس على الزواج من الجواري والإماء من مختلف الأجناس ، فتغيرت النظرة إلى المرأة العربية ، وأدى كثرة الجواري واختلاطهن بالحرائر إلى ظهور عادة الحجاب بعد ذلك بقصد التمييز بين الإماء والحرائر . ^(٣)

وعلى الرغم من الفتن والاضطرابات التي حدثت خلال هذه الفترة ، إلا أن مدينة دمشق لم تتوقف عن الاتساع زمن العباسيين ، بل نكاد لا نبالغ إذا قلنا أن معظم الخلفاء خلال هذه الفترة قد أموا دمشق ، وأقاموا فيها ، وإن حدثت فتن أثناء هذه الفترة إلا أنها لم تحد من هذا الامتداد . ^(٤)

ويخيل للباحث لأول وهلة أن العباسيين عندما تسلموا الخلافة أهملوا مدينة دمشق ، وأن عمرانها لم يزد عما كان عليه في العصر الأموي ، وبالرغم من أنهم ابتدأوا حكمهم بهدم سور المدينة ، وما قاموا به من استتصاف للقادة والأملاك إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاهتمام بدمشق ، والحقيقة لم يكن عهد الدولة العباسية عهد انحطاط لمدينة دمشق ، بل امتد العمران في الجنوب الغربي نظراً لسهولة إيصال الماء عبر القنوات المختلفة ، فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية في ازدهار حركة

(١) الفسوي ، المعرفة والتاريخ ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية ، جـ ٣ ، ص ٢٣٢ .

- (٣) رياض زركلي ، بلاد الشام ، ص ١٢١ ، نقلا عن ناجي معروف ، الحضارة العربية ، ص ٣١٦ .
 (٤) محمد خريسات ، التوسع العمراني في مدينة دمشق ، المؤتمر الخامس لبلاد الشام ، ص ٤٠٨ .

العمران فيها ، فقد أُقيمت المحلات الجديدة ، والمروج والميادين ، وكثرت البساتين ، وأصبحت ضياع الغوطة كالمدن ، وهي المزه وداريا وحرستا وبلاس وبيت لاهيا وعقربا .^(١)

وبالرغم من أن العباسيين ابتدأوا حكمهم بهدم سور دمشق حجراً حجراً كما يقول المقدسي إلا أن هذا لا يمنع من اهتمام الخلفاء العباسيين بدمشق وبناء سورها وبناء دار إمارة سميت بدار القصر^(٢) ، ويتضح ذلك من النص الذي أورده ابن عساكر ، وجاء فيه (ولم يزل ملوك بني العباس تحف إلى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر)^(٣) . وفي عهد العباسيين تم هدم الدار الخضراء (دار معاوية) ، وأقاموا مكانها سوقاً ، وكانت في السابق مركزاً للشرطة وسجناً .^(٤)

ولما تسلم المنصور الخلافة اهتم بدمشق ، وخاصة قياس مساحتها حتى يتسنى له أن يجري عليها الضرب ، وقام الفضل بن صالح والي دمشق بعمل أبواب للمسجد وبناء القبة التي في الصحن^(٥) ، ولكنها تعرضت للهدم من قبل السندي بن شاهك أمير دمشق أيام الرشيد عندما قامت العصبية القبلية بين القيسية واليمانية، وتعرضت قرى اليمانية بنواحي دمشق للحرق والنهب .^(٦)

(١) حرستا : قرية عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ .

داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ .
 بيت لاهيا : قرية مشهورة بغوطة دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٢٢ .

عقربا : اسم مدينة الجولان وهي كورة من كور دمشق كان ينزلها ملوك غسان ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٣٥ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٣٨ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٠ ، ص ٢٧٧ ، الصفدي ، امراء دمشق ، ص ٦٥ .

(٤) ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٣ ، ص ٤٨، ٨٩ ، محمد خريسات ، التوسع العمراني في دمشق، ص ٤١٠ .

(٥) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٢٠ ، ص ٢٧٧ ، خريسات التوسع العمراني ، ص ٤٠٥ .

(٦) لمزيد من التفاصيل أنظر الفصل الثاني من الدراسة .

وحظيت دمشق باهتمام المأمون الذي اتخذ قصراً له بدير مران سنة (٢١٥هـ / ٨٣٠م) ، وهو على سفح جبل قاسيون خارج دمشق ، وقام المأمون بإرسال حرب بن محمد بن حيان الطائي (ت ٢٢٦هـ / ٨٤٠م) لأجل مساحة دمشق فعدلها سنة (٢١٤هـ / ٨٢٩م) وفرق المعدلين في أجناد الشام لمساحتها .^(١)

وفي عهد المعتصم بدأ العمران يمتد خارج الأسوار بصورة واضحة ، وأبدى الناس اهتماماً بفلاحة الأرض وغرس الأشجار وجرّ المياه إلى الضياع ، وأقبلت الناس إلى سكن دمشق ، فعندما سئل إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم (ت ٢٣٧هـ / ٨٥٠م) والي المعتصم على دمشق سبب إقامته فيها قال : لا يطيق نزولها إلى الملوك ! قيل له : كيف ذلك ، قال : ما ظنك ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكل في غيرها الكبار .^(٢)

وكادت دمشق أن تعود ثانية عاصمة للدولة الإسلامية خلال هذه الفترة ، إذ قرر المتوكل الرحيل إلى دمشق لاتخاذها عاصمة له ، فقام بإعادة مسح الأراضي ، وأمر بنقل الدواوين ، وبناء القصور ، إلا أن مقامه لم يطل وعاد إلى بغداد بسبب الأتراك ، وفي أيامه تعرضت دمشق لزلزال مروع هُدم كثير من المنازل ، وقتل الكثير من الناس .^(٣)

واهتم العباسيون بإعمار الثغور بناء وترميماً ، واستحدثت حصون قوية الجانب ، ولكنهم لم يغفلوا العناية بإعمار المناطق الداخلية أيضاً ، مثل الاهتمام بالمساجد والمرافق العامة كالقنوات والجسور والخانات .

- (١) العمري ، مسالك الابصار ، ج٢ ، ص ٣٥٣ ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٦ .
- (٢) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج ٤ ، ص ٣١٧ ، خريسات ، التوسع العمراني ، ص ٤٠٧ .
- (٣) اليعقوبي ، ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ، ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٣٦٠ .

ويلاحظ على الحركة العمرانية في بلاد الشام ما يلي : أولاً : نشاط هذه الحركة في عهود الخلفاء العباسيين الأقوياء وفتورها في عهود الخلفاء الضعفاء .

ثانياً : إن الاهتمام بأمور العمران لم يكن تجديداً في معظم الأحوال ، بل استدعته كثرة التخریب الذي حدث بسبب الحروب من ناحية ، والكوارث الطبيعية من ناحية أخرى .

وكانت مدينة دمشق أحد أبرز المراكز الثقافية في بلاد الشام على الإطلاق بحكم أنها كانت عاصمة خلافة بني أمية ، فظل لها حضورها المتميز في العصر العباسي بما تزخر به من حلقات ومدارس وجلسات اضافة إلى علمائها الذين كان لديهم علم واسع . وثقافة فقهية مميزة إلى جانب اشتغالهم بعلم التاريخ والحديث .. .

وكانت دمشق تزخر بحلقات ومجالس العلم ، وكان يعقدها شيوخ الحديث ورجال العلم والأدب في المساجد ، وكان حديث شؤون الساعة وما تمرُّ به البلاد من عناء وقضايا تتخلل دروس العلم والأدب أحياناً ، وتحمل في طياتها في بعض الأحيان نقداً صريحاً للسلطات ، وقد تحدث الذهبي مثلاً عن إحدى حلقات العلم التي كان أبو مسهر عبد الأعلى ابن مسهر يعقدها في جامع دمشق ، وعن انتقاده الصريح للمأمون الذي كان يأمر بإيقاد نار عظيمة في قمة جبل قاسيون لتتير له دمشق ليلاً .^(١)

وكان أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر أحد أبرز علماء الشام في ذلك الوقت (١٤٠ - ٢١٨ هـ / ٧٥٧ - ٨٣٨ م) وكان المأمون يكنُّ له الضغينة لما بلغه من تأييده لأبي العميطر إبان ثورته ضد الأمين عام ١٩٥ هـ / ٨١٠ م . وكذلك لتعريضه بالعباسيين وتشبيهه إياهم بقوم عاد في أحد الحلقات التي كان أبو مسهر يقوم

بالتدريس فيها في مسجد دمشق ^(٢) . بيد أن المأمون لم يتخذ إجراء ضد أبي مسهر في حينه لمكانته في الشام. فلما رحل المأمون عن دمشق إلى الرقة ، أوعز بحمل أبي مسهر إليه ليمتحنه بخلق القرآن . ^(٣)

- (١) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ١٠ ، ص ٢٣٤ .
 (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ٣٩٦ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ١٠ ، ص ٢٢٨ ، ترجمة ابي مسهر الغساني .
 (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

وقد امتحنه المأمون شخصياً في خلق القرآن فأبى وقال : هو كلام الله وكان منطلقاً في رده من إيمانه بضرورة التمسك بما جاء عن السلف الصالح ، وأنه لم يرد عن الرسول (ص) أو الصحابة أو التابعين ما يؤيد ذلك ، فأمر به المأمون فجاء بالسيف والنطع ليقطع عنقه فأقر أن القرآن مخلوق لكنه ما لبث أن رجع عن قوله عندما رفع عنه السيف ، فأعيد إلى النطع فأجاب ، لكن المأمون لم يقف بقوله وأوعز بأشخاصه إلى بغداد حتى يستقر رأيه ، وقال له : " لو قتلها قبل أن أدعو بالسيف لرددتك إلى بلدك ، لكنك الآن تخرج وتقول قتلها فرقاً من السيف " . ^(١)

وقد أشخص أبو مسهر إلى بغداد في ربيع الآخر من عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م وحبس في سجن المأمون في بغداد أياماً لا تبلغ مئة يوم ، وتوفي في سجنه فأخرج ليدفن فشاهده قوم كثير من أهل بغداد . ^(٢)

وفي خلافة المعتصم والوائق اشتدت حدة المجابهة بين العلماء والجماهير وبين الخلفاء السابقين الذكر ، حتى أن الواثق أمر بضرب أعناق من لا يقر بخلق القرآن ، بيد أن الواثق رجع عن قوله بخلق القرآن .

وحين تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢ هـ / ٨٤٦م وضع حداً بإنهاء محنة خلق القرآن وكتب إلى الأفاق بإنهاء محنة خلق القرآن وأن لا يتكلم أحد بخلق القرآن وذلك في عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ^(٣) . وربما يعود السبب في ذلك إلى محاولته كسب علماء الأمة وجمهور العامة إلى صفة ضد الأتراك الذين غزوا مؤسسات الدولة وإدارتها .

- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ٣٩ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، تحقيق الشهابي ، الذهبي ، سير أعلام ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٠ .
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ٣٩ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، تحقيق الشهابي .
- (٣) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٤٨٤ ، الكندي ، الولاة ، ص ١٩٣ ، ١٩٧ ، ابن كثير البداية ، جـ١ ، ص ٣٣٧ .

وعندما نتوقف عند المحنة التي قادها المأمون سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م ضد الفقهاء لإرغامهم على القول بخلق القرآن ، نجد أن المحنة لا تبدو منسجمة مع تسامح المأمون الفكري وحبه للجدل والمناظرة وعنه يقول ابن طباطبا واصفاً المأمون بقوله: " أعلم أن المأمون كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال ، وله اختراعات كثيرة في مملكته ، منها أنه أول من فحص منهم علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ... " ^(١) وإذا كان المأمون يهتم بإعلاء شأن العقل ، لإعطاء العلوم والفلسفة مكانة بارزة ضمن الثقافة العربية الإسلامية ، فإن مجرد اتباع أسلوب القمع الفكري لإعلاء شأن الفكر ينطوي على تناقض كبير .

وكان الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه هو السائد في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين الثامن والتاسع الميلاديين ، وأوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، وكان يفد إلى هذه البلاد كثير من علماء العراق والحجاز وفارس ومصر والمغرب حيث ينشرون علمهم .

ويعتبر الإمام الأوزاعي أشهر محدثي وفقهاء الشام في القرن الثاني على الإطلاق ، ينسب إلى أوزاع وهم بطن من همدان من العرب اليمنية ، وقد اختلف في أصله بين أنه من الأوزاع ^(٢) أو من سبي السند ^(٣) ، وإنما قيل له الأوزاعي لأنه سكن بين أوزاع من الناس عاشوا على مقربة من دمشق وعمرها قرية سميت باسمهم ^(٤) ، ولد ببعلبك سنة (٨٨هـ / ٧٠٦-٧٠٧م) ، ونشأته في قرية من قرى البقاع تدعى

كرك - وقد سكن بيروت وتتنقل في طلب العلم ، وسافر في بعث إلى اليمامة ، وسمع من بعض شيوخها ، ورحل إلى مكة ، وأخذ العلم عن عطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري . ورحل إلى البصرة وسمع من شيوخها ، وقد تتنقل بين بيروت ودمشق ، وتوفي سنة ١٥٧هـ / ٧٧٤م في الحمام .^(٥)

-
- (١) ابن طباطبا ، الفخري ، ص ٢٣١ ، حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
 (٢) ابن سعد ، الطبقات الكبير ، ج ٧ ، ص ٤٨٨ .
 (٣) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ص ١٧٨ .
 (٤) انظر احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٠ .
 (٥) الذهبي سير أعلام النبلاء ، ج ٧ ، ص ١٢٧ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

وقد نال الأوزاعي احترام الناس والحكام في الدولتين الأموية والعباسية لصدقه وتواضعه وتقواه ، واشتهر الأوزاعي بصلاحه وقوة شخصيته وتمسكه بالحق أمام الخلفاء والأمراء ، وجهره بالنصيحة لهم ، وقد رويت له أخبار كثيرة في وعظ أبي جعفر المنصور ، وغيره .

وكان أبو جعفر كثيراً ما يخطب ود الأوزاعي ، فكتب إليه رسالة طلب منه فيها أن يكون له ناصحاً^(١) . ولبي الأوزاعي هذه الرغبة فكان يرسل إلى المنصور الرسائل في شؤون المسلمين ، واستغفى الأوزاعي المنصور من لبس السواد - شعار العباسيين - فأعفي احتراماً ، أو خشية ، أو هما معاً .

واكثر روايات الأوزاعي في الحديث معتمدة على شيخه الزهري يحيى بن أبي كثير ، وهو يقول : دفع إليّ يحيى صحيفة فقال إروها عني ، ودفع إليّ الزهري صحيفة وقال إروها عني .^(٢)

وفي مجال الفقه يقوم مذهبه على منهج الأتباع ، وقد انتشر مذهبه في بلاد الشام والمغرب والاندلس ، وظل أهل الشام يعملون بمذهبه حوالي مائتي عام .

وكانت للأوزاعي في خلافة المنصور حلقة في مسجد دمشق لرواية الحديث وتدريس الفقه دون تلامذته خلالها جميع احاديثه وفتاواه ومسائله الفقهية تقريباً ، هذا إلى جانب مناظراته الفقهية التي أجراها مع بعض مشاهير علماء تلك الفترة ومنهم مالك بن أنس والإمام أبي حنيفة . (٣)

بيد أن اشتداد الأوزاعي في نقده لسياسة السلطات العباسية أدى في أخريات أيامه إلى التشدد في فرض الرقابة عليه وإلى مضايقته ، وانفضاض الناس من حوله تحاشياً لغضب السلطات وعقابها .

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء جـ ٧ ، ص ١٢٥ .

(٢) مصورة ابن عساكر ، جـ ١٠ ، ص ٨٤ .

(٣) الذهبي ، سير أعلام ، جـ ٧ ، ص ١٢٨ ، وابن كثير البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ١١٦ .

وقد ادرك العباسيون ما للأوزاعي من قيمة وتأثير كبيرين في أهل الشام فعملوا على التقرب منه والتودد إليه ، وكان أول تماس بينهم وبينه في أعقاب هزيمة بني أمية على يدي عبدالله بن علي العباسي ، فقد استحضر عبدالله الأوزاعي إلى مجلسه ثم سأله عن دماء بني أمية وأموالهم ، فقال له الأوزاعي بجرأة نادرة : (قال رسول (ص) : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة . " إن كانت - أموال بني أمية - في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً ، فهي لا تحل لك إلا بطريق شرعي " . (١)

وكما كان أبو العباس الوليد بن مسلم الدمشقي (ت ١٩٤هـ / ٨١٠ م) أحد علماء أهل الشام ، وقد عاش في الفترة التي ازدهر فيها التصنيف ، وصنف الوليد سبعين كتاباً وكان يقال : "من كتب مصنفات الوليد بن مسلم صلح أن يلي القضاء" . (٢)

وكان الوليد ضليعاً في حديث الشاميين متميزاً في المغازي وأيام الناس وفي حفظ الأحاديث الطوال وأحاديث الملاحم ، وسئل عنه أبو مسهر فقال : كان من حفاظ أصحابنا . (٣)

وقد شهد الوليد بن مسلم فتنة أبي الهيثم ، وندبه أبو الهيثم ليدرس ابنه أبا عامر الحديث ، فكان الوليد يركب إليه فيحدثه ، لهذا كان عند أبي عامر من كتب الوليد ما لم يكن عند تلامذته الآخرين . (٤)

(١) ابن زيد الحنبلي ، محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي ، ص ٨١-٨٢ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٧ ، ص ٤٧١ ، ترجمة الوليد بن مسلم ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٥ .

(٣) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٩ ، ص ٤١٩ .

(٤) المصر نفسه ، ج ١٧ ، ص ٢٨١ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٥ .

وقد كان عبدالاعلى بن مسهر بن أبي ذرمة الغساني الدمشقي (١٤٠-٢١٨هـ / ٧٥٧-٨٣٣ م) أحد تلامذة الإمام الأوزاعي ، وقد حرص على جمع علم الأوزاعي ، وكان أبو مسهر حسن السميت يلبس البياض والساج والخف ، ويعتم على قلنسوة طويلة بعمامة سوداء ، وقد أصاب منزلة عالية لدى أهل بلده ، فكان إذا خرج إلى المسجد اصطف الناس يسلمون عليه ويقبلون يده . (١)

ولما قام أبو العميتر بثورته اتخذه قاضياً وظل في هذا المنصب حتى آلت ثورة أبي العميتر إلى الإخفاق ، وتقول بعض المصادر أنه ولي القضاء كرهاً ، وقد تعرض أبو مسهر لامتحان المأمون في مسألة خلق القرآن - كما ذكرت سابقاً - توفي في بغداد في سجنه سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م .

أما عن طرائق التدريس في الفقه فالمعلومات عنها قليلة جداً ، وكل ما يمكن أن نستنتجه منها هو أن لكل المعلمين لم يقتصروا في تعليمهم على الفقه ، بل كانوا يدرسون معه غالباً الحديث وأحياناً القرآن أيضاً . ونظراً لاهتمامهم بعدة مواد دراسية

فقد كانوا يوزعون وقتهم بين هذه المواد ويتفقدون مع الطلبة على برنامج لتدريس كل منها .

ففي القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي يذكر ابن عساكر أن خمس حلقات كانت تقوم في جامع دمشق في نفس الفترة ، وكان اصحابها مشهورين بالعلم (الحديث) والفقہ معاً مما جاء فيه :-

قال سعيد بن عبد العزيز (دمشق - ت ١٦٧ / ٧٨٤) : " كنا نجلس بالغدوات مع يزيد بن عبد الرحمن (أبي مالك) وسليمان بن موسى ، وبعد الظهر مع إسماعيل بن عبيد الله وربيعه بن يزيد ، وبعد العصر مع مكحول " . (٢)

(١) البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ١١ ، ص ٧٣ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٠ ، ٢٣٥ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٨٦ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٢٥٦ ، ترجمة سليمان بن موسى الأشدق .
ويلفت انتباهنا في دراسة الفقه في تلك الفترة ، الاعتماد الكبير على الأسئلة والأجوبة ، فقد كان الطلبة يوجهون الأسئلة للمعلم ، وكان المعلم يجيب عن أسئلة الطلاب فيسجلونها ويروونها عنه .

وكما ظهر في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي طائفة من المحدثين والفقهاء منهم محمد بن يعقوب المعروف بابن الفريضي وأبو عبدالله الأخفش (ت ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م) ومحمد بن يحيى أبو سعيد المعروف بحامل كفته (ت ٢٩٩ هـ / ٩١١ م) . (١)

ولم تكن بلاد الشام منغلقة على نفسها ، بل رحل كثير من علماء الشام في طلب العلم إلى دول العالم الإسلامي ، كما كانت بلاد الشام مقصداً لكثير منهم ، وكان علماء الشام ينتهزون فرصة الحج للالتقاء بعلماء الأمصار الأخرى ، ونقل علمهم إليهم ، وكانوا يستعدون لهذه المناسبة استعداداً كبيراً . فكان عبد الرحمن الأوزاعي (ت ٧٧٤ / ١٥٧) محدث الشام وفقهها يحج كثيراً ، وكان طلاب الأمصار الإسلامية

وعلماءها يفيدون كثيراً من اشتراكه بالموسم ويعاملونه باحترام شديد . وبعد موت الأوزاعي آلت أمانة أهل الشام في الحديث والفقه إلى الوليد بن مسلم (ت ١٩٥هـ/٨١١م) وكان الطلاب يأتون الشام لسماعه . (٢)

وقد تجمع في الشام خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي علم كثير نتيجة استقرار عدد كبير من الصحابة فيها ، وقيام أبنائها برحلات كبيرة إلى الأقطار الإسلامية الأخرى ، ولا سيما الحجاز ، ولذلك ظهرت فيها في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي شخصيات كبيرة في ميدان الحديث والفقه كمحكول والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وإسماعيل بن عياش والزهري ، ولكن ما لبث هذا النشاط أن تراجع في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي تدريجياً بسبب الظروف السياسية والاقتصادية للمنطقة .

(١) أنظر أمانة البيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، ص ٣٧٠ .

(٢) أنظر ملكة أبيض ، التربية والثقافة العربية الإسلامية ، ص ٣٠٥ .

وقد أهتم فريق من علماء الشام بالرواية التاريخية ، فرووا قصص المغازي والفتوح ، والأحاديث النبوية الطويلة وبخاصة أحاديث الملاحم ، وممن اشتهر براوية هذا الضرب من الأحاديث الوليد بن مسلم . (١)

وكان أهل الشام يولون الأخبار والسير اهتماماً كبيراً في الواقع . فقد كان بعضهم يهتم قبل الإسلام بالقصص الديني اليهودي أو المسيحي والبعض الآخر بأخبار ملوك اليمن ، وكان آخرون يهتمون بأيام العرب وأنسابهم ، وعندما اعتنق هؤلاء الإسلام انصرفوا إلى تداول الأخبار والسير المتعلقة بالإسلام كالمغازي والفتوح وسيرة النبي وسير كبار رجال صدر الإسلام وأخبار الزهاد والمتصوفة وغيرها . (٢)

والجدير بالذكر أن القرن الثالث الهجري شهد تراجعاً كبيراً من حيث عدد رواة الأخبار ، ولكنه تميز بظهور مصنفات جيدة لتلك التي ألفها محمود بن إبراهيم ابن سُمَيْع (دمشق - ت ٢٥٩هـ / ٨٧٣ م) ^(٣) وأبو مسهر عبد الأعلى الغساني (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) والذي اشتهر بمعرفة أيام الناس .

إن اهتمام علماء الشام بالرواية التاريخية يظل جزءاً من الاهتمام العام بالحديث النبوي وتدوينه ، وجلاء ما غمض أمره ، ولذلك كان المؤرخون هم المحدثين والفقهاء ^(٤) ، ولم يبدأ التصنيف التاريخي في بلاد الشام بمعزل عن علوم الحديث إلا في فترة تالية في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي .

-
- (١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٩ ، ص ٢١٥ .
 (٢) ملكة أبيض ، التربية والثقافة العربية الإسلامية ، ص ٣٠٥ .
 (٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٩ ، ص ٢١٥ ، وأمانة البيطار الحياة السياسية ، ص ٣٨٣ .
 (٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٤ ، ص ٧٨ .

هذا ويمكن أن نضيف إلى مراحل الاهتمام بالحركة العلمية : مجالس المناظرة التي كانت تتم في الدور والقصور والمساجد بين العلماء والأدباء ، حيث يبحث مسائل في الفقه والنحو والصرف واللغة والدين ، وعلى رأس هذه المناظرات، الجلسات العديدة التي حدث بين الأوزاعي شيخ علماء الشام في وقته وبين عدد من علماء وفقهاء عصره وأهمها تلك التي أجراها مع مالك بن أنس في المدينة . ^(١) والمناظرات الفقهية التي عقدها يحيى بن أكثم قاضي المأمون مع عدد من علماء الحديث الشاميين من أمثال هشام بن عمار أو أحمد بن أبي الحواري

وهو علم من أعلام الزهد في بلاد الشام . (٢) والمناظرة الفقهية التي عقدت بأمر من المأمون في دمشق مع أبي مسهر عام ٢١٨هـ في مسألة خلق القرآن . (٣)

وهناك أيضاً الندوات العلمية التي كان يعقدها عدد من ولاية الشام العباسيين ممن اشتهروا بحفظ الحديث وروايته مع علماء الشام ومحدثيها كتلك التي عقدها إسحاق بن إبراهيم بن صالح والي الرشيد على الشام عام ١٧٦هـ/٧٩٢م مع شيوخ وكبار الزهاد فيها ، وأبرزهم أحمد بن أبي الحواري (٤) . ناهيك عن الجلسات ذات المناظرات الأدبية حيث يقوم الشعراء والأدباء فيها بإنشاد القصائد الرائعة ، وقد أشرت الشعراء الشاميون في مناظرات شعرية مع شعراء آخرين في حضرة الخليفة أو الولاية كتلك التي كانت تتم بين الشاعر الشامي البحتري الوليد بن عباده ، وبين منافسيه في حضرة الخليفة المتوكل . (٥)

-
- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٠ ، ص ٣٥ ، ترجمة عبد الرحمن بن عمرو الأوزعي
 (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٤ ، ص ٤٤٤ ، ترجمة القاسم بن عثمان الجوعي .
 (٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٠ ، ص ٣٥ .
 (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .
 (٥) ابن خلكان ، وفيان الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٩٧ ، شوقي ضيف ، الحياة الأدبية في العصر العباسي الأول ، جـ ٢ ، ص ٢٧١ .

وكان ولاية دمشق الشام يساهمون في ازدهار الأدب بتشجيعهم للمجيد من الشعراء وبإكرامهم لهم ، ومنهم أبو دلف العجلي القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل والي الشام زمن المعتصم ، وقد عرف عنه تشجيعه للشعراء والأدباء (١) ، وكذلك مالك بن طوق والي الشام زمن المتوكل عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م .

كذلك كان أحمد بن المدبر والي الخراج على الشام زمن المتوكل يجزل العطاء لمن يمدحه بشعر جيد ، في حين يأمر خادمه بمرافقة من يكون شعره رديئاً إلى الجامع فلا يدعه حتى يصلي مئة ركعة ، وقد تسابق الشعراء في مدحه طمعاً في نواله . (٢)

وكان علماء الشام قد انكبوا على العلم وطرقه وكيفية تحصيله ، فقد رحلوا لجمع الحديث يستسهلون في سبيله الصعوبات ولا يأبهون للأخطار أو المسافات ، فقد سافر يحيى بن حسان أبو زكريا الشامي من أهل دمشق (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣م) إلى مصر في طلب الحديث (٣) ، وكما رحل الأوزاعي في طلب العلم إلى الحجاز حيث عقد في المدينة مع الإمام مالك بن أنس مناظرة في أبواب العلم المختلفة (٤) . على أن شهرة علماء الحديث من أهل الشام كانت تجتذب إليهم طلاب الحديث وجامعية من الأمصار الأخرى ، ذلك أن علماً كثيراً قد تجمع في الشام خلال القرن الأول للهجرة نتيجة استقرار عدد من الصحابة فيها ، وقيام أبنائها برحلات مختلفة إلى الأمصار الإسلامية لا سيما الحجاز . (٥)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٤ ، ص ١٧٤ ، ترجمة القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ .

(٣) الزركلي ، الأعلام ، ج ٨ ، ص ١٤٠ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٠ ، ص ٣٤ .

(٥) ملكة أبيض ، التربية والثقافة العربية الإسلامية ، ص ٤١٠ .

ويعكس العدد الكبير الذي قصد الشام لتلقي العلم على أيدي محدثيها في القرن الثالث للهجرة التاسع الميلادي أهمية هذا القطر بالنسبة لعلماء الحديث حيث بلغ

مئتان وثلاثة عشر عالماً^(١) في حين رحل منها إلى الأمصار الأخرى سبعة وسبعون عالماً ، وقد يكون السبب في قلة من رحل من الشام إلى الأمصار الأخرى هو أن بلاد الشام كانت تعاني خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة الثامن والتاسع الميلاديين من كثير من الاضطرابات السياسية والفتن القبلية ، وسوء الأحوال الاقتصادية التي كانت دون شك عاملاً هاماً من عوامل إحجام علماء الشام عن الرحلة في طلب العلم من الأقطار الأخرى .

إن ما عاشته دمشق بعد سقوط الدولة الأموية هي من أشد الفترات التي مرّت به تلك المدينة في تاريخها ، إذ لما سقطت دمشق في أيدي العباسيين قامت ثورات عديدة عبر فيها أهل الشام عن رفضهم للحكم العباسي ، ولكنها جوبهت بالمزيد من القسوة ، ومن الطبيعي أن لا يزدهر التعليم في مثل هذا الجو المضطرب والتربية المضرجة بالدماء .

وقد تطلب الوضع من الخلفاء العباسيين إلى اتخاذ عدد من الإجراءات بقصد إحكام قبضتهم على هذه الولاية والمدينة ، مثل مصادرة أملاك الثائرين وحشد قوات عسكرية دائمة باعداد كافية في دمشق لمجابهة أية فتن تنشب في هذه المنطقة ، إضافة إلى إسناد شؤون الولاية إلى عدد من أوثق أقربائهم مع الحرص على عدم إبقاء أي والٍ في ولايته لفترة طويلة .^(٢)

(١) ملكة ابيض ، التربية والثقافة العربية الاسلامية ، ص ٤١٠ .

(٢) انظر الفصل الأول والثالث من الدراسة .

وكما عمد الخلفاء إلى القيام بزيارات شخصية إلى هذه الولاية للتحري عن أحوالها كلما احتاج الأمر أو سمحت لهم الظروف ، فقد زار المنصور الشام واتخذ

من الرقة قاعدة عسكرية للسيطرة على المنطقة بكاملها ^(١) ، بيد أنه بالمقابل حرص على استرضاء فئة العلماء والفقهاء في ولاية الشام لما لهذه الفئة من أثر كبير على عقول العامة ، وخصوصاً البارزين منهم أمثال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي .

وقد زار الخليفة هارون الرشيد الشام بعدما كلف وزيره جعفر بن يحيى بإخماد فتنة قامت في دمشق في عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م ، وقد نجح جعفر بإصلاح الأمور فعلاً ، ومرت البلاد بفترة من الهدوء دامت حتى ١٨٧هـ / ٨٠٣م . ويعود الفضل في ذلك إلى واليها إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد . ورغبة منه في كسب ولاء أهل الشام حضر هارون الرشيد إلى الشام في ظل ظروف ومصاعب اقتصادية سيئة . ^(٢)

وقد امتنع معظم علماء الشام عن الاشتراك في هذه الفتن بالطبع ، لأن طاعة أولي الأمر من المبادئ الأساسية لأهل السنة ، ولكنه كان من الصعب عليهم في أن يقفوا إلى جانب الحكام ، لقد انصرف بعضهم للتعليم ، والتحق البعض الآخر بالرباط والجهاد ونذر آخرون أنفسهم للعبادة والتأمل ، ومن هؤلاء الآخرين تشكلت حركة الزهد والتصوف التي انتشرت انتشاراً واسعاً في الشام في بداية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ، جاذبة إليها جميع الذين أرادوا أن ينأوا بأنفسهم عن الصراع السياسي والعقائدي من جميع أطراف العالم الإسلامي . ^(٣)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٥ ، ص ١٣٧ .

(٢) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٠ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) ملكة ابيض ، التربية والثقافة العربية الإسلامية ، ص ١٨١ .

وقد مرت السنوات الخمس الأولى من خلافة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٨م) بالنسبة إلى الشام دون أية حوادث مما هيا الجو العام للمسيرة التعليمية بفرعيها الأولى والعالي . بيد أن الفتنة القبلية لم تلبث أن تفجرت في عام ١٧٦هـ / ٧٩٢م ، وعاشت الشام فترة من الاضطرابات امتدت حتى أواخر عام ١٧٧هـ / ٧٩٢م ، ومن الطبيعي أن تتعطل المسيرة التعليمية خلالها بعد أن غدت منابر المساجد وأساطينها منصات للخطابة وأماكن لتحريض الثائرين ضد السلطات، لا مواضع لتعليم القرآن وتدريس الفقه والحديث وغيرهما من العلوم .

وأخفق عدد من الولاة تعاقبوا على ولاية الشام خلال هاتين السنتين في إخماد فتنتها مع أن بعضهم اتبع سياسة الملاينة وتقرب إلى أهلها ^(١) ، ولم تنعم بلاد الشام بالاستقرار حتى بعدما توقفت تماماً ، لكن العوائق التي كانت تعرقل وتيرة اندفاعها كانت عديدة لا سيما وأن علماء الشام رغم عدم اشتراكهم الفعلي في هذه الفتن لم ينفقوا في صف الحكام . ^(٢)

وتميزت خلافة الأمين بتلاحق الفتن في الشام بحيث لم تكن الأوضاع السياسية تسمح بالدراسة أو التدريس في المساجد ، فقد قامت في دمشق في عام ١٩٣هـ / ٨٠٨م ثورة ضد السلطة العباسية وأجبر الثائرون في نهايتها الوالي على الفرار من المدينة بعد أن حاصروه في دار الإمارة . ^(٣)

وكان مسجد دمشق مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي وقد نقل ابن عساكر عن شيخ من القرن الأول للهجرة قوله : " عهدت المسجد الجامع بدمشق ، وأن عند كل عمود شيخاً وعليه الناس يكتبون العلم " ^(٤) .

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٨ ، ص ٣٩٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص ١٦٨ .

(٢) ملكة ابيض ، التربية والتعليم والثقافة العربية الإسلامية ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٧ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن عساكر ، المصدر المتقدم ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .

وقد تبلورت في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي حركة تدعو إلى الزهد والتصوف ، وقد ظهر في نهاية هذا القرن عدة مبادئ وآراء متصلة بالزهد على يد عبد الرحمن ابن أبي أحمد بن عطية العنسي ، المعروف بأبي سليمان الداراني (ت ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م) .

لقد استطاع هذا الزاهد الذي أقام بدارياً في غوطة دمشق استقطاب عدد كبير من التلامذة والأنصار الدمشقيين إلى الحد الذي جعل السلطة تخشى تأثيره فتبعده إلى الساحل . فرأى أهل دمشق أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا ، فخرجوا في طلبه وشفعوا به حتى ردوه . (١)

وقد تبع أبا سليمان الداراني عدد من زهاد الشام ، أبرزهم قاسم بن عثمان العبدي الجوعي (ت ٢٤٨ هـ / ٨٦٣ م) وأحمد بن أبي الحواري التغلبي (ت ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) .

أما القاسم الجوعي فقد كان محدثاً ، وكانت له حلقة دائمة بجامع دمشق ، ولكنه على ما يبدو حولها إلى حلقة للوعظ . (٢)

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي : " دخلت دمشق على كنية الحديث ، فمررت بحلقة قاسم الجوعي ، فرأيت نفرًا جلوساً حوله وهو يلقي مواعظه ، فجعلت فائدتي من دمشق (٣) ، وأما أحمد بن أبي الحواري فقد كان يلقب " ركانة الشام " لسعة معرفته بشؤون الزهد والزهاد ، وإليه يرجع الفضل في رواية ترجمات الزهاد وأخبارهم . (٤)

- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٩ ، ص ٢٥٩ ، ترجمة عبد الرحمن ابن احمد بن عطية .
 (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٤ ، ص ٤٤٤ .
 (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٤ ، ص ٤٤٤ ، ترجمة قاسم بن عثمان الجوعي .
 (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ٦٠ .

بدأ احمد بن أبي الحواري حياته العلمية بدراسة الحديث ، فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه كلها إلى البحر فغرقها وقال : " يا علم ، لم أفعل ذلك تهاوناً بك ولا استخفافاً بحقك ، ولكني أطلبك لأهتدي بك ، فلما اهتديت بك إلى الله واستغنيت عنك " . (١)

وقد كون المتصوفية في القرن الثاني الثامن الميلادي جماعات متفرقة تنسب كل منها إلى شيخها ، وقد انتشرت عادة لبس الصوف بينهم ، وقد اتخذ الصوفية في هذه الفترة صوامع خاصة منعزلة ليعيشوا فيها بعيداً عن جلبه الدنيا وضجيجها ، ولذلك فإنهم يختارون العيش في الجبال إما منفردين أو مع أمثالهم من الزهاد . (٢)

وقد اتسع في القرن الثالث التاسع الميلادي تيار الزهد والتصوف اتساعاً كبيراً في الشام ، وبرزت فيه اتجاهات وممارسات ترسخت في العصور اللاحقة ، منها لبس المرقعات ، والانسحاب إلى الربط والأماكن المنزوية ، والصمت والتأمل . فهذا محمد بن أحمد المعروف باسم أبي بكر بن سيد حمدوية (ت ٩١٣/٣٠٠) قد انسحب إلى مغارة بجبل قاسيون في دمشق ، وبقي هناك في صمت كامل مدة أحد عشر عاماً ، وقد نسبوا له الكرامات . (٣)

وإلى جانب ذلك ظهرت القدرية والجيرية ، وتعود جذورها إلى القرن الأول والثاني الهجريين السابع والثامن الميلاديين ، فقد أرست جذورها منذ غيلان الدمشقي ، وكان غيلان أول من قال بخلق القرآن ، وهذا من مبادئ المعتزلة ، ويعد الأوزاعي من العلماء الذين وقفوا بعنف ضد غيلان فناظره وأفتى بقتله ، ولكن القدرية لم يكونوا فرقة قوية ، بل كانوا أفراداً متفرقين . (٤)

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ٦٠ ، ترجمة احمد بن عبدالله ، ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، جـ ٣ ، ص ١٥٢ .

(٢) خليل داود الزرو ، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ص ١٧٢ .

(٣) الكرامية هي فرقة من فرق الصوفية نسبة محمد بن كرام (ت ٢٥٥ هـ / ٨٧٠م) لهم رباط في بيت المقدس يتتسكون به ، ومنهم ابن أمينة البيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، ص ٣٧٦ .

(٤) سيد حمدوية ، وأبي الخير العابد الأقطع الشامي .

وقد أدرك ثور بن يزيد وهو من القدرين العصر العباسي وتصدى له الأوزاعي الذي ظل هذا الاتجاه يؤرقه ، ولهذا نسمعه يقول لأحد أصحابه : " يا أبا زرع هلك عبادنا وخيارنا في هذا الرأي " (يعني القدر) ^(١) وكان يبذل كل جهد لتخذيّلهم عنه .

وكانت القدرية تقول بحرية الإرادة عند الإنسان ، بينما قالت الجبرية بأن الإنسان لا إرادة له معتمدة أيضاً على آيات وأحاديث نبوية ، وأول من قال بالجبر في الشام الجعد بن درهم ، وجاء بعده الجهم بن صفوان تلميذه ، وقد عرف أتباعه بالجهمية . ^(٢)

ولم تلق القدرية خلال فترة الدراسة في الشام أي نشاط ملحوظ ، بل على النقيض من ذلك فقد واجهت معارضة علمائها ، فهذا أبو اسحاق الفزاري حين جاء إلى دمشق ليسمعوا الناس منه قال لأبي مسهر : أخرج إلى الناس فقل لهم ، من كان يرى القدر فلا يحضر مجلسنا " . فخرج أبو مسهر وأخبر الناس . ^(٣)

-
- (١) البسوي ، المعرفة والتاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٩١ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، بغداد ، ١٩٧٤ م .
- (٢) خليل الزرو ، الحياة العلمية ، ص ٦٨ ، من الذين قالوا بالقدر أبا ادريس الخولاني (٨٠هـ/ ٧٠٠ م) ومعبد الجهني(٨٠هـ / ٧٠٠ م)، ومكحول بن كسرى الدمشقي (ت ١١٣هـ/ ٧١٣ م) ، انظر ابن عساكر ، اجزاء ج ١٩ ، ص ١٩٧ و ج ٨ ، ص ٢٧٤ وج ١٦ ترجمة معبد الجهني.
- (٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ، ترجمة إبراهيم بن محمد ، ابو اسحاق الفزاري ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٨ ، ص ٤٧٥ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ص ١٧٢ .

مظاهر الحياة في دمشق

أ- السكان

كانت مدينة دمشق منازل ملوك غسان ، وكانت تنزل ما بين دمشق وحمص إلى القرب من جبل عامله بالأردن ، فيقول الهمداني : " إذا جرت جبل عامله تريد قصد دمشق وحمص وما يليها ، فهي ديار غسان من آل جفنة وغيرهم " .^(١)

وقد استوطن العرب بلاد الشام منذ القدم ، إذ يرجع وجودهم فيها إلى الألف الأولى قبل الميلاد ، ثم تزايد سكانها من العرب بصورة ملحوظة منذ القرن الثالث الميلادي .^(٢)

وقد توالى قدوم القبائل العربية إلى الشام بعد الفتح العربي ، ومن هذه القبائل قبلية جذام وغسان ولخم وبلقين وعامله وسليح وكلب وقضاعة^(٣) ، وتركزت منازل القبائل العربية القادمة خارج مدينة دمشق لعدم قدرة المدينة على استيعاب الجماعات المهاجرة ، فنزلت أكثر هذه القبائل الغوطة وحول أسوار المدينة .^(٤)

وحملت الأماكن التي نزلت بها بطون القبائل العربية أسماء النازلين بها ، وورد ذكرها عند ابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) فذكر من هذه الأحياء حي لؤلؤة الكبيرة ولؤلؤة الصغيرة وحي قينية ، وحي صنعاء والحميريين ، وحي سطر والفراديس والأوزاع .^(٥)

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٤ .

(٢) انظر جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، الدوري ، العرب والأرض ، المؤتمر الرابع ، ص ٢٥ .

(٣) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٦ ، التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٢٧ .

- (٤) الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٤٧ ، حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ١٠٩ .
 (٥) الطبري ، الرسل والملوك ، ج ٥ ، ص ٥٣١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ص ١٤٣-١٤٤ .

ونزل الأمويون مدينة دمشق في العصر الراشدي ، وبنوا فيها قصورهم ومنازلهم ، وشيدوا فيها قصر الخضراء التي أقامها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عفان عندما كان والياً على دمشق ، ثم أصبحت داراً للإمارة وبقيت مقر السلطة الأموية بعد تحول الخلافة للأمويين سنة (٤٠هـ / ٦٦١م) .^(١)

وفي مطلع الفترة الأموية استقر توزيع القبائل العربية في الشام بصورة عامة، واستمر بعد ذلك ، ففي دمشق كانت غسان القبيلة الأولى وكانت فيها أيضاً قبائل قضاة وكنده وقيس .^(٢)

وأعطيت القبائل المهاجرة إلى المنطقة أراضي للزراعة والرعي ، كما أعطيت أراض جديدة وهي من الأراضي التي جلا عنها أهلها نتيجة ظروف الفتح ، أو من الأراضي الموات .^(٣)

وعلى ضوء هذا الاستقرار فقد توزعت القبائل العربية في دمشق والقرى المحيطة بها في الغوطة والمرج ، فغلب على الغوطة قبائل من غسان وكنب وقيس وربيعة فكان بها من عامر بن الحصين بن عليم وابن رباب المعقلي .^(٤)

وكان نزول اليمانية في دمشق من أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ / ٦٦١-٦٧٩) فقد سكنها بنو كلب ونزلوا في قرية المزنة التي نسبت إليهم فسميت مزنة كلب .^(٥)

وكانت دارياً أكبر قرى اليمانية في الغوطة ، وكما كانت لهم قرى متعددة منها بيت أبيات وجرش وجسرين وداعية وعقربا وعين ثرما وكفر سوسية ، واستوطنت جماعة منهم في حوران والبتينة .^(٦)

(١) اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢٦ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٤٠ ، ص ٣٥١ ، حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ١٠٨ .

(٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٣٢-١٣٥ .

- (٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٢ ، الدوري ، العرب والأرض ، ص ٢٧ .
 (٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٢ ، حسين عطوان ، الجغرافية التاريخية ، ص ١٠٥ .
 (٥) صلاح الدين المنجد ، منازل القبائل حول دمشق ، ص ٦٧ .
 (٦) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٦ ، الهمداني صفة جزيرة العرب ص ٢٧١ .
 أما قيس فكانت لهم قرى صكا وبراق وبلاس وكفر بطنا والفطيفة ، وكما
 نزلت جماعة منهم في حوران والبتنية .^(١)

ويذكر اليعقوبي بعض الكور في جند دمشق وبعض مراكزها ، ومن كان يسكنها من قبائل العرب وغيرهم ، ويصف مدينة دمشق عاصمة الجند بداية فيقول :
 " ليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعمارتها ... والأغلب (على سكانها) أهل اليمن ، وبها قوم من قيس ، وفيها منازل بني أمية ، وقصورهم أكثر منازلها " .^(٢)

وأما الغوطة التي كانت تشكل الجزء الأهم من بلاد الكورة " فأهلها من غسان ، وبطون من قيس ، وبها قوم ربيعة) " .^(٣)

كورة حوران ومدينتها بصرى " وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويداء فإن بها قوماً من كلب ، وكورة البتنية ومدينتها أذرعات وأهلها قوم من يمن ومن قيس ، وكورة الجولان ومدينتها بانياس " وأهلها من قيس أكثرهم بني مره ، وبها نفر من أهل اليمن ، وجبل سنير وأهلها بنو ضبّه ، وبها قوم من كلب ، وبعلبك وأهلها قوم من الفرس ، وفي أطرافها قوم من اليمن " .^(٤)

أما في الساحل فإن الكور في جند دمشق التي يذكرها اليعقوبي فهي عرقه وهي أصغر كور الساحل مساحة وأهلها قوم من الفرس ، وبها قوم من ربيعة من بني حبيب ، وطرابلس وأهلها قوم من الفرس ، وجبيل وبيروت وصيدا وأهل هذه المدن أيضاً من الفرس .^(٥)

(١) براق : موضع في الشام ، من قرى حلب ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ٣٦٦ .

بلاس : بلد بينه وبين دمشق عشرة أميال ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٦ .

كفر بطنا : من قرى غوطة دمشق ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٦٨ .

(٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٦٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٦٧ .

ويثير انتباهنا في هذه اللحظة أن سكان مدن الساحل هم من الفرس ممن نقلهم إليهم معاوية ، فمن أين جاء معاوية بهؤلاء الفرس ولماذا ؟ إن الفرس الذين كانوا يشكلون جزءاً من سكان بعلبك عند الفتح لا يمكن أن يكون تكاثرهم الطبيعي قد وصل خلال أقل من نصف قرن إلى الدرجة التي تكفي لشحن كل هذه المدن ، فهل نقل معاوية هؤلاء الناس في فترة خلافته من بلاد فارس إلى سواحل جند دمشق لشحنه برجال لهم خبرة بالبحر والقتال فيه . (١)

ب- الفئات الاجتماعية في دمشق

كان السكان في دمشق إبان العصر العباسي قد انقسموا إلى فئتين ، فئة الخاصة ، وفئة العامة ، وكان الفرق كبيراً بين هاتين ؛ فالفئة الخاصة كانت تضم الولاة وأعوانهم وكبار القادة وأصحاب الأموال ، وقد حصلوا هؤلاء على كثير من الأموال والإقطاعات نتيجة المصادرات العباسية لأموال أهلها .

أما فئة العامة وهم السواد الأعظم ، ويشكلون القطاع الأوسع من السكان ، وضمت فئة العمال وهم أصحاب الصناعات من مهن وصنائع مختلفة ، ويقرب منهم أصحاب الحوانيت والبيوعات البسيطة كالبقالين والقصابين (٢) ، ويمارسون عملهم في حوانيتهم لحسابهم الخاص ، وهم من ذوي الحرف الذين غالباً ما ورثوها عن آبائهم ، وهم أفضل مكانة من العمال المأجورين ، وهم أفضل من العمال الذين يعملون بأجرة يومية عن أصحاب الدكاكين (٣) ، وتضم كذلك فئة الفلاحين وصغار التجار ، والفئة الأخرى تشكلت من العبيد والخدم ، وهذه الفئة غلب عليها الفقر والبؤس وسوء الحالة الاقتصادية .

- (١) مصطفى الحيارى ، جند دمشق حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، ص ٣٠٠ ، بحوث ودراسات مهداة إلى عبد العزيز الدوري .
- (٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج٣ ، ص ١٤٣ .
- (٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٢١٨ .

والجدير بالذكر أن الفلاحين شكلوا نسبة كبيرة من المجتمع الشامي ، فبعد أن استقرت القبائل العربية في مناطق الشام اتجهت نحو العمل في الزراعة ، إذ نجد أن عدداً كبيراً من القرى تمارس الزراعة في منطقة الغوطة ، فتحدث ابن عساكر عن هذه القرى أثناء وصفه لفتنة أبي الهيثام بالشام سنة (١٧٦هـ / ٧٩١ م) مثل داريّا وبيت لهيا وجسرين ودومه .^(١) وبالرغم من ذلك فإن قسماً كبيراً من هؤلاء الفلاحين ظلوا تحت رحمة الأمراء والقادة الذين كانوا يمتلكون قرى بأكملها .^(٢) فكانت أحوالهم الاقتصادية ليست جيدة ، وكانوا يتعرضون للظلم فيبرز دورهم في عصر المعتصم عندما ثاروا مع المبرقع اليماني سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م^(٣) ، ومن أجل التخلص من أوضاعهم السيئة .

وقد عانى الفلاحون من الزيادات في الضرائب التي كانت تفرض على الأرض بعد كل مسح جديد للأراضي ، والذي كان يتم في الغالب في أعقاب كل تدهور في المواسم الزراعية ، أو انخفاض في الخراج جراء تعطل الزراعة ، بسبب الفتن والثورات وغيرها ، فقد أمر المنصور بأول مسح لأراضي الشام بعد بضع سنوات من خلافته عندما كلف في عام ١٤١هـ / ٧٥٨م عدداً من فقهاء الشام بهذه المهمة ، فبعث عدداً من الفقهاء لمسح أراضي الغوطة .^(٤)

كما أوعز المأمون بمسح جديد لأراضي الشام في عام ٢١٤هـ / ٨٢٩م ، فأرسل المساحين من أهل البلاد ، وأراد من المساحين بأن لا يظلموا الناس حتى لا يهاجر الفلاحون أراضيهم .

أما في خلافة المتوكل فقد أجري كذلك مسح لأراضي الشام للمرة الثالثة ، إذ أوكل المتوكل لعامله على خراج دمشق أحمد بن المدبر بمهمة مسح الأرضيين في جندي دمشق والأردن سنة ٢٤٠هـ/٨٥٥م .^(٥)

- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢٦ ، ص ٦٨ وما بعدها .
- (٢) الدوري ، العرب والأرض في بلاد الشام ، ص ٣٠ ، مؤتمر بلاد الشام الثاني ، عمان .
- (٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٩ ، ص ١١٦ .
- (٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ١٦٧-١٦٨ .
- (٥) البغوي ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢١٤ ، الشاشتي ، الديارات ، ص ١٩٠ .

ويبدو أن حيفاً كبيراً قد أصاب عدداً من الفلاحين وصغار ملاك الأراضي عندما أجرى مسح الأرضيين ، وتقدير الضرائب على أراضيهم عقب عملية المسح ، وتدل الزيارة التي قام بها المتوكل إلى دمشق عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م ، وما قام به الفلاحون من تقديم الشكوى لدى المتوكل بما لحق بهم من ظلم ، فأمر المتوكل بإعادة النظر بهذا المسح .^(١)

وكثيراً ما عانى الفلاحون من سوء تصرف الجباة وطرق جباية الضرائب والاعتداء على أملاكهم ومحاصيلهم ، ومن أكثر المساوئ التي كانت تضر بالفلاح شيوع الضمان في جمع الضرائب ، فكان الفلاح يقع تحت وطأة المتغلبين من التجار لكي يحصلوا على الأموال الواجبة عليه ، فيشترون محصولاتهم وحيواناتهم بأسعار رخيصة دون مستوى السوق بكثير .

ويورد التلمحري مثلاً على ذلك ما حدث في مدن الجزيرة أيام الخليفة المنصور وواليه موسى بن مصعب ، فيقول في سنة ١٥٥هـ/٧٧١م أرسل الخليفة المعدلين إلى الجزيرة لمسح الأرض وتعديل الضريبة عليها ، لاختضاع أكبر عدد ممكن من السكان للجزية وارهاق الأرض بمزيد من الضرائب ولما طوّل كل امرئ بدفع الجزية ولم يقو على دفعها كاملة قبض الأمير على الضامنين وفرض عليهم مقداراً معيناً من المال بالتساوي فعاد هؤلاء بدورهم وفرضوا ذلك المبلغ من المال على القرى الواقعة ضمن دوائر جبايتهم .^(٢) ويبدو أن شيوع

الضمان في الشام أمراً ممكناً ذلك أن أرض الشام عُمِلت مثلما عمل به في أرض الجزيرة .

- (١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ، الشاشتي ، الديارات ، ص ١٩٠ .
 (٢) التلمحي ، التاريخ المنحول ، ص ١٩٧ .

ونتيجة لعدم تمكن الفلاحين من سداد ما عليهم من ديون لجأوا إلى الفرار من الريف والهجرة إلى المدن ، واتخذت الدولة تدابير حازمة شملت الحد من الهجرة لأن ترك الزراعة يؤدي إلى تراجع في الوارد ، وتشكل كذلك هجرتهم على دافعي الضريبة الباقين من سكان القرية لأنه كان يقع عليهم دفع ضريبة من لا يقدر على دفعها أو من هرب منها حتى جمع الضريبة على القرية أو الأقليم . (١)

كما عانى الفلاحون من النزاعات القبلية المستمرة ، والاعتداء على قرى الأطراف المتنازعة مما كان يؤثر سلبياً على حياة الفلاح وعلى الزراعة ، فمن تلك الأحداث ثورة أبي الهيثام في دمشق ، وفيها حاول القيسيون السيطرة على الريف وطرده القبائل اليمنية من الغوطة أو إخضاعهم لهم . (٢)

وكثيراً ما تعرض الفلاحون أيضاً إلى الاعتداء على حياتهم الشخصية من الجنود فكانت تقوم الثورات في البلاد بسبب ذلك ، كثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٠م خبر ثورة الفلاحين نقلاء عن بعض أصحابه دون ذكر اسمه اكتفى بوصف صاحبه بأنه خبير بأمره . (٣)

وفي نظام التقبل والضمان الذي أشرت إليه في الفصل السابق من الدراسة نلاحظ أن لهذا النظام مساوئ عديدة بالنسبة للفلاحين ودافعي الضرائب ، إذ أن الملتزم يعتمد إلى استنزاف موارد الأرض والفلاح لسداد المبالغ التي ضمنها للدولة من جهة ، ولجمع ما يستطيع جمعه من أموال لمنفعته الخاصة من جهة أخرى، الأمر الذي يؤدي إلى إنهاك الأرض أو هجرها من قبل أصحابها ، وقد انتقد أبو يوسف قاضي القضاة هذا النظام ، وأوضح مقدار ما يلحقه من ظلم بالرعية .^(٤) فقال :

(١) التلمحري ، تاريخ المنحول ، ص ٢٦٧-٢٧١ .

(٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٩ ، ص ١١٦-١١٧ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٦ .

" كان المتقبل إذا كان في قبالتة فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه ، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد ، وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالتة ولعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس ، وتعليق الحجارة في الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد والذي نهى الله عنه .. "

وبما أن أبو يوسف يتحدث في الفقرة السابقة عن خراج سواد العراق ، وما كان يتعامل به أهل الخراج والمحصلين ، إلا أنني لم أعثر على نص ينفي أن يكون أرض الشام قد سارت على نفس ونهج أرض السواد ، بحكم أنها ترتبط بالعاصمة العراق من جهة ، مجاورة أرض الشام لأراضي السواد من جهة أخرى .

إن تشدد جباة الخراج في تحصيل الضرائب وأساليب التعذيب التي يتبعونها كانت من المواضيع التي عالجها الكتاب والفقهاء وافتوا انتباه الخلفاء والولاة إليها ، فقد كتب الأوزاعي فقيه الشام إلى صالح بن علي والي الشام للمنصور عندما أمر هذا الوالي بطرد نصارى جبل لبنان من أراضيهم موضحاً له خطأ ما قام به من إجلاء أهل الذمة ممن لم يشتركوا في الثورة على السلطة العباسية .

وكانت ثورة نصارى لبنان تعبيراً قوياً على حجم مشكلة الخراج وتفعلها ؛ إذ خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح بن علي من قتل مقاتلتهم ، وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم ، وأجلى قوماً من أهل لبنان .^(١) ويستفاد من هذه الرواية أن السبب الظاهري وراء تلك الثورة هو تذمر الناس من الشطط في تحصيل الخراج على يد إسماعيل بن الأزرق عامل الخراج بعلبك ، وأن كثيراً من الناس جلوا عن مواطنهم القروية في تلك الثورة ، وأن قسماً منهم عوقبوا بالنفي الجماعي خارج وطنهم .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج-١٠ ، ترجمة رباح بن عثمان ، وانظر خطط الشام لكرد علي ، ج-١ ، ص ٥١ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٣٦ .

إن الثورات التي قام بها الفلاحون ما هي إلا تعبير عن التذمر الاجتماعي التي كان تعانيه هذه الفئات ، ومن المؤسف أن السلطات العباسية لم تلتفت إلى أسباب هذه الثورات بقدر ما كان جل اهتمامها منصّباً على زيادة الخراج ، ولهذا فإنها قمعت هذه الثورات بعنف في معظم الأحيان ، كما كانت تعتمد إلى إعادة مسح الأراضي لإضافة المزيد من الضرائب الأمر الذي كان يتمخض عنه ثورات جديدة في كل مرة ، وقد كانت المعاملة السيئة التي عانى منها أهل الشام ولفترة طويلة خلال خضوعهم للحكم العباسي سبباً لأن يبسط أهل هذه الولاية ذراعيهم لاستقبال أحمد بن طولون كمحرر عند دخوله دمشق عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م .

ونتيجة زيادة الضرائب التي لجأت إليها الدولة أدت هذه الظروف إلى هجر الفلاحين والمزارعين مناطقهم ، وفي مقدمة ذلك عجز فئات منهم عن دفع الجزية ، فكانت هجرة الفلاحين الريفيين إلى المدن سبباً في تكاثر السكان في المدن وتضخمها، وكما كانت في جانب منها تعطيلاً للأرض وهرباً من الجزية المطلوبة منهم .

وكانت الدولة العباسية قد أخذت على عاتقها إعادة هؤلاء إلى مواطنهم الأصلية ورتبت الدولة لإحكام هذا الإجراء عمالاً يشرفون على عودة أولئك النازحين من أهل الذمة .

وعمد بعض صغار ملاك الأراضي إلى الافلات من الضرائب الباهظة المفروضة عليهم بتسجيل أراضيهم بأسماء الأشخاص المتنفذين والأقوياء بحيث تغدوا أرضاً عشرية بعد أن كانت أرض خراج ، ولكنها تبقى بأيدي أهلها يتوارثونها ويتبايعونها رغم أنها تكون مسجلة بأسماء هؤلاء الكبار ، ويسى هذا النظام /
الالغاء / . (١)

(١) الاجاء : هو أن يلجأ الضعيف ضيعته إلى قوي ليحمي عليها ، ويؤدي الخراج عن الأمن وبذلك يتلخص الملتجئ من تعسف العمال ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

وكان من الطبيعي نتيجة عدم تمكن عدد من الفلاحين من سداد ما عليهم من ديون لجأوا إلى الفرار من الريف والهجرة إلى المدن . كما حدث في فلسطين أيام الخليفة هارون الرشيد ؛ إذ جلا بعض الناس عن أراضيهم في فلسطين ، فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارة تلك الأرض المهجورة فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع ووعدهم بتخفيض الخراج ولين معاملتهم ، فعادوا إلى أرضهم وسموا أصحاب " التخافيف " . (١)

وهكذا فقد أكثر الفلاحون من التمنيات بعودة نظام الحكم الأموي لأنهم كانوا يرون أن الأمويين كانوا أكثر إنصافاً من العباسيين في جباية الضرائب ، وهذا مما دعاهم إلى الانضمام إلى ثورة السفيناني المنتظر أملاً منهم بعودة النظام الأموي إلى البلاد أملاً في إنصافهم وتخليصهم من الأعباء الضريبية ، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الأعداد الكبيرة من الفلاحين في ثورة المبرقع (السفيناني) . (٢)

ولما كان أهل الذمة يشكلون جزءاً من المجتمع الدمشقي وبلاد الشام ، فقد كان لهم دور في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع البلاد ، وقد تعددت طوائفهم في بلاد الشام ، فقد انقسم النصارى إلى ثلاث طوائف هي النساطرة واليعاقبة والملكانيين ، بينما انقسم اليهود إلى طائفتين رئيسيتين هما الربانيون والقراؤون بالإضافة إلى السامرة ، وبعض الطوائف الدينية الأخرى مثل المجوس والصابئة . (٣)

- (١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
- (٢) صالح حمارنة ، ثورة الفلاحين في فلسطين ٢٢٧هـ/٨٤٢م ، ص ٧٨ ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ، مج ٣ ، ١٩٨٣ .
- (٣) فايزه حجازي ، أهل الذمة في بلاد الشام ، ص ١٠٨ .

ولقد ضايق العباسيون النصارى أثناء دخولهم لدمشق ، فقد قاموا بإجراءات مشددة بحق النصارى مثل إعادة الضرائب التي كان يدفعها الرهبان والتي كانت قد ألغيت ، ورد أهل الذمة على ذلك الظلم بالخروج عن طاعة الدولة العباسية في منطقة لبنان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ، بزعامة رجل منهم يدعى إلياس ، لكن العباسيين قضوا على حركته وقتلوه ٧٨٦م . (١)

وكانت حالات الفوضى التي تعم الدولة والعجز عن ضبط الأمور تفتح مجالاً للتعدي على الذميين في الأقاليم ، والاعتداء على كنائسهم وأديرتهم طمعاً في أموالهم واثرواتهم ، أو من باب الغيرة على الدين الإسلامي ، فقد تعرضت كثير من الكنائس والأديرة للتدمير والتخريب من قبل الأعراب نتيجة اضطرابات أحدثتها ثورة أبي الهيثم سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م . (٢)

وقد كانت العلاقات بين المسلمين والنصارى قوية إلى درجة كبيرة ، فكان بينهم اختلاط يومي ، وظل التعاون مستمراً وقائماً بين الأهالي على مختلف الديانات حتى أن هذا التعاون وصل إلى المشاركة في كثير من الأعمال والمهن بل والعقارات (٣) . وكما أن كثيراً من الأسماء والكنى الإسلامية كانت منتشرة بين النصارى .

وكان المسلمون من الزوار المترددين على الأديرة ، ويحلون في ضيافة الرهبان ، وكانت الأديرة مكان لهو وشراب ، حتى أن كثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام بعض الشعراء مثل المهلهل بن يموت . (٤)

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦-١٦٧ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٢٦ ، ص ٦٤ وما بعدها .

(٣) الزيات ، الأسماء والكنى والألقاب النصرانية ، مجلة المشرق ، ج٤٣ ، ص ٤٠٣ ، سنة ١٩٤٨م .

(٤) المهلهل شاعر غزلي وهو بصري سكن بغداد (ت ٣٦٦هـ / ٩٣٧م) الشابشتي ، الديارات ، ص ٢٠.

وقد أشارت المصادر الجغرافية إلى كثير من الأديرة في بلاد الشام مثل دير الطور أو التجلي ، وهو بين طبريا واللجون مشرف على الغور ومرج اللجون وفيه عين ماء تتبع بماء غزير كثير ^(١) ، ودير مران بالقرب من دمشق على تل مشرف من مزارع الزعفران ورياض حسنة ، ^(٢) ودير سمعان بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به ^(٣) ، ودير نطرس ودير فطرس وهما بظاهر دمشق في ناحية الغوطة ولهما البساتين الكثيرة والأشجار والمياه ، ودير الزعفران على الجبل المحاذي لنصيبين كان يزرع فيه الزعفران . ^(٤)

وقد شهد العصر العباسي تسامحاً دينياً بين الفئات الاجتماعية ، وعاش الناس في حالة ارتباط ووافق ، ولم يكن أي انعزال بين الجماعات بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ، وقد ساعد التسامح الديني وهذا التفاعل بين الفئات إلى خلق جو مليء بالمودة والمحبة لدرجة أن كل طائفة تأثرت بعادات وتقاليدها الطائفة الأخرى بل والمشاركة في احتفالاتهم وأعيادهم .

ومارس أهل الذمة كثيراً من الصنائع الهامة ، فمنهم من كان يعمل بالصيرفة أو الدباغة أو الكتابة ^(٥) ، وكما تميز أهل الذمة في دمشق من إتقان الصناعات والحرف الهامة ، مما جعل لهم دوراً بارزاً في حياة دمشق وأهلها خلال العصر العباسي الأول .

(١) الشابشتي ، الديارات ، ص ٢٠٧ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٣٣ ، ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، جـ ٢ ، ق ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥١٧ .

(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥١١ .

(٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠٨ .

ويدخل أصحاب الحرف في غمار العامة ، وهم في مرتبة دنيا في المخطط الاجتماعي ، فكان الفقير هو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكافي والخراز ومن أشبههم ^(١) . وخير تقدير لحالتهم الاقتصادية قول أبي الفضل الدمشقي ... وأما الصنائع العملية وهي المهن فقد قيل قديماً الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء صنعة أو عقد نعمة ... ^(٢)

وكان لدى أصحاب الحرف تنظيم مهني ، فكل حرفة رئيس من أعضائها تعينه الحكومة أو تعترف به وهو شيخ الصنف ، وهناك الأستاذ (المعلم) وهو المتقدم في الحرفة ، ويليه الصانع الذي أتقن الحرفة ، وأدنى درجة في الحرفة المبتدئ الذي ينتسب إلى الحرفة ولا يزال في مرحلة التعلم . ^(٣)

وشكل العبيد والرقيق فئة كبيرة في المجتمع الدمشقي ، وذلك بسبب الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي ^(٤) ، وكانت أعمالهم تتنوع ما بين العمل في المنازل للطبخ أو العمل في الأراضي الزراعية .

وكان ثمن العبد يرتفع كلما أجاد الكثير من الأعمال ، ولكن هذا لا يمنع في أن عدد من السادة سعى لإعتاق عبيده نظير أعمال قاموا بها . ^(٥)

وتجارة الرقيق هي إحدى التجارات الرائدة في الشام ، وكان اليهود والنصارى هم من أكثر التجار الذين عملوا في هذه التجارة ، فقد تواجدوا في أسواق الرقيق التي وجدت في دمشق ، وكان البيع في هذه الأسواق يتم في يومي الاثنين والخميس . ^(٦)

- (١) الدمشقي ، الاشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة الاعراض ، ص ٩٤ .
- (٢) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٠٨ .
- (٣) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٠٨ .
- (٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٩ .
- (٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٩ .
- (٦) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ص ٤٤٧ ، ج ١ .

ومن فئات المجتمع الفقهاء حيث كونوا شريحة اجتماعية خاصة ، وقد حفلت دمشق والشام بعدد كبير منهم يمثلون مرحلة الانتقال بين الزهد والتصوف .

وكان من الطبيعي أن تحتفظ قيمة العلم بمكانتها في سلم سمو المراتب الاجتماعية في العصر العباسي ، هذا إذا لم نقل أنها ضعفت عن ذي قبل بفعل تدهور القيمة القبلية المنافسة ، ولمحاولة العباسيين ترسيخ شرعيتهم في الأذهان عن طريق دعمها بالقيم الدينية ، وتتعدد لدينا الشواهد على تعاظم هذه القيمة لدى الناس والسلطة العباسية على السواء ، فقد نقل شاهد عيان لأبي مسهر قوله " ما رأيت أحد أعظم قدراً من أبي مسهر ، كنت أراه إذا خرج من المسجد اصطف الناس يسلمون عليه ، ويقبلون يده " (١) . وهذا إن دلّ فإنما يدل على ما حظي به علماء دمشق من احترام وتقدير بصفقتهم أحد رواد العلم وأهله في ظل انشغال الناس بمستقبلهم وحياتهم الدنيوية .

وكانت مكانة الفقهاء في المجتمع ترتبط بدورها الإداري والعلمي الذي تعود جذوره الأولى إلى زمن الفتح وظروفه ، فقد احتفظ الفقهاء بهذه المكانة باعتبارهم ورثة الصحابة في مجال العلم والدين .

وتباينت أصول هؤلاء الفقهاء ومنابتهم ، فقد كان الأوزاعي من سبي السند في الأصل ، وكان الوليد بن مسلم من رقيق الأخماس قبل أن يشتري حريته من مالكيه ليصبح مولى عتق ، أما إسماعيل بن عياش (ت ١٨١هـ / ٧٩٧م) المنعوت بمحدث الشام فكان مولى لعنس ، ويدل تلقيبه بالأزرق حيناً وبالأحمر حيناً آخر على أنه رومي الأصل . (٢)

- (١) البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ ١١ ، ص ٧٣ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١٠ ، ص ٢٣٥ ، أحمد بدر ، فقهاء الشام في العصر العباسي الأول ، ص ٩٤ ، المؤتمر الدولي الخامس لبلاد الشام .
- (٢) (ابن سعد الطبقات ، م٧ ، ص ٤٧٠-٤٧١) نقل عن أحمد بدر ، فقهاء الشام في العصر العباسي ، ص ٨٨ ، بتصرف .

رقيق الأخماس : كانت الدولة الأموية تملك رقيقاً يسمى رقيق الخمس ، وازداد هذا الرقيق نتيجة الفتوحات ، وقد استمر هذا الرقيق الذي كان يشرف عليه اشخاص من الدولة حتى نهاية الدولة الأموية ، ولما تولى العباسيون قبضوا هذا الرقيق .

وبدأت أول مجابهة بين فقيه كبير وبين السلطة العباسية منذ وصول العباسيين لأسوار دمشق بقيادة عبدالله بن علي (١٣٢هـ / ٧٤٩-٧٥٠م) إذ لما عجز الوليد بن معاوية بن مروان عن حماية المدينة ، هرع إلى يحيى بن يحيى الغساني العالم والقاضي والفقيه حتى يتحدث إلى عبدالله بن علي من أجل منحهم الأمان وعندما كان يحيى يكتب الأمان الذي أخذه من عبدالله ، وإذا بالحائط قد غشيته المسودة الذين استغلوا توقف القتال على ما يبدو وفعلوا ما فعلوه ، ورفض يحيى الكتابة حتى يعيد الوضع إلى ما كان عليه قبلاً ، وأتهم عبد الله بن علي بالغدر ، واحتدم الجدل بينهما ، وأنهى عبد الله بن علي الجدل باحتجاز الفقيه سيد المدينة في مضربه بدعوى الخوف عليه من الناس لأن الجميع سودوا ، بينهما لا يزال هو مرتدياً البياض قميصاً وعمامة^(١)

وبعد أن فعل عبد الله ما فعل في دمشق من أجل تثبيت السلطة العباسية ، رأى أن يكسو أعماله بلباس الشرعية والدين عن طريق السعي للحصول على مصادقة كبير فقهاء الشام الأوزاعي وموافقته فاستدعاه إلى حماه ، وكان أول سؤال وجهه له شرعية القيام على الأمويين واعتباره جهاد بالقول : " أيعد مقامنا هذا ومسرنا رباطاً ؟ " فأجابه الأوزاعي بالنص الشرعي الذي يحدد مدى انطباقه على خروج العباسيين وذلك بإيراد الحديث (من كان هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى امرأة يتزوجها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٢)

وانتقل بعدها إلى السؤال عن دماء بني أمية وجواز دمائهم ، فأجاب الأوزاعي بالنص الشرعي العام بعدم إباحة الدم إلا بمرات ثلاث وذكر الحديث : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الزاني بعد إحصان والمرتد عن الإسلام والنفس بالنفس " (٣)

(١) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١٢ ص ٢١٢-٢١٧ أحمد بدر ، فقهاء الشام ، ص ٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري (١٥-٧/١) ومسلم (١٩٠٧) ومالك في الموطأ (٤٠١) .

(٣) أخرجه البخاري (١٥-٧/١) ومسلم (١٩٠٧) ، أبو داود (٢١٠١)

وعندما بدأت أوضاع الدولة في الاضطراب في خلافة الأمين ، قفز الفقهاء إلى موقع القيادة في هيجان دمشق التي بدأت سلسلتها بثورة القلة البلورية لمسجد دمشق عندما اكتشف فقدانها إمام المسجد شعيب بن إسحاق القرشي الأموي (ت ١٨٩هـ / ٨٠٥م) . وجاء إلى وسط القبة الكبيرة وأخذ قلنسوته وضربها بالأرض وصاح بأعلى صوته : سرقت قلتكم فصاح بالناس لاصلاة بعد القلة ، ثم شاع بينهم أن داود بن عيسى صاحب الشرطة للوالي منصور بن محمد بن المهدي قد أخذها لتتقدم للأمين المعجب بالبلور فهاجموا الشرطة وهزموا قائدها ، وانتهت الثورة بإعلان الوالي منصور بن محمد المهدي تنازله عن الحكم على أن يعهد بها لأحدهم ، ولكن الأمين عين على المدينة سليمان بن جعفر (١) .

ولم يهنأ الوالي الجديد بالهدوء طويلاً إذ انطلقت من دمشق حركة قوية تسندها قوة اليمانية بقيادة الخطاب بن وجه الفلس ، ومدعمة أيضاً بعالم دمشق الوليد ابن مسلم الذي أخذ يدعو بحتمية خروج السفيناني المنتظر ، فكان يقول : لو لم يبق من سنة خمس وتسعين ومائة إلا يوم لخرج هذا السفيناني (٢) . وقد قامت هذه الثورة في دمشق ، ولقب قائدها أبي العميطر ، واستمرت ثلاث سنوات ، انتهت بهربه بعد ما تكاثفت عليه قوى العباسيين وقيسية الشام .

وفي عهد المأمون استقرت أحوال دمشق خاصة بعد وصول عبد الله بن طاهر إليها مرسلاً من قبل المأمون ، وقد أظهر عبد الله بن طاهر التودد إلى الدمشقيين بجلبه قلة المسجد البلورية مدعياً وجودها ضمن نفائس الأمين ، ولكن نقمة فقهاء ظلت قائمة ، فهذا كبير الفقهاء أبي مسهر عبد الأعلى بن أبي ذرامه

الغساني كانت عداوته لجذور عائلية تعود إلى وقت دخول العباسيين دمشق ، إذ كان جده وسميه ابن عبد الأعلى من بين القتلى ، وظلت آثار دمه على الحائط أجيال لم يغيروه ^(٣) وبقيت عداوته للعباسيين قائمة حتى سجن في بغداد لرفضه القول بخلق القرآن ، وقد قضى نحبه في سجن المأمون سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م ^(٤) .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١٧ ، ص ٢٣٧ ، أحمد بن بدر ، فقهاء الشام ، ص ٩٩ .

(٢) انظر أحداث ثورة أبو العميطر في الفصل الثاني من الدراسة ص ٧١ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، جـ ٣٩ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ (سكينة الشهابي) .

(٤) ابن عساكر ، المصدر السابق ، جـ ٣٩ ، ص ٣٩٥ .

وإضافة لهذه المواجهة المباشرة بين بعض فقهاء الشام وبين العباسيين قام هؤلاء الأخيرون بالعمل ضدهم فكرياً ، وبشكل غير مباشر أيضاً ، وتمثل هذا العمل بتغذية القوة المعنوية لأعدائهم وتسفيه ما ينشرونه من أفكار تدعم شرعية حكمهم .

وتجلى ذلك فيما تبناه الطرفان من فكرة المهدوية ، ثم حورها كل طرف ليجعل المخلص الذي يأتي في آخر الزمان منتبهاً إليه ، وذلك في النبؤات أو الملاحم التي اشتهر الوليد بن مسلم بحفظها ، وهكذا ثبت في الشام فكرة السفيناني المنتظر والذي كان يتجسد لديهم في رأس كل أموي يقود ثورة . بدأ ذلك عند سقوط الدولة وقيام الثورات في الشام على العباسيين ١٣٢هـ / ٧٤٩م إذ جعلوا أبا محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية قائد أحدها في تدمير وحمص ^(١) وادعوا أيضاً أن أبا العميطر هو السفيناني المنتظر كما سلف القول .

وكان رد العباسيين عليهم أن لديهم وصية من الرسول (ص) للعباس تقول "إن الله يستعمل من ولد العباس اثنا عشر رجلاً منهم السفاح والمنصور والمهدي والأمين والمؤتمن" . ^(٢)

وقد ظهر تعاون وتقارب بين فقهاء الشام والخلفاء العباسيين ، وكان هذا التقارب يتمثل بقبول الوظائف لديهم ، ومن بين هذه الوظائف المالية التي ذكرتها كتب الرجال هي تعديل أرض الشام ، ويبدو أنها تحديد مساحات الأملاك وتعيين ملكيتها وإنتاجها ،

وقد أجريت هذه العملية ثلاث مرات في الشام ، وكان المعينون لها فقهاء اشتهر منهم زمن المنصور في أهم مدينتين هما حمص ودمشق التي عدل أرضها كل من بقية بن الوليد الكلاعي ومحرز بن زريق بن حسان الفزاري وولاء وهضاب بن طوق^(٣)،

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ انظر إلي ثورة أبي الورد في الفصل الثاني ٤٩-٥٠ .

(٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٩ ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ٤ ، ص ١٩٥-٢١٩ تحقيق (محمد دهمان) .

وفي التعديل الثاني الذي جرى أيام المأمون الذي وزع مناصب التعديل في أجناد الشام سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م) عندما قدم دمشق ووجه في ذلك إلى رؤساء أهل الجزيرة والموصل والرقّة ، فقدم عليه منهم جماعة إلا أنهم استعفوه من التعديل ، فأعفاهم وصرفهم ، واجتلب لتعديل الشام مساحة العراق والأهواز والري^(١) .

ومن وجوه تعاون الفقهاء مع العباسيين قبول منح منهم^(٢) ، ويلاحظ هذا بشكل واضح لدى فقهاء من أواخر الفترة ، كما هو حال هشام بن عمار خطيب جامع دمشق (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) الذي تباهى بنيله صلة بألف دينار من المتوكل ، وأحمد بن عبد الملك بن واقد الحراني الأسدي ولاء (ت ٢٢١هـ/٨٣٦م) الذي تلقى إقطاع ضيعة وكان يغشى السلطان بسببها ، مما جعل أهل بلده لا يثنون عليه^(٣) ، وفي الاتجاه الآخر كان عدد من الفقهاء يرفضون الوظائف ويترفعون عن قبولها .

ويتبين من ذلك حرص الخلفاء العباسيون على استقطاب أكبر عدد ممكن من الفقهاء ، لحاجتهم لهم في نشر الأفكار العباسية ولجلب أكبر عدد ممكن من صفوف المعارضة لها لما له من تأثير للفقهاء عليهم .

ويلاحظ أن الأمر الإخباري أو التاريخي لعلماء الشام يحتوي في ثناياه على ما يصيب في قناة معاداة العباسيين كترديد الروايات الشامية التي تعطي الصورة الأموية

إشراقاً ، كما هو حال الوليد بن مسلم الذي يروي عن حاضر العباسيين مما يشوه صورتهم كالتدريج على عيوب بعض خلفائهم (٤) .

- (١) ابن عساكر ، مختصر ابن عساكر ، جـ ٤ ، ص ١١٠ (بدران) ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٦ .
- (٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ ١١ ، ص ٤٣٣ .
- (٣) المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٢ .
- (٤) احمد بدر ، فقهاء الشام ، ص ١٠١ .

ويروي ابن سعد في طبقاته عن الوليد بن مسلم الشامي حديثاً مسنداً للصحابي الشامي عبد الرحمن بن أبي عميرة وهو قوله " سمعت رسول (ص) يقول : يكون في بيت المقدس بيعه هدى إشارة لبيعة معاوية " (١) كما يروي عن أبي مسهر بسند ينتهي للصحابي نفسه أن الرسول (ص) دعا لمعاوية (اللهم اجعله هادياً مهدياً أهده وأهد به) (٢) ، ويروي ابن سعد أيضاً عن هؤلاء ما يرسم للعباسيين صورة قائمة كالقول : " أن المسودة لما دخلوا دمشق قتلوا كل من وجدوه في مسجدها " . ومنهم تابعون مثل يونس بن ميسرة وعبد الأعلى ابن مسهر الغساني ضد أبي مسهر (٣) .

وبرز في دمشق الشعراء الذين رسموا مذابح الأمويين وهزائمهم على أيدي العباسيين في أشعارهم ، وكان من المتوقع أن ينظم شعر كثير يصف المعارك الدامية بين الفئتين ، وكما يصور فرح العباسيين وانتصارهم المتلاحق على بني أمية ، وقد نشطت طائفة من الشعراء المواليين للعباسيين في التحريض على الفتك ببني أمية ، ولكن أحداً منهم لم يكن من بلاد الشام (٤) .

ومن بين الشعراء الذين اشتهروا بذلك ديك الجن وهو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيبه (٥) وقد ولد سنة (١٦١هـ / ٧٧٧م) ، وقد ادرك المتوكل ، نشأ

ديك الجن وشب في بلدته حمص ، وكان يرتاد بعض نواحي الشام الأخرى ، فقد قصد دمشق غير مرة ، فقد قصد لها مرة في ولاية أحمد بن محمد بن المدبر عليها من قبل ابن طولون ، وقد توطدت علاقة الشاعر بالوالي كما يقول ابن عساكر ^(٦) .

- (١) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ص ٤١٧ ، أحمد بدر ، فقهاء الشام ، المؤتمر الخامس لتاريخ بلاد الشام ، ص ١٠٣ .
- (٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١٧ .
- (٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤٦٦-٤٦٧ .
- (٤) أنظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٤ ، ص ٣٤٤ ، المبرد ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٨ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ ، ص ٦٤٧ .
- (٥) أنظر الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٤ ، ص ٥١-٦٧ .
- (٦) أنظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ، ج ١٠ ، ص ٣١٦ ، أبين منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ترجمة أحمد بن المدبر .

واشتهر كذلك الشاعر الشامي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ / ٨٤٦م) الذي ولد ونشأ في قرية جاسم في أرض حوران ، وكان من الشعراء الفحول الذين استطاعوا أن يرسخوا أقدامهم في ميدان الشعر العربي ، وقد تضاربت الأقوال في نشأته ، فابن عساكر يقول في رواية أنه كان غلاماً يعمل عند قزاز وأن أباه كان خماراً ^(١) وقيل في رواية أخرى أنه كان يعمل عند حائك في دمشق ^(٢) .

وإذا كانت المصادر قد اختلفت في نشأته وطفولته إلا أنها أجمعت على شاعريته وعلى بلوغه منزلة شعرية كبيرة ، فقد شاع ذكره حتى بلغ المعتصم خبره فاستقدمه إليه في سرٍّ من رأي وقربه ، ومدحه أبو تمام بقصائد عديدة أجازها له المعتصم وقدمه على شعراء وقته ، وقد رافق المعتصم في غزوة لعموريه عام ٢٢٣هـ / ٨٣٨م ووصف انتصارته ^(٣) .

ومن بين الشعراء الشاميين الفحول أيضاً الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٨م) ولقب بالبحثري نسبة الى بحتر وهي العشيرة التي ينتمي إليها ،

وقد غلب عليه هذا اللقب ، وقد ولد في منبج من أعمال حلب ، وقصد ابو تمام الذي أنشده شيئاً من شعره ، ونال مكانة شعرية مميزة بحكم اتصاله بالشخصيات الهامة ، فقد نزل سامراء ومدح الخليفة الواثق ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات^(٤)، وكما مدح الخليفة المتوكل بقصائد عديدة فقربه المتوكل إليه وحظي عنده وغدا شاعره^(٥) .

وكان شعر البحري مرآة وسجلاً وثائقياً لعصره ، فهو يفضل اتصاله وقربه من الخلفاء وعلاقاته الجيدة بمن حوله لم يترك حادثة هامة الا تحدث عنها في شعره ، فقد تحدث عن خروج المتوكل الى دمشق ثم عودته عنها^(٦) .

-
- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ٤ ، ص ٧٧ ، ترجمة أبو تمام .
 (٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص ٢٩٩ .
 (٣) الاصفهاني ، الاغاني جـ ١٦ ، ص ٣٨٣ و ٣٨٨ ، الصولي ، أخبار أبي تمام ، ص ١٠٩-١١٣
 (٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٩٧ ، شوقي ضيف ، الحياة الأدبية في العصر العباسي الاول ، جـ٢ ، ص ٢٧١
 (٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص ٢٣ ، شوقي ضيف ، الحياة الأدبية ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ .
 (٦) انظر شوقي ضيف ، الحياة الأدبية ، جـ٢ ، ص ٢٧٧ .

وعلينا بعد هذا أن نلتفت الى فئات أخرى من السكان وبخاصة سكان السواحل إذا ستقدم الخليفة المنصور سنة (١٤٢هـ/٧٥٩م) جماعات من أرض الفرس واسكنها منطقة الثغور، وهؤلاء لا يرتدون ثياباً على أجسامهم ولا نعالاً في أقدامهم ، ولا يمارسون أية صناعة ، وإنما أصبحوا في رأي صاحب التاريخ المنحول قطاع طرق ولصوصاً ، ولعل الدولة أرادت أن يكونوا شوكة في جنب الدولة البيزنطية بالتعدي المستمر داخل حدودها ، وهذا ما يصفه المؤرخ باللصوصية وقطع الطريق^(١) . وهؤلاء هم من الفرس والصقالبة وأنباط ، وقد نقل إليها أهل السجون في وسيلة لشحن الثغور بالمقاتلين . إذ كانوا معرضين للغارات البيزنطية وخاصة الغارات البحرية .

وكانت سنوات القحط تفرض على بعض السكان النزوح من مناطقهم واللاحق بمناطق أخرى ، وقد توالي القحط في بعض المناطق في بلاد الشام والجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الهجري ، فاضطر الناس الى النزوح إلى مناطق أخرى ومنها

الجزيرة التي أخذت تعاني اكتظاظ النازحين فيها مما أضر بمرافقها الاجتماعية والإقتصادية .

وأما الأوبئة والكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات فقد كان لها دورها في انقاص عدد السكان ، فقد عم الطاعون في فلسطين أيام هارون الرشيد فتعطلت بعض الأراضي جملة لموت أصحابها . وجلا الناس عن منطقتهم (٢) .

وقد توالى الزلازل في بلاد الشام في النصف الأول من القرن الثالث ، وبخاصة زلزال سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) التي انهدم بسببها ربع الجامع الأموي وسقطت بعض شرفاته ووقعت المنارة ، وامتد أثرها على قرى دارياً والمزة وبيت لهيا . (٣)

وكانت أكثر تتقارب فيه المشاعر الإنسانية في أوقات الكوارث الطبيعية كالهزات والأوبئة والطواعين . فمثلاً ما حدث في سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) زلزلة

- (١) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، التلمحري ، التاريخ المنحول ، ص ١٦٨ .
 (٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ، ١٧١ ، ١٨٧ .
 (٣) انظر الفصل الثالث من الدراسة ، ص ١١٧ .

مهولة بدمشق امتدت ثلاث ساعات سقطت منها الجدران ، وهرب الخلق الى المصلى يجأرون الى الله العالى تعالى ، وأصاب أهل البلقاء مثل ما أصاب أهل دمشق ، وخرج أهلها بنسائهم وصبيانهم فلم يزلوا في دعاء وضجيج حتى كشف الله عنهم برحمته . (١)

ولأن المعلومات القليلة التي نملكها عن الحياة الاجتماعية في بلاد الشام طوال فترة الدراسة فإن أي صورة عن هذه الحياة لا تكون كاملة أو شبه كاملة عن طبيعية تلك الحياة ، كما أنها لا تميز الشام أو حتى دمشق عن غيرها في الاقاليم الأخرى ، فكثرة ثورات الفلاحين في الأرياف لا تعني أن الريف كان وحده يعاني اشتطاط عمال الدولة ، أو ما يراه عمالها حقوقاً لها ، لأن تلك الثورات كانت توازيها ثورات مماثله في المدن . (٢)

وقد كان الترف والثراء العريض التي تتحدث عنه المصادر بالغاً أقصاه في بلاط الأمراء ، وكما كان محصوراً في عدد قليل من الأفراد ، فيحكي التتوخي عن رجل بدمشق من بقايا بني أمية كان يعيش أيام هارون الرشيد وكان كثير الاملاك والمال وله قرى ومزارع وبساتين في الغوطة وغيرها ^(٣) . وكان عمرو بن حوي السكسكي يملك في بيت يصاعده قصور مبنية من الحجارة والخشب الصنوبر والعرعر ^(٤) ، وكما كان للوليد بن مسلم الفقيه المحدث أخ يركب الخيل ويركب معه غلمان له كثيرون ^(٥) ولم يقتصر الأمر عند ذلك فعندما عاد المتوكل من دمشق اجتاز برحبة مالك بن طوق ، فأهدى اليه صاحب الرحبه هدية كبيرة حوت من البقر والنوق والخيل والشياه والطيور ، وأنواع الفاكهه ما ينم عن ثراء بدوي ضخم .

وأما السكان فأكثره بائس فقير ، ولهذا كانت أنظار كل صاحب موهبة تتوجه إلى الأمراء ، فالشعراء والعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم ومدحهم

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، جـ ١١ ، ص ١٨٩-١٩٠ .

(٢) احسان عباس، تاريخ بلاد الشام، ص ١٦٠

(٣) التتوخي ، الفرّج بعد الشدة ، جـ ٢ ، ص ٣٤ ، إحسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ص ١٦٠ .

(٤) ابن عساكر ، مصورة تاريخ دمشق ، جـ ١٥ ، ص ٨١٨ .

(٥) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، جـ ٩ ، ص ٢١٣ .

ومما لا شك فيه أن أسباب فقر الناس يعود إلى سوء الاحوال الاقتصادية ، وفساد الإدارة ، فقد أصبح تولي المناصب الهامة لا يتم إلا عن طريق الرشوه . كما تفشى البراطيل . وكان أول من أظهر البراطيل في الشام محمد بن صالح بن عبد الله ابن صالح ^(١)

ونشأ عن هذه الحالة الاجتماعية عدة مظاهر ، ترف لا حد له في بيوت الأمراء وذوى المناصب ، وفقر لا حد له في بيوت عامة السكان والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأمراء أو بالاغنياء . ونتج عن ذلك أن خاف الناس على أموالهم من أن تطالها المصادرات فأخذوا يدفنونها في الصحراء ^(٢) ونشأ قلة الأمن ، وانتشار قطاع الطرق وعم السلب والنهب . ^(٣)

كان للاعراب في الشام لباس خاص ، وكان التمايز بين الفئات المختلفة من السكان يتم أحياناً من خلال الزيّ ، فقد كان عيسى بن يونس يلبس قباءً محشواً وخفيفاً أحمرين ، وذلك هو زي الأجناد^(٤) .

وكان لباس الفقهاء في بلاد الشام خلال الفترة موضوع البحث (١٣٢-٢٤٧ هـ) يتضمن لباس الرأس والبدن والحذاء . وكان لباس الرأس عبارة عن عمامة مدورة بعذبتين مرخيتين قدر أربع أصابع على الأكتاف أسوه بصحابة الرسول (ص)^(٥) وربما ارتدى الفقهاء القلنسوة وكانت تسمى أيضاً / الطويلة / وكان أبو مسهر الغساني يضع قلنسوة بعمامة سوداء عذنية .^(٦)

-
- (١) ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ٧٠ ، أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٠ .
 (٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٢١ ، وجزء ٢ ، ص ١٠ .
 (٣) انظر التتوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، المستجاد ، ص ٣٥ - ٤٠ ابن الجوزي المنتظم ج ١ ، ص ١٢٨ .
 (٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج ١٦ ، ص ٢٣٨ .
 (٥) ابن العديم ، بغية الطلب ، ج ١ ، ص ٤١ .
 (٦) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٥ ، ص ١٠٩ و ج ٦ ، ٦٩ ، أحمد بدر ، فقهاء الشام ، ص ٣ .

ولم يكن لبس السواد وهو شعار العباسيين إلزامياً بالنسبة لكافة فقهاء الشام فقد ظل يحيى بن يحيى بن قيس أبو عثمان الغساني عالم دمشق ونقيها يرتدي البياض شعار بني أميه عند دخول العباسيين دمشق . عام (١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) في وقت سود فيه غالبية الناس في دمشق^(١)

وكما طلب الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م) من المنصور اعفاءه من لبس السواد وذلك في احدى زياراته له وسوغ ذلك بأنه "لم يحرم فيه محرم قط ، ولا يكفن فيه ميت قط ، ولا تزين فيه عروس قط" .^(٢)

كما انتشر عند بعض كبار رجال الدولة لبس القناع رغبة في اعطاء هيبة في الصدور ، وأجل في العيون ^(٣) .

وكان الفلاحون يلبسون سراويل ^(٤) ، وذلك بحكم عملهم في الأرض ، إذ يتطلب من الفلاح لبسها لأنها فضفاضة ، وأما الوالي فقد كان يلبس دراعة وقميصاً ومبطنة وخفاً . ^(٥)

وأما أهل الذمة فقد كان لهم زي خاص يختلف عن زي المسلمين رغم التسامح الديني الكبير الذي حظوا به ، فقد أمر الرشيد بأن يؤخذ أهل الذمة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ، وكان قراره هذا بسبب تجسس أهالي الذمة لحساب البيزنطيين ^(٦) .

- (١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٨، ١٠٧
- (٢) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، جـ ١٠ ، ص ٥١ ترجمة الأوزاعي
- (٣) أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٢
- (٤) المقدسي ، البدء والتاريخ ، ص ١٨٣
- (٥) ادم منتر ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، جـ ١ ، ص ١٣٩
- (٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٢-٧٣ ، أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٣ .

وتزايد عدد الجواري وخاصة في بلاد الشام نتيجة للحروب مع البيزنطيين ، ولما كان يجري أحياناً من بيع الرقيق في أسواق دمشق كما حدث في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حين قبض على بعض الثائرين من النصارى ، وبيعوا في أسواق دمشق ^(١) واقتنى الامراء عدداً كبيراً من حاشيتهم وبعض أفراد السكان من الطبقة الثرية عدداً من الجواري ، وكان يبالغ في ثمن بعض الجواري ، وخاصة من تجيد الغناء منهن ، وفي كثير من الأحيان بلغ ثمن الجارية التي تجيد الغناء ثلاثة

الآف دينار ^(٢) . وقد رافق انتشار الجواري انتشار مجالس الغناء والطرب ، وأسفر ذلك عن تقدم الموسيقى ، وتطور في الآت العزف .

وهكذا فقد لعبت كل الظروف المحيطة بالبلاد وخطورة هذه الأوضاع التي تحدثت عنها ومدى تأثيرها على مجتمع دمشق في دفع الأمور نحو الهاوية ، والتي انعكست على حال الناس والمجتمع ومعيشتهم التي تكدرت بفعل الحركات والثورات التي قامت في أعقاب هذه الأوضاع .

ولو نظرنا إلى مجتمع دمشق في العصر العباسي نلاحظ أن حركات المعارضة التي قامت بعدة أشكال واتجاهات كان لها تأثير على النواحي الاجتماعية والاقتصادية فتغيرت نظرة المجتمع الدمشقي للدولة ، وأخذ هذا المجتمع يسير نحو الفوضى والاستقرار ولأجل ذلك فإن العباسيين تعاملوا مع هذا المجتمع بشكل خاص بنوع من الحذر والخوف خشية امتداد هذا الهيجان إلى أقاليم الدولة الأخرى ، إلا أن ذلك لا ينفي بروز عدد كبير من أهالي دمشق والشام في بلاط الخلفاء من العلماء والشعراء وغيرهم ، وقد نال كثير منهم مكانة اجتماعية مميزة ووضع اجتماعي جيد . ^(٣)

ولعل قسوة الظروف ومارافقها من اخفاق في ميادين الدولة الاقتصادية في الشام جعلت الناس يتذكرون الأيام الخوالي من حكم الأمويين ، فيثرون على العباسيين لأتفه الأسباب في بعض الأحيان آملين من وراء ذلك إعادة مدينتهم عاصمة للدولة كما كانت زمن الأمويين .

(١) أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٧ .

(٢) التتوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٩ .

(٣) انظر إلي المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٧١-١٧٢ .

خاتمة

العنوان:	أثر الحركات الفتن و الثورات في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في العصر العباسي الأول من سنة 132 هـ / 247 هـ / 750 م / 861 م
المؤلف الرئيسي:	الرقب، نائل عبدالحميد عبدالرحمن
مؤلفين آخرين:	خريسات، محمد عبدالقادر(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2003
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 239
رقم MD:	548579
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الدراسات العليا
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الحركات الثورية، الأحوال السياسية، العصر العباسي الأول، الأحوال الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/548579

الآف دينار ^(٢) . وقد رافق انتشار الجواري انتشار مجالس الغناء والطرب ، وأسفر ذلك عن تقدم الموسيقى ، وتطور في الآت العزف .

وهكذا فقد لعبت كل الظروف المحيطة بالبلاد وخطورة هذه الأوضاع التي تحدثت عنها ومدى تأثيرها على مجتمع دمشق في دفع الأمور نحو الهاوية ، والتي انعكست على حال الناس والمجتمع ومعيشتهم التي تكدرت بفعل الحركات والثورات التي قامت في أعقاب هذه الأوضاع .

ولو نظرنا إلى مجتمع دمشق في العصر العباسي نلاحظ أن حركات المعارضة التي قامت بعدة أشكال واتجاهات كان لها تأثير على النواحي الاجتماعية والاقتصادية فتغيرت نظرة المجتمع الدمشقي للدولة ، وأخذ هذا المجتمع يسير نحو الفوضى والاستقرار ولأجل ذلك فإن العباسيين تعاملوا مع هذا المجتمع بشكل خاص بنوع من الحذر والخوف خشية امتداد هذا الهيجان إلى أقاليم الدولة الأخرى ، إلا أن ذلك لا ينفي بروز عدد كبير من أهالي دمشق والشام في بلاط الخلفاء من العلماء والشعراء وغيرهم ، وقد نال كثير منهم مكانة اجتماعية مميزة ووضع اجتماعي جيد . ^(٣)

ولعل قسوة الظروف ومارافقها من اخفاق في ميادين الدولة الاقتصادية في الشام جعلت الناس يتذكرون الأيام الخوالي من حكم الأمويين ، فيثورون على العباسيين لأتفه الأسباب في بعض الأحيان آملين من وراء ذلك إعادة مدينتهم عاصمة للدولة كما كانت زمن الأمويين .

(١) أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٧ .

(٢) التتوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، أمينة البيطار ، الحياة السياسية ، ص ٣٥٩ .

(٣) انظر إلي المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٧١-١٧٢ .

خاتمة

تمتعت دمشق بأهمية كبيرة طوال تاريخها ، وزادت هذه الأهمية في العصر الأموي بعد أن صارت المدينة مركز الدولة الإسلامية ، ومحط أنظار الجميع ، واهتمام خلفاء بني أمية بها حتى أصبحت حاضرة الإسلام الأولى .

ورغم اهمال بني العباس لها وانصرافهم إلى غيرها ، إلا أنها بقيت تخطى باهتمام كبير ، واستمرت في عداد المدن الهامة خلال العصر العباسي وقد أسرف العباسيون في استعمال العنف أثناء دخولهم لدمشق في الأيام الأولى لقيام دولتهم بهدف فرض طاعتهم ، وقد تجاوز اسرافهم في القتل من الفقهاء والعلماء إلى نبش قبور خلفاء بني أمية وإظهار جثثهم وجلدها واحراقها ، والإزالة المتعمدة لآثارهم ^(١) ، وطمس مآثرهم .

لقد حاول العباسيون طوال قرن وثلاث القرن اخماد شعلة النضال المتأججة في صدور أهل الشام ضد حكمهم ، وأفلحوا في اضعاف جذوتها لكنهم اخفقوا في إطفائها وامانتها ، فظلت تستعر في نفوسهم ، وقامت في هذه الفترة انتفاضات كثيرة ضد الحكم العباسي ، وتردد فيها أكثر من مرة اسم السفيناني الذي آمن أهل الشام بالنبوءات التي تؤكد حتمية انتصاره على العباسيين ، وعودة مجد الأسرة الأموية المسلوبة، وكان أهل دمشق والشام يبادرون لانضواء تحت راية أي ثائر يعلن أنه ذلك السفيناني ؛ فقد وقفوا إلى جانب أبي محمد السفيناني وأبي العميطر والمبرقع اليماني ^(٢) .

(١) انظر إلى الفصل الأول من الدراسة .

(٢) انظر إلى هذه الثورات في الفصل الثاني من الدراسة .

ولم تخل هذه الفترة كذلك من فتن أهلية ونزاعات قبلية أثار بعضها الولاة العباسيون أنفسهم بانحيازهم إلى هذا الفريق أو ذلك من قبائل الشام .^(١) ودفعت الثورات المتكررة والقمع الذي كان يتم بواسطة الولاة الخلفاء العباسيين إلى القيام بزيارات شخصية إلى هذا الإقليم للتعرف على مشاكله وليقفوا عن كثب على مشاكل أهل دمشق والشام .

ومن الطبيعي أن يستمر الشعور بعدم الرضى عند أهل دمشق والشام في هذه الفترة طالما أستمريت المذابح ، وظل العنف هو السبيل لخنق الاصوات التي كانت ترتفع ضد الجور العباسي ، وأدى عدم الاستقرار السياسي الناجم عن الثورات والفتن المتكررة إلى حالة من الفوضى واضطراب جبل الأمن وتفشي السلب والنهب من جراء تكاثر اللصوص وقطاع الطرق حتى أن إبراهيم بن المهدي والي الرشيد لدى دمشق اضطر إلى مهادنة عدد من زعماء اللصوص ليضمن الاستقرار والأمن في المنطقة ، وازداد الأمر سوءاً ، فلم يعد المسافرين والتجار يأمنون على أرواحهم وأموالهم بسبب انعدام الأمن وازدياد قطاع الطرق ، واضطر إلى استبدال طريق الشام بطريق آخر .

ومن جهة أخرى فقد اسهمت القبائل العربية الشامية في العديد من الفتن والاضطرابات التي اندلعت في المنطقة في الفترة موضوع البحث ووقفت في احيان كثيرة موقف المناوئ للسلطات العباسية لأسباب عديدة منها :-

- ١- انحياز العديد من ولاة الشام ودمشق العباسيين لأحد الحيين المتخاصمين الأمر الذي كان يوقف النعرات الطائفية وتجدد الحروب القبلية .
- ٢- إن هذه القبائل لعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية أيام الأمويين ، وكانت تشعر بثقلها السياسي وبحاجة الدولة إلى دعمها ، بيد أن مجيء العباسيين إلى سدة الخلافة حرّمها من جميع هذه المكاسب المادية والمعنوية .

(١) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ن جـ ١ ، ٧ ، ٨ ، ٢٤ ، ١٩ .

ومع أن اقتتال القبائل الشامية فيما بينها غالباً ما كان يتخذ طابع العصبية القبلية إلا أنه كان يتحول أحياناً إلى انتفاضة موجهة ضد السلطة العباسية ، فتقف هذه القبائل صفاً واحداً ضد عدوها المشترك - السلطة العباسية - كما في ثورة السفيناني وثورة المبرقع .

وقد دفع الفلاحون ثمن هذه الصراعات القبلية التي كانت تجري فوق أرضهم ذلك أن القبائل كانت تمتلك تخوم مدينة دمشق و غوطتها وغيرها من قرى ومزارع عديدة كانت تستثمرها زراعياً بواسطة فلاحها ، وكانت هذه القرى والمزارع تنقلب إلى ساحات للمعارك في حالات النزاع القبلي كما كانت أهدافاً اقتصادية إذا ما حمي وطيسها ، فكان يتم احراق القرى واتلاف المزروعات واجتثاث الأشجار المثمرة وقتل الفلاحين . (١)

ووسط هذه الاحوال كانت الدولة تصب اهتمامها على زيادة الضرائب على الأرض وخيراتها كلما كانت بحاجة إلى الأموال خصوصاً بعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية . ولجأت الدولة إلى نظام الالتزام وتضمين الأراضي لتأمين الأموال فانعكس هذا النظام سلباً على الأرض وعلى الفلاحين أنفسهم .

كذلك عانى الفلاحون من عسف الجباة وأساليبهم اللانسانية في تحصيل الضرائب ودفع سوء الأوضاع الاقتصادية ما يناهز مئة ألف من فلاحى فلسطين إلى التجمع تحت راية المبرقع اليماني تعبيراً عن الظلم الذي يعانون منه ، وكانت ثورتهم واحدة من أخطر الثورات الاجتماعية التي عرفتھا الدولة العباسية .

ومن البديهي أن الإهمال المتكرر للأرض الذي نجم أصلاً عن تناقص اعداد الفلاحين من جراء الحروب أو هجرتهم للأرض بسبب فداحة الضرائب وعسف الجباة قد أصاب الاقتصاد الدمشقي بأضرار كبيرة .

(١) انظر إلى الفصل الثاني والثالث (ثورة الفلاحين ، المبرقع اليماني) .

وكان للاضطرابات المتلاحقة آثار سلبية على الحياة الاجتماعية في القرى والمدن ، ذلك أن عدم الاستقرار وانعدام الأمن واقفال المتاجر بسبب الاقتتال الذي كان يجري في شوارع المدينة ، واشتراك الفلاحين في هذه الحروب أو قتل اعداد كبيرة منهم ، قد أدى إلى التدهور الاقتصادي ، وشهدت التجارة تراجعاً ملحوظاً ، إذ من الطبيعي أن عدم الاستقرار السياسي لا يساعد على الازدهار التجاري .

كما أن اتلاف المزروعات واقتلاع الأشجار المثمرة ، واحراق القرى كان له انعكاسات سيئة على الحياة الاقتصادية فعزّت المواد الضرورية خصوصاً القمح وهو المادة الرئيسية التي يعتمد عليها الناس في قوتهم اليومي ، وارتفعت اثمان الحاجيات وعانت دمشق كثيراً من الضائقة الاقتصادية لدرجة أن الأهالي أخذوا يعتدون على أموال القوافل

ومهما يكن من أمر فإن هناك بعض الحقائق لا يمكن اغفالها في دمشق إبان الحكم العباسي لها منها :-

١- شكّلت أحداث دمشق عنصر المعارضة باستمرار ضد الوجود العباسي ومركزاً لمعظم الحركات التي قامت ، ولم يتوان الأهالي عن دعمهم والوقوف إلى جانبهم ، فأصبحوا رمز التحدي الدائم للوجود العباسي المتمثل بالوالي وادارته وحاميته العسكرية .

٢- نشأت في المدينة حركات معارضة قادها أفراد عرفوا باخلاصهم للبيت الأموي وبالتعاون مع الأهالي الذين دعموا الصمود في وجه السلطة العباسية .

٣- أثرت أحداث التي مرت بها دمشق خلال فترات الدراسة على جميع المرافق الاقتصادية ، وأنعكس ذلك بنتائج سيئة على الاقتصاد الدمشقي وبلاد الشام عامة .

٤- شكل الفقهاء الطليعة لتثقيف الناس حول حقيقة الوجود العباسي ، وضرورة إزالة الظلم الواقع عليهم ، من خلال الثورة ، وأحاديث مجالس العلم .

وفي الختام يمكن القول أن العباسيين اخفقوا في كسب ولاء أهل دمشق والشام إلى جانبهم وظلت عواطف الشاميين معادية لهم طوال فترة خضوعهم لحكمهم وإلى حين قيام الدولة الطولونية .